

لغزوميات المقاتل

علم الأخلاق

سبينوزا

ترجمة جمال الدين سعيد



ca Alexandria

الطبعة الثانية

دار النشر

سلسلۃ یدیرھا
یوسف الصدیق

علم الأخلاق

سبينوزا

علم الأخلاق

ترجمة جلال الدين سعيد

دار الجنويد للنشر - قزو مصر

© جميع الحقوق محفوظة لدار الجنوب للنشر

SUD EDITIONS

79 نهج فلسطين - 1002 تونس

الهاتف: 785,179 - 782,991

ISBN: 9973-703-52-9

إلى أختي سميرة

مقدمة

1- حياة سبينوزا.

ولد ياروخ سبينوزا بأمستردام في الرابع والعشرين من نوفمبر، سنة 1632، وهو ينتمي إلى أسرة يهودية برتغالية. وقد أراد أبواه أن يثبته في دينه فبعثاه إلى مدرسة حاخام مشهور يدعى مورتيرا (Mortira) فتعلم على يديه اللغة العبرية وتفنن أصول التلمود. ثم انتمى سبينوزا دراسة اللغة اللاتينية لدى طبيب يدعى فان دن إنده (Van den Ende)، مما أضاع في عينه نورا جديدا وساعده على اكتشاف فلاسفة القرون الوسطى، وعلى رأسهم القديس طوماس الأكويني، وفلاسفة عصر النهضة، ومن بينهم فيثاغورس وبروتو، وفلاسفة العصر الجديد من أمثال بيكون وهوبس وديكارت. ونظرا إلى ما دأب عليه سبينوزا، منذ كان في الخامسة عشر من عمره، من مجادلة ومحاكاة كالتا تحيران رجال الدين وتضخمهم، فأنه سرعان ما انعتق من رتبة الكهنة اليهودي، فخلبت آمال الأحرار التي علقوها عليه طويلا واضطربهم الأمر، بعد محاولات فاشلة لودعه بالوعد والوعد، إلى فصله عن الطائفة اليهودية وحرمانه من حقوقه الدينية، وكان ذلك في 27 جويلية 1656. ولم يكف الأحرار ذلك، إذ حرضوا قضاة المدينة على الحكم عليه بحظر الإقامة، فلجأ إلى إحدى ضواحي أمستردام، بعد ما لقيه من محاولة اغتيال من طرف بعض المتعصبين، وبعد تنازله التفتائي عن حقوقه في تركة أبيه على إثر ما تبرقه له أخته من دسائس دينية لحرمانه من الميراث.

وبقي سبينوزا مدة من الزمن بأولفركرك (Ouwkerk) حيث كان لا بد له من تعلم حرفة يقات منها، فبرع في صقل الزجاج الذي تُصنع منه عدسات المقراب والمرصدة، ثم استقر بقرية رينسبرغ (Rijnsburg) قرب لايد (Leyde)، دون أن يقطع الصلة بأصدقائه القدامى، الذين بقوا له أوفياء إلى آخر حياته، وهم: سيمون دي فريس (Simon de Vries)، وبيار بالينغ (Pierre Balling)، وبارغ ريس

(Jarrig Jelles)، ولويس مثير (Louis Meyer)، وجان بوفمستر (Jean Bouwmeester).

سنة 1661، شرع سبينوزا في تأليف "رسالة في إصلاح العقل"، إلا أنه لم يتمها، ثم انتقل إلى فوربورق (Voorburg) حيث أصدر، سنة 1663، الكتاب الوحيد الذي يحمل اسمه وهو كتاب "مبادئ فلسفة ديكارت"، ويتبعه في نفس المجلد كتاب "خواطر ميتافيزيقية". وفي نفس المدينة، تعرف سبينوزا على أصدقاء جدد، من بينهم العالم كريستيان هويغنس (Christian Huygens)، ورئيس الحزب الليبرالي المناهض لأمرأه أورنجا، جان دي ويت (Jean de Witt). ولعل اهتمام سبينوزا بأحداث الساعة هو ما شغله عن إتمام الرسالة في إصلاح العقل، وما عطل إنجاز "علم الأخلاق"، من أجل تأليف "الرسالة في اللاهوت والسياسة" (1670)، تلك الرسالة التي تم تأليفها في جهنم، من قبل يهودي مارق مرتد وبمعونة الشيطان". ولقد صدرت هذه الرسالة خفية الإسم، نظرا إلى ظروف القمع والاضطهاد التي كانت سائدة آنذاك، وهي ظروف حثت سبينوزا على الهجرة إلى مدينة لاهاي، حيث صديقه وحامييه جان دي ويت الذي حدد له معاشا بعائتي فلورين.

وعلى إثر غزو جيوش لويس الرابع عشر لهولندا، استولى الحزب الأورنيجي على الحكم بعد أن أثار للجمهور ضد الأخوين جان وكرنليس دي ويت اللذين وقع اختيالهما والتكيلي بهما بأشنع الطرق، مما كان له الوقع الكبير في نفس سبينوزا.

وتلقى سبينوزا، سنة 1673، عرضا من أمير بافاريا للتدريس بجامعة هایدلبرغ (Heidelberg)، قرفض هذا العرض خوفا من أن يحد ذلك من حريقه في التفكير والفلسف الحق.

وفي نهاية جويلية 1675، باع سبينوزا بطبع "علم الأخلاق" بعد أن قضى في تأليفه خمسة عشرة عاما. إلا أنه عدل أخيرا عن طبعه عندما بلغه أن جمعا من العلماء ورجال الدين كانوا له بالمرصاد. أما "الرسالة السياسية"، فقد وافاه الأجل قبل أن يكملها، في الواحد والعشرين من فوري 1677. وفي نفس السنة،

قام نقر من أصدقائه بنشر مؤلفاته دون ذكر اسم الناشر ولا مكان الطبع،
مقتصرين على الحرف الأول من اسم سبينوزا ولقبه.

2- أشهره:

كانت حياة سبينوزا، على قصرها، خصبة بما أنتجه الفيلسوف من الكتب
والرسائل التي دارت على الكثير من المسائل. ولم ينشر سبينوزا في حياته غير
كتابين اثنين، لم يصدر باسمه سوى واحد منهما فقط هو "مبادئ فلسفة رينيه
ديكارته"، وملحقه الصادر بعنوان "خواطر ميتافيزيقية"؛ وقد نُشر هذا الكتاب
بأمستردام سنة 1663.

وأما الكتاب الثاني فهو "الرسالة في اللاهوت والعناية"، ورغم أن هذا
الكتاب قد نُشر بأمستردام سنة 1670، فقد كُتب على الغلاف أنه طُبع في
هامبورغ بألمانيا، ولم يُذكر اسم صاحبه. وبعد وفاة سبينوزا، نشر أصدقاؤه
مجموعة من مؤلفاته تحت عنوان "المؤلفات المخطئة"، مع ذكر اسم المؤلف
بحروفه الأولى فقط. وتحتوي هذه المؤلفات، حسب الترتيب، على "علم الأخلاق"،
"الرسالة السياسية"، "رسالة في إصلاح العقل"، "المراسلات"، "موجز في النحو
العبري". ولقد جاءت هذه المؤلفات باللغة اللاتينية، ما عدا بعض الرسائل التي
ترجمت في مرحلة لاحقة عن اللغة الهولندية. وبإستثناء الترجمة الهولندية التي
أصدرها غلايزميك (Glazemaker) للمؤلفات المخطئة، لم يُعد نشر هذه المؤلفات
من جديد طيلة القرن الثامن عشر، فلم تنشر إلا في القرن التاسع عشر الذي شهد
طباعات مختلفة لها، أهمها على الإطلاق طبعة فان فلوتن ولاند (Van Vloten & Land)
من سنة 1882 إلى سنة 1884. وتحتوي هذه الطبعة، بالإضافة إلى
المؤلفات المذكورة، على "رسالة في قوس قزح"، ورسالة في بعض الصفحات
عن "حساب الحظوظ"، ومراسلات جديدة لم يقع نشرها في الطبعة السابقة لأنها
كانت مفقودة. وأضيف إلى هذه الطبعة أيضا كتاب مفقود لسبينوزا، اكتشفه فان
فلوتن في نسخة أولى عام 1851 ونسخة ثانية عام 1861، قبل أن ينشره سنة
1862، وهو الرسالة الموجزة في الله وفي الإنسان وسعادته. ومع أن طبعة

فان فلوطن ولائد تعتبر طبعه ممتازة، إلا أن طبعه كارل قيهارت (Carl Gehhardt, 1924) النقدية أصبحت مفضلة عليها في نظر الجميع.

أما الطبقات والترجمات باللغة الانجليزية، فمنها ترجمة بويل (A. Boyle) لكتاب علم الأخلاق و رسالة في إصلاح العقل، وترجمة روبنسن (Robinson) للرسالة الموجزة، وأيضاً ترجمة نفس الرسالة من قبل وولف (A. Wolf)، وتوجد أيضاً ترجمة لأعمال سينوزا الرئيسية قام بها إليس (R. H. M. Elwes).

وأما الترجمات الفرنسية، فمنها ترجمة علم الأخلاق التي أعدها في بداية القرن الثامن عشر الكونت دي برلانفيلي (Le Comte de Boulainvilliers) والتي نشرت سنة 1907، وترجمة لمجموع أعمال سينوزا، نشرت في القرن التاسع عشر، وهي من إعداد سيمي (Saissset) وبرات (Prat). أما الترجمة الدقيقة والصارمة التي تعتبر إلى يومنا هذا مرجعاً رئيساً لفلسفة سينوزا، فهي التي أعدها شارل أبون (Charles Appuhn) منذ سنة 1904، وهي تشمل كل مؤلفات الفيلسوف المعروفة، باستثناء الموجز في النحو العبري، والرسالتين في قوس قزح وفي حساب الحظوظ. وتوجد أيضاً ترجمة لكتاب علم الأخلاق قام بها جيرينو (Guérinot)، وترجمة للرسالة في إصلاح العقل من إعداد كويري (Koyré)، وصدرت أيضاً عن دار غاليمار للنشر، عام 1954، ترجمة جديدة لأعمال سينوزا اتمرك فيها كل من رولان كايوا (R. Caillois) ومادلين فرانسيس (M. Francis) وروبير مسراحي (R. Misrahi)، وصدرت أخيراً ترجمتان لكتاب علم الأخلاق، الأولى من إعداد برنار بوترا (B. Peutat) سنة 1988، والثانية من إعداد روبير مسراحي سنة 1990.

3- علم الأخلاق .

اصطنع سينوزا في كتاب علم الأخلاق منهج الرياضيين في الهندسة، وأسرف في اصطناع هذا المنهج، حتى لقد جاء كتابه أقربه يكتب علماء الهندسة منه يكتب الفلاسفة، لما تضمنه من تعريفات وبنهيات ومصادرات وقضايا وبراهين وجوامع وما إلى ذلك مما يصطنعه علماء الهندسة في كتبهم ورسائلهم. وفي الواقع، ليس سينوزا أول من بانر بعرض فلسفته على النمط الهندسي، بل

سبقه في ذلك عدد من الفلاسفة، من أمثال فرفوريوس، وبركلوس، وديونس سكوت، وبرجرديرك، وبرونوا وابن ميمون، إلخ (راجع في هذا الصدد ما يقوله ولفسون Wolfson في كتابه "The philosophy of Spinoza"، الطبعة الأمريكية، 1969، الجزء الأول، ص 40-41). فمذ كان سبينوزا مقيما برينسبورغ، أي منذ 1661، فهو قد فكر في عرض مذهبه على المنهج الهندسي، وليس أدل على ذلك من الرسالة التي بعثها إلى الدنبرغ، ردّاً على رسالة هذا الأخير بتاريخ 16-26 أوت 1661 (وهي الرسالة رقم 2 في طبعة فان فلوطن ولاند). هذا فضلا عن تبديل الرسالة الموجزة التي يرجع تأليفها إلى نفس التاريخ تقريبا، حيث نجد محاولة أولى لاصطناع المنهج الهندسي. ثم إن هذا المنهج هو الذي توخاه سبينوزا في مبادئ فلسفة ديكارت، هذا الفيلسوف الذي تبنى هو الآخر نفس المنهج في رده على الاعتراضات الثانية.

ففي الفترة التي قضتها ابن سبينوزا بقرية رينسبورغ، ألف الجزء الأول من علم الأخلاق في شكله الأصلي، وأرسله إلى بعض أصدقائه ليطلعوا عليه ويدرسوه ويبدوا رأيهم فيه. وواصل سبينوزا إنجاز كتابه هذا سنوات طويلة، مرر في كل مرة ما أتمه إلى أصدقائه، موصيا إياهم بالآطلاعوا أحدا على عمله طالما لم يكمله (انظر الرسالة 28، جوان 1665)، فطراً عليه بعض التحويرات التي عطلت إنهاءه، رغم أنه لم يشغله عنه أمر منذ أن أصدر مبادئ الفلسفة ديكارت سنة 1663. إلا أنه تشاغل فعلا عن هذا العمل إبان الرسالة التي بعثها بتاريخ جوان 1665 إلى أحد أصدقائه متحدثا فيها عما يأخذه تأليف علم الأخلاق من وقت، فعكف على تأليف الرسالة في اللاهوت والسياسة، إسهما منه في التصدي لموجة العنف التي كانت سائدة آنذاك ضد حرية التفكير، ورجية في ضمّ صوته إلى صوت أصدقائه الذين ما انفكوا ينادون بالإنسانية الدولة وحرية المعتقد. وعلى إثر صدور الرسالة في اللاهوت والسياسة سنة 1670، أكتب سبينوزا من جديد على تأليف علم الأخلاق، بعدما تشبّع في الأكتفاء بقراءات متنوعة عرفت مثلاً بهوبس (Hobbes) وبالمجادلات التي أثارها مذهبه، ولولا هذه القراءات ما كتب لعلم الأخلاق أن يكون على شكله الحالي.

وفي نهاية سنة 1674، أتم سيبنورا تأليف علم الأخلاق ووزع بعض النسخ من المخطوط الأصلي على أصدقائه وعلى أصدقاء جدد، مثل تشيرنهاوس (Tschirnhaus) وشولر (Schuller). وعلى الرغم مما لقيته الرسالة في اللاهوت والسياسة من استنكار شديد من قبل السلطات الدينية التي أقرت العزم على حظر إصدار أي كتاب آخر من تأليف "اليهودي الجحود"، إلا أن سيبنورا كان ينوي نشر كتاب علم الأخلاق، وأخذ الاستعدادات اللازمة لذلك، كما يفيد المکتوب الذي أرسله إليه الدنبروغ، بتاريخ 22 جويلية 1675 (انظر الرسالة 62). لكن رد سيبنورا على هذا المکتوب يفتر لنا أسباب تراجعه، إذ قال: "لقد وصلتني رسالتك بينما كنت على أهبة الاستعداد إلى أمستردام كي أدع إلى الطبع الكتاب الذي حدثتك عنه. ولما كنت مشغلا بذلك إذ ذاع لبا صدور كتاب لي عن الله، حيث أسمى إلى إنكار وجوده، وصلت بهذا القيل عدد كبير جدا من الأشخاص. فبعض اللاهوتيين (العلم أول من رجع هذه الإشاعة) قد اغتتموا الفرصة لرفع شكوى ضدي أمام الأمير والقضاة ثم إن بعض الديكارتيين الأحياء الذين عرفوا بمؤيديتهم لي لم يجدوا بدا، كي يتبرؤوا من كل شبهة، من الإعراب في كل مقام عن كرههم الشديد لافكساري ومؤلفاتي. قلما بلغني ذلك من أشخاص جديرين بالثقة، فأخبرولي في نفس الوقت بما يدسه في اللاهوتيين من مكائد، قررت أن أرجى نشر ما أعدته، عسى أن تتضح الأمور، إلا أنها، على ما يبدو، تزداد تلو ما كل يوم، ولست أدري حقا ما سأفعله" (الرسالة 68).

لا جرم أن سيبنورا كان يعاني من مرض عضال أنهكه في هذه السنوات الأخيرة من عمره، فلم يعد بإمكانه مجابهة العنط الدينية والعيامية المستبدة منذ منبحة 1672 التي ذهب ضحيتها الأخوان دي ويت، حاميا ومُحاميا حرية التفكير والقول والمعتقد، ولا جرم، "أن فضيلة الإنسان الحر تتمثل في توقيه للمخاطر بفدر ما تتمثل في التغلب عليها" (علم الأخلاق، الجزء IV، القضية 69)، وأن رباطة الجأش هي "الرغبة التي يسعى بها كل فرد إلى حفظ وجوده وفقا لما يمل به العقل لمسب" (نفس المصدر، الجزء III، القضية 59، الحاشية).

بقي كتاب علم الأخلاق إذن في درج من أدراج سيبنورا ولم يُنشر إلا بعد موته، إذ سُلّمت جل مخطوطاته إلى الناشر ريوورتس (Rieuwertz) بعد أن كانت

تباع مع جملة أمتعته من أجل دفع معاليم الدفن، لولا الهبة التي تكرّم بها مجهول من أمستردام تمويلًا لمصاريف طبع مؤلفات الفقيه.

يحتل إذن علم الأخلاق مكان الصدارة من بين مؤلفات سبينوزا، رغم أنه توقف عن إنجازه مدة من الزمن من أجل تأليف الرسالة في اللاهوت والسياسة وهي رسالة ظرفية تعالج أمورًا ظرفية، على خلاف "الأخلاق" التي تتميز عن انعكاس عقل الله الأزلي في الجزء الأزلي من عقل سبينوزا القالي - ورغم أنه كتاب لم يشغل فيلسوفنا إلا بعد تأمل عميق في شروط إصلاح العقل. ولعلّ المقارنة قد تكون عظيمة النقدة بين علم الأخلاق والرسالة في إصلاح العقل، سيما وأن الإجماع حاصل تقريبًا على أن علم الأخلاق هو تحقيق للمشروع الذي خطّطه سبينوزا في الرسالة في إصلاح العقل. ففي الجزء الأول من هذه الرسالة، يسمى سبينوزا، عن طريق منهج للتأمل (Méthode réflexive)، إلى الإرتقاء إلى فكرة الله التي هي مبدأ للعلم الصحيح وقاعدته. وكان عليه في الجزء الثاني، بعد أن أصبح مشرفًا على نشوء الأشياء وصورها، أن يشرع، انطلاقًا من فكرة الله وصفاته، في استنباط معلومات صحيحة جديدة، أي في إنشاء العلم الاستنتاجي (La science déductive). لكن، كما أشار إلى ذلك أندري دريون (A. Darbon)، لم يعد تأليف هذا الجزء الثاني أمرًا ضروريًا ما دام سبينوزا قد تقدّم شوطًا كبيرًا في إنجاز علم الأخلاق، سيما وأن كل ما كان سيتضمّنه من استنتاجات إنما هي الاستنتاجات ذاتها المؤلفة لجوهر علم الأخلاق¹. وفضلا عن ذلك يبيّن أندري دريون بكامل الوضوح، في إنشاء مناقشته لأطروحة من أطروحات البحتة فرودنتال (Freudenthal) -الذي يرى أن الجزء الناقص من الرسالة في إصلاح العقل كان سيخصّص للأطولوجيا- أن الميتودولوجيا (Méthodologie) والأطولوجيا (Ontologie) لا تنفصلان إحداها عن الأخرى في فكر سبينوزا، رغم أن الفصل قد يسدو بديهيا اليوم بين الميتودولوجيا ونظرية المعرفة وعلوم المنطق والأطولوجيا والأخلاق، وذلك لأسباب مختلفة، لعل أهمّها:

1- Cf. André Darbon, - "Etudes spinozistes", Paris, P.U.F, 1946, première partie intitulée: Le Traité de la Réforme de l'Entendement, sa signification et son économie, pp. 55-56.

أ- تطوّر العلوم الوضعية التي تعتني بدراسة الطبيعة لأغراض تقنية وبرغماتية ويغضّ الطرف عن كلّ تصوّر صميمي لطبيعة الأشياء؛
ب- تأثّرنا بفلسفة كانت النقدية التي تحبط مبدئيًا كلّ محاولة لتأسيس علم للوجود؛
ج- المنطق الصّوري الذي يهتم بصورة الفكر ولا يبالى بالموضوعات التي ينطبق عليها.

فعلاء إنّ الحكمة الميبينوزية هي، على غرار الحكمة القديمة، كلّ واحد لا ينفصل فيه الجانب المنهجي عن المبحث الأنطولوجي، ولا المبحث الأنطولوجي عن الجانب الإيتولوجي (Ethologique) وعن الغاية الأخلاقية.

ولعلّ من يفتح كتاب ميبينوزا في علم الأخلاق سيستغرب لأول وهلة من كون الفيلسوف قد بدأ حديثه عن الله وعن النّفس وانفعالاتها قبل الحديث في الأخلاق؛ وقد يذهب به الظنّ إلى أنّ الأبواب الثلاثة الأولى من هذا الكتاب هي أكثر قيمة، في نظر ميبينوزا، من البابين الأخيرين اللّذين لعلّهما إضافيان. إلّا أنّ مثل هذا الاعتقاد يشير إلى سوء فهم لطموح ميبينوزا الحقيقي، الذي يظهر بوضوح منذ الفقرات الأولى من الرسالة في إصلاح العقل، ألا وهو إرشاد الإنسان إلى سبيل الخلاص في الدنيا قبل الآخرة، بإقناعه أنّ "القبلة ليست جزاء الفضيلة، وإنّما هي الفضيلة نفسها" (علم الأخلاق، الجزء ٧، القضية 42). فأخلاق ميبينوزا ليست عنصرا أو جزءا من فلسفته، بل فلسفته كلّها أخلاقية في مبادئها وأسسها وفي أبعادها ومصادرها. ومع أنّ الأبواب الأولى من علم الأخلاق تعرض المبادئ الميتافيزيقية التي تقوم عليها المبادئ الأخلاقية، فضلا عن كون المطلوب من هذه الأبواب هو أن تبين لنا ما ينبغي معرفته لكي يصبح المشروع الأخلاقي ممكنا، إلّا أنّ ما يحدّد البعد النظري لهذه الأبواب هو السعي إلى بلوغ الخير الأعظم والقوز بالمعاداة الحقيقية. إنّ المشكل الذي يتناوله ميبينوزا بالدرجة الأولى لا يتعلّق ببداية المعرفة، متلما الشّأن بالنسبة إلى ديكارت مثلا، وإنّما هو يتعلّق بصحة النّفس ومعادتها القصور (انظر الرسالة في إصلاح العقل، الفقرتان 1 و2). أمّا السؤال الذي كان ميبينوزا يطرحه على نفسه فهو ليس: "ماذا يجب أن أفعل؟" وإنّما: "ماذا يجب أن أفعل كي أفوز بالمعاداة؟".

ولن نحيد عن الصواب إذا عرفنا الأخلاق المسيئورية بأنها أخلاق السعادة، وفلسفته بأنها فلسفة الفرح، باعتبار أن الطرح الأخلاقي لقضية الفرح والسعادة في كتاب علم الأخلاق لا يخرج عن نطاق التساؤل الآتي: كيف أضمن النفسي أكبر عدد من انفعالات الفرح وأقل عدد من انفعالات الحزن؟⁹

بيد أن انفعالات الفرح والحزن ترتبط بدرجة تأثرنا بالعالم وتأثيرنا فيه. ولكن أوجه انفعالنا تفوق في معظم الأحيان أوجه الفعل عندنا، كما أننا ننسب إلى إرادتنا ما ينسب في الواقع إلى سلسلة لا محدودة من العلل الضرورية، وهي سلسلة مرتبطة بعدد لا محدود من السلاسل اللامحدودة الأخرى التي تكون معا الوجه الكلي للكون (Facies totius universi)، وهو الله أو الطبيعة (Deus sive Natura).

فإن بفعل الإنسان هو إذن أن يكون عبداً، أي أن يتحمل عبء الكون بأسره دون وعي منه بذلك، وأن يفعل هو ألا يكون حلقة لا واعية في سلسلة العلل الضرورية، أي أن يكون واعياً تمام الوعي بنفسه وأن تقتن معرفته لنفسه معرفته لليلة والأشياء (Conscious Sui, Dei et Rerum).

وقد يبدو مستحيلاً على عقل الإنسان المحدود الإحاطة بالكل اللامحدود، إلا أن الأمر يبدو كذلك فقط بالنسبة إلى من يزيع عن الطريق السوي للفلسف، كالمدرسين أو ديكارت. فالمدرسيون ينطلقون من معرفة الأشياء المحسوسة ويرتقون إلى معرفة الله، وهم بهذه الصورة يقبلون نظام الوجود ويعكسون ترتيب الأمور ويسينون للفلسف، مما ييؤ بهم إلى الوقوع في التناقض فلا يخرجون من جهلهم لطبيعة الله والأشياء (راجع علم الأخلاق، الجزء II، القضية 10، حاشية اللازمة). ولما ديكارت، فلقد تجاوز المذاهب المدرسية بنقده للمعرفة الحسية وباعتباره الإله والنفس جوهرين عقليين يدركان بالعقل بصورة قبلية، إلا أنه قد تعذر عليه، نظراً إلى منطلقه المثالي، الخروج من الذاتية وفهم الوجود. إن الفصل الذي أقامته فلسفة الكوجيطو بين عقلنا البشري والعقل الإلهي لم يساعدنا على إدراك الوجود، وحكم على العقل البشري بالركود النهائي في حدود ضيقة لا تتعصب طموحه الأصلي. فكل من الفلسفة المدرسية والفلسفة الديكارتية قد عجزت عن ملج العقل البشري الذكمة اللازمة كي يتطور بصورة

لاهوائية، حسب للنظام الضروري الذي ينطلق من المبادئ لبوغ النتائج. وهكذا
 فيتما كانت معالجة ديكارته لطبيعة النفس البشرية ("التأمل الثاني") سابقة لتأمله
 في الذات الإلهية ("التأمل الثالث")، كان تأمل سبينوزا في الذات الإلهية (الجزء
 الأول من علم الأخلاق) سابقا لبحثه في طبيعة النفس وأصلها (الجزء الثاني).
 وليس هذا القلب احتياطيا، لأن الله، كما لاحظ مرسيل غيرو (M. Guéroult)³،
 هو، بالنسبة إلى النفس التي يتضمنها ك فكرة من أفكار عقله، المبدأ الوحيد الذي
 يفتر وجودها ورعيها لذاتها وللأشياء؛ فلا بد إذن من التسرع بالبحث في الله
 وأن تجعل منه مبدأ نشوء المعرفة الإنسانية وتكوينها. إن معرفة طبيعة الله
 الحقيقية هي ما يسمح بالتصاهر عقل الإنسان المحدود في عقل الله اللامحدود
 وبإدراك أن قوة الفكر لدينا ليست غير قوة الفكر الإلهي، وبهذا تعلم أننا نثبت فيه
 وهو لدينا بأنه آتينا من روحه⁴.

ومن هذا المنظور نفهم لماذا يستهل سبينوزا كتاب "الأخلاق" بالنظر في
 طبيعة الله وفي أمور ما بعد طبيعية أخرى مثل: الجوهر، الصفة، الحالى، العلة
 الذاتية، إلخ، قبل أن يتناول بالتدريس القضايا الأخلاقية التي يوحى بها عنوان
 كتابه. ولقد كتب سبينوزا في هذا الصدد، مخاطبا بليينبارغ (G. Blyenber): "إن
 ما طلبته من توضيح يتعلق بجزء كبير من "الأخلاق" التي، كما هو معلوم،
 تتأسس على الميتافيزيقا والفيزيقا"⁵. ينحصر دور الميتافيزيقا إذن، عند الفيلسوف
 الهولندي، في البحث عن أسس الأخلاق، وكما انصب اهتمامه على المباحث
 الطبيعية، كان ذلك بقدر ما يقتضيه تأسيس الأخلاق لا غير.

4- الترجمة.

اعتمدنا في هذه الترجمة على المصادر التالية:

- Spinoza, ETHIQUE, trad. de Charles Appuhn, avec texte latin en regard,
 Paris, Garnier, 1934.

3- M. Guéroult, "Spinoza", T.2, "L'Âme" (Ethique 2), Paris, Aubier-Montaigne, 1974,
 chap. 1, paragraphe 1, page 7.

4- يوحنا الرسالة الأولى، 4، 13، ينكره سبينوزا في مسهل رسالته في اللاهوت وفلسفة، ترجمة حسن
 حلي.

5- الرسالة 27، إلى ولييلوغ.

- Spinoza, **ETHIQUE**, trad. de Roland Caillois, Paris, Gallimard, 1954, Bibliothèque de la Pléiade (in Oeuvres complètes).
- Spinoza, **ETHIQUE**, trad. de Bernard Pautrat, avec texte latin en regard, Paris, Seuil, octobre 1988, coll. "L'ordre philosophique".
- Spinoza, **ETHIQUE**, trad. de Robert Misrahi, Paris, P.U.F., Février 1990, coll. "Philosophie d'aujourd'hui".

فضلتنا الاعتماد أساساً على ترجمة شارل أبون وعلى النص اللاتيني المعقل لها، نظراً إلى ما تتسم به هذه الترجمة من دقة وصرامة ووفاء للنص الأصلي؛ إلا أن هذه المزاي تقارنها بعض العيوب، وأكثر هذه العيوب إلحاحاً للقارئ ما تكتفه بعض التعبيرات والجمال من غموض يصعب استجلاؤه فاستعنا في كل مرة بالترجمات الأخرى التي أثر أصحابها وضوح التعبير وجمال الأسلوب على صواب النص الأصلي أحياناً. ولكن من هؤلاء المترجمين تبريراته في هذا الشأن، إلا أن الإجماع حاصل على أن الترجمات، مهما تنوعت، لا تعوض أبداً النص الأصلي. ولكن اللغة اللاتينية لم تعد لغة حية، والإقبال عليها يكاد يكون مفقوداً في مجتمعاتنا العربية الحالية، والترجمة شئت أمرا لا مندوحة عنه إذا أردنا ألا يبقى للقارئ العربي محروماً من أعظم ما أنتجه فكر الإنسان على الإطلاق.

وفي اعتقادنا أنه قد حان الأوان بعد مرور ثلاثة قرون على تأليف كتاب علم الأخلاق وبعدمنا أنضح لنا عدم توفر أية ترجمة لهذا الأثر - وهذا يعود إلى أسباب مختلفة لعل أهمها صعوبة الكتاب، وموضوعاته الجريئة الحساسة، وشخصية مؤلفه اليهودي الأصل - أن تقدم على هذه الترجمة التي كان محرّضنا الوحيد في إعدادها شغلنا بمذهب سبينوزا وبأفكاره الجميلة الصحيحة التي ما انفكت تولّد فينا متعة الفهم. وأملنا أن يشاركنا الكثير هذه المتعة، لأن كل ما يسعى إليه المرء "على أساس مبدأ العقل هو الفهم لا غير، ولا تترى النفس، من حيث أنها تستخدم العقل، أي شيء مفيد لها عدا ما يقود إلى الفهم"⁶، كما أن

6- علم الأخلاق، الجزء IV، الفقرة 26.

"الخير الأسمى عند الذين يتبعون الفضيلة مشترك بين الجميع ويمكن أن يتمتع به الجميع على قدم المساواة".⁷

ولكن طريق الترجمة محفوف بالصعوبات والمخاطر، ونحن لا نزعم أننا تغلبنا على جميعها رغم ما بذلناه من مجهود من أجل الملائمة بين صرامة التعبير التي تقتضيها أفكار سبينوزا الدقيقة ووضوح الأسلوب الذي يرضيه القارئ عموماً. بيد أننا فضلنا في كثير من الأحيان الدقة على الوضوح كلما كان الاختيار بينهما لازماً وكما كان النص يتطلب من القارئ عناء لا يذمه منه لولوج فكر سبينوزا العميق؛ وفضلنا أحياناً قليلة الوضوح على الدقة كلما كان الابتعاد عن حرجية النص لا يشوه البنية لفكار الفيلسوف الذي، لا بد من التذكير بذلك، لم يتعلم اللاتينية إلا في سن متأخرة نسبياً من حياته، فجاء أسلوبه ثقيلًا غامضاً يصعب نقله إلى لغة أخرى أحياناً، وجافاً متقراً كالمسلوب مصنفات الهندسة في جميع الأحيان.

وأول صعوبة اعترضت سبيلنا في هذه الترجمة تتعلق بلفظ *Mens*، الذي ترجمه شارل أبون بكلمة *Amie*، بينما فضل عليها كل من روجي كايوا وبرنار بونرا وروبير مسراهي كلمة *Esprit*، باعتبار أن الأصل اللاتيني لكلمة *Amie* هو *Anima* أو *Animus*، فضلاً عن كون هذه الكلمة قد تروحي بتعد روحاني وإحيائي غريب تماماً عن فكر سبينوزا، وهو ما لا تروحي به كلمة *Esprit*. وعلى الرغم من رجاهة هذا الرأي، إلا أنه لا بد من ملاحظة أن سبينوزا قد استعمل، في حاشية القضية 68 من الجزء الرابع من "علم الأخلاق"، عبارة *Spiritus*⁸ (التي يقابلها بالفرنسية *Esprit*)، ولكنه لم يستعملها مع ذلك في حديثه عن النفس. هذا فضلاً عن أنه لم يستعملها مع ذلك في حديثه عن النفس. هذا فضلاً عن كون الترجمة الهولندية الأولى لمؤلفات سبينوزا قد استعملت لفظ *Ziele* (*Amie*) وليس لفظ *Geest* (*Esprit*)، ما عدا في فقرة واحدة من "الرسالة الموجزة" استعمل فيها سبينوزا كلا اللفظين باعتبارهما مترادفين في نظره⁹. ولقد أشار مارسيل غيرو، معلاً ترانف هذين اللفظين، إلى الطبيعة العقلية للنفس البشرية في نظر سبينوزا،

7- نفس المصدر والباب، القضية 36.

8- كان ذلك أثناء حديثه عن روح المسيح: "ducti Spiritu Christi, hoc est Dei idea".

9- الرسالة الموجزة، التمهيد، الفقرة الأولى.

بوصفها جزءاً من الطبيعة العقلية الإلهية. فجميع الأنفس تتطوي إذن على العقل والقلم، وبالتالي فلا فرق بين أن نستعمل كلمة Anima أو كلمة Mens (انظر حاشية القضية 57 من الجزء الثالث من علم الأخلاق حيث نقرأ في النص اللاتيني: Idea seu anima، وتمهيد الجزء الخامس حيث نجد عبارة: anima seu mens؛ راجع أيضاً ما يقوله مارسيال غيرو في هذا الشأن)¹⁰. ويبدو أن النقاش في هذا الموضوع لم يوثق بعد على نهائيه، بعدما أشار إليه بيساد (J. M. Beysade) من خطورة ترجمة Mens بـ Esprit عوضاً عن Ame¹¹.

ومهما كان اللبس العالق بأحدى الترجمتين، فإن سبينوزا لم يترك مجالاً لتواصله ما دام قد يادر بتعريف النفس بما يؤكد على طابعها الفكري والذهني¹². ولقد رأينا من جانبنا أن نترجم كلمة Mens بكلمة نفس بدلاً من كلمة روح، وذلك لمسيبين إثنين على الأقل، هما أن كلمة نفس مستماغة في اللغة الفلسفية، ولا سيما عندما نتحدث عن النفس والجسم، كما أن هذه الكلمة قد جرى بها الاستعمال أكثر من غيرها عند فلاسفة العرب، بينما خصص لفظ الروح للدلالة على ما به حياة النفس، وللإشارة إلى الملاك مثلاً، أو إلى الله ("الروح الأعظم")، أو إلى الألقوم الثالث من ألقايم المسيحية ("الروح القدس")، أو إلى جيريل عند المسلمين

10-Martial Guérout, "Spinoza", Paris, Aubier, 1974, tome 2, p. 9, note 8, et p. 10, note 11.

11- Cf. Colloque "Spinoza au XXe siècle, Actes des Journées d'études organisées les 14 et 21 janvier, 11 et 18 Mars 1990 à la Sorbonne. M. Beysade y déclare, discutant la traduction par R. Miarahi de mens par âme: "... les termes originaux n'ayant nulle vocation à correspondre plus tard à tel ou tel mot approchant dans une autre langue, il ne me semble pas que l'on puisse affirmer que mens signifie esprit et non pas âme. Si nous regardons le texte de l'Éthique, il est clair, en effet, que Spinoza impute à la mens un certain nombre d'actes, dont le sentir: il déclare ainsi, dans la Partie III, que nous aurons compris quelle est l'origine de la mens lorsque nous aurons compris les animaux sentir. Or, il semble bien que, dans le français d'aujourd'hui, nous ne parlerions guère, en l'occurrence, de l'esprit. Il me paraît donc que vous aurez, comme tout autre, à payer le tribut de votre choix; et ce choix rend difficile la compréhension de l'attribution à la mens de fonctions que, jusque-là, on attribuait à l'âme végétative ou à l'âme sensitive".

12 - راجع "علم الأخلاق"، الجزء الثاني، التعريف 9، وأيضاً القضية 11 ولازماتها.

("الروح الأمين")، وما إلى ذلك منا طبع دائما بطابع ديني ماورائي جعلنا نتجنب هذا اللفظ.

والمصطلح الثاني الذي أوقفنا طويلا هو: *Idea adaequata*. ولما أول من أوقفه هذا المصطلح، إذ لاحظ فؤاد زكريا بخصوصه في كتاب له عن سبينوزا أنه "من المستحيل - في سياق فلسفة سبينوزا على الأقل - ترجمة هذا اللفظ بالفكرة "المطابقة" أو بأي لفظ آخر يحمل معنى اتفاق الفكرة مع الموضوع، لأن للمعنى الأساسي في الاتفاق هو وجود معيار خارجي للفكرة، بينما الفكرة "الكافية" عند سبينوزا تتميز عن كل ما عداها بخصائصها الكافية فيها، لا بلية إشارة خارجية لها"¹³. ويقترح فؤاد زكريا ترجمة *adaequata* بكلمة كافية، وهو على حق في اعتباره من كلمة مطلوبة التي قد تفيد التطابق الخارجي بين الفكرة وموضوعها. ورغم أن اللفظ الذي اقترحه هذا المؤلف بقي بالمعنى الذي يقصده سبينوزا، إلا أننا غصتنا عليه لفظا آخر وجدناه في مقال جيد من تأليف محمد مصطفى حلمي¹⁴، وهو لفظ "التامة"، بحيث تصبح عبارة "الفكرة التامة" تشير فعلا إلى تمام الفكرة وكمالها الذي يجعلها، إذا ما "اعتبرت في ذاتها وبقطع النظر عن موضوع ما، تملك كل الخصائص أو كل العلامات الياضية المميزة للفكرة الصحيحة"¹⁵. وبالرجوع إلى بعض المعاجم والمؤلفات، زادت ثقتنا بهذا المصطلح، إذ التام هو، عند الفارابي مثلا، ما لا يمكن أن يوجد خارجا منه وجود من نوع وجوده، وهو، عند ابن سينا، ما يوجد له جميع ما من شأنه أن يوجد له¹⁶. أما الجرجاني، فهو يعرف السبب التام بأنه ذلك الذي يوجد المسبب بوجوده، والسبب غير التام بأنه ذلك الذي يتوقف وجود المسبب عليه، لكن المسبب لا يوجد بوجود السبب وحده¹⁷، ومثل هذا التعريف لا يبتعد عن التعريف الذي يعطيه سبينوزا للمسبب التام أو غير التام.

13 - فؤاد زكريا، "سبينوزا"، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت 1983، صفحة 69، ملحوظة 5 بمثل الصفحة.

14 - محمد مصطفى حلمي، "علم الأخلاق" لسبينوزا، تراث الإنسانية، الجزء 2، 1984.

15 - "علم الأخلاق"، الجزء 1، التعريف 4.

16 - راجع "المعجم الفلسفي" (للموسى - صري) لسبيل محسن اللان، دار المشوق، بيروت، 1969.

17 - تعريفات الجرجاني.

أما المصطلح الذي أخرجنا حقا بعد أن أخرج جلي المترجمين الفرنسيين لفلمنة سبينوزا، فهو *affectus*، وأيضاً الكلمات التي تنتمي إلى نفس الأصل وهي: *affectio* و *afficere* و *affici*، فشارل أبون قد ترجم بلفظ واحد، هو *affectio*، للفظتين اللاتينيتين *affectus* و *affectio*، ورفض ترجمة *affectus* بكلمة *sentiment* (شعور) التي لا تخلو من طابع ذاتي ونفسي. وترجم روجي كابوا *affectus* بكلمة *sentiment*، بينما ترجمها روبرت مسراحي ورنار بوتراف بكلمة *affect* التي لم يجرؤ شارل أبول على استعمالها، بل بالأحرى على إنشائها إذ قال: "لو كانت الكلمة *affect* أو *affet* (في الألمانية *affekt*) (...) موجودة في لغتنا، لأعفاني ذلك من ترددات طويلة؛ إلا أنه لا يمكنني أن آخذ على عاتقي مهمة ابتكارها".

ولقد وجدنا نفس الصعوبات في البحث عن مقابل عربي لكل لفظ من الألفاظ المذكورة. فكلمة "شعور" أو "إحساس" لا تؤدي دائما المعنى المطلوب؛ ولا الكلمات: "هوى"، و"وجدان"، و"عاطفة"، مع أننا قد استعملناها أحيانا عند الاقتضاء. وأخيرا فضلتنا، مثلما فعل شارل أبون، ترجمة *affectus* و *affectio* بلفظ واحد هو "الاتفعال"، إلا أننا ترجمنا أيضا *affectio* بكلمة "التأثر" كلما كان المقصود هو تأثير النفس أو الجسم باتفعال ما. وأخيرا ترجمنا *afficere* بـ "أثر في"، و *affici* بـ "تأثر بـ". أم كلمة *passio*، لمقابلها العربي هو "الهوى" أو "الوجدان"، لكن فضلتنا على هذين اللفظين عبارة "الاتفعال السلبي" التي استعملها فؤاد زكريا على حق، لأن الاتفعالات (*affectiones*) ليست كلها سلبية في نظر سبينوزا، بل توجد الفعالات إيجابية (كاتفعال الفرح مثلا)، ولأن كلمة *passio* تعتبر فعلا عن الطبع السلبي للاتفعالات، فضلا عن أن سبينوزا يشق من هذه الكلمة الفعل *pati*، أي انفعال.

لابد من الإشارة أيضا إلى اللفظ *Intellectus* الذي يرادفه بالعربية: العقل، والذهن، والفهم. ولقد تصورنا في اختيار اللفظ العربي المقابل له، فاستعملنا كلمة "العقل" كلما دار الحديث عن العقل الإلهي أو عن العقل عموما، وكلمة "الذهن" كلما تعلق الأمر بالنشاط الذهني للإنسان، وتركنا كلمة "الفهم" لترجمة اللفظ اللاتيني *Intellegentia*، وهو سبينوزا، وهو *Intellegentia*.

ولعلّ القارئ سيستغرب من الاستعمال المتكرر لكلمة "شيء" أو "أشياء"، وسيستقل ذلك، إلا أنّ هذا الاستعمال ضروري لترجمة اللفظ اللاتيني Res، الذي يشير إلى أيّ موجود كان (الكائنات الحيّة، الأجسام الماديّة، الإنسان، إلخ). ورغم أنّ هذا الاستعمال، كما أشار إلى ذلك روجي كايوا في مقدمة ترجمته لكتاب "علم الأخلاق"، قد يوقّد بعض الغموض والاختلاط في ذهن القارئ غير المحترز، لا سيّما عندما يتعلّق الأمر بالانفعالات والاهواء (باعتبار أنّ "الشيء المحبوب" هو دائما كائن حيّ، وهو في أغلب الأحيان الإنسان)، إلّا أنّنا فضّلنا نقل الأسلوب وغموض الاستعمال على الابتعاد على ما هو ربّما مقصود من قبل سبينوزا الذي يريد قبل كل شيء التأكيد على تجانس جميع الموجودات الطبيعيّة وخضوعها لنفس القوانين الأزلية.

بقي أن نشير أخيرا إلى اللفظ seive الذي تُترجمه الألفاظ: "أر"، "أي"، "يعني"، "وبعبارة أخرى". وهناك من بين المترجمين الفرنسيين من استعمل أحد هذه الألفاظ دون غيرها، ولا سيّما اللفظ الأخير، ولكن لما كان هذا اللفظ يتكرر مرّات عديدة وفي كلّ فقرة أحيانا، رأينا من الأفضل أن نلتزم بأخفّ لفظ عربيّ، وهو "أو"، مع الإشارة والتّجنيّب منذ الآن إلى أنّ المقصود بهذا اللفظ ليس الفصل وإنّما الجمع، مثلما هي العبارات: "الله أو الطبيعة"، "النفس أو فكرة الجسم"، "طبيعة للشيء أو ماهيته" إلخ.

تتعلّق هذه الملاحظات بالألفاظ المتواترة أكثر من غيرها في "علم الأخلاق". ولقد رأينا أن نتجنّب في هذا الكتاب الشرح والتعليق، لأنّ ذلك قد يتطلّب تأليفا كاملا لا يتسع له المجال الحاضر، ولأنّ كلّ ما يمكن أن يتكرّر من شروح إنّما هي واردة في دراسات قيمة كثيرة أمّتها على الإطلاق كتاب مرسيل غيرو عن سبينوزا¹⁸. يتّحدّ أنّ الشروح، مهما كان عمقها، لا تغني أبدا عن مباشرة النّص السبينوزي الذي نحن سعداء بتقديمه هنا إلى القراء.

18- Martial Guéronlti, "Spinoza", Tome 1, "Dieu" (Éthique, I), et Tome 2, "l'Âme" (Éthique, II).

ملاحظة أخيرة :

تحاثياً للتكرار المعمل، رأينا أن نختصر دائماً الإحالات الواردة بين كوسين (كما فعل شارل أبون في ترجمته الفرنسية)، وذلك بالاستغناء عن اللفظ اللاتيني per الذي يعني "حسب"، أو بناء على". واستغناء أيضاً عن عبارة والدة في نهاية كل برهان، مفادها : "وهو المطلوب إثباته"، باعتبار أنه لا يمكن اختزالها مثلما في اللاتينية (Q.E.D.) أو الفرنسية (C.Q.F.D.) -

الأخلاق

مبرهنا عليها على النهج الهندسي
في خمسة أجزاء
تبحث

I - في الله.

II - في طبيعة النفس وأصلها.

III - في أصل الانفعالات وطبيعتها.

IV - في عبودية الإنسان أو في قوى الانفعالات.

V - في قوة العقل أو في حرية الإنسان.

الجزء الأول في الله

تعريفات

- I - أعني بعلة ذاته ما تنطوي ماهيته على وجوده؛ وبعبارة أخرى، ما لا يمكن لطبيعته أن تُتصور إلا موجودة.
- II - يقال عن شيء إنه متناه في ذاته عندما يمكن حده بشيء آخر من نفس طبيعته. يقال مثلا عن جسم من الأجسام إنه متناه لأننا نتصور دائما جسما آخر أعظم منه؛ والفكر أيضا إنما يحده فكر آخر؛ لكن الجسم لا يحده الفكر، والفكر لا يحده الجسم.

III - أعني بالجواهر ما يوجد في ذاته ويُتصور بذاته؛ أي ما لا يتوقف إنشأء تصوره على تصور شيء آخر.

IV - أعني بالصفة ما يدركه الذهن في الجواهر مقوماً لماهيته.

V - أعني بالحال ما يطرأ على الجواهر، ويعبارة أخرى ما يكون قائماً في شيء غير ذاته ويُتصور بشيء غير ذاته.

VI - أعني بالإله كائناً لا متناهياً إطلاقاً، أي جوهراً يتألف من عدد لا محدود من الصفات تعبر كل واحدة منها عن ماهية أزلية لا متناهية.

شرح

أقول لا متناهياً إطلاقاً، لا هي ذاته فحسب، لأن ما يكون لا متناهياً في ذاته فحسب إنما نستطيع أن نتقي عنه عدداً لا محدوداً من الصفات؛ أمّا ما يكون لا متناهياً إطلاقاً، فكل ما من شأنه أن يعبر عن ماهية من الماهيات من غير أن ينطوي على أي نقي، إنما هو ينتمي إلى ماهيته.

VII - يقال عن شيء إنه حرّ عندما يوجد بضرورة طبيعته وحدها ويُحدد فعله بذاته وحدها؛ ويقال إنه ضروري، أو بالآخرى مُجبر، عندما يدفعه شيء آخر إلى أن يوجد ويتصرف بنحو معين ومحدد.

VIII - أعني بالأزل الوجود عينه بوصفه يُتصور لازماً بالضرورة عن مجرد تعريف شيء من الأشياء الأزلية.

شرح

فعلاً، إن وجوداً كهذا يُتصور على أنه حقيقة أزلية، شأنه شأن ماهية

الشيء، ولذلك فإنه لا يمكن تفسيره بالديمومة أو بالزمان، رغم أن الديمومة تُصوّر بلا بداية ولا نهاية.

بديهيّات

- I - كلّ ما يوجد إنّما يوجد في ذاته أو في شيء آخر.
- II - إنّ ما يتعذّر تصوّره بشيء آخر، لا بدّ من تصوّره بذاته.
- III - إذا وجدت علّة معيّنة نتج عنها بالضرورة معلول ما، وعلى العكس، إذا لم توجد أية علّة معيّنة فمن المحال أن ينتج عنها أيّ معلول.
- IV - تتوقّف معرفة المعلول على معرفة العلّة وتنطوي عليها.
- V - الأشياء ذاتي لا يتفق بعضها مع بعض في شيء، لا يمكن معرفة بعضها ببعض، بمعنى أن تصوّر بعضها لا يتطوي على تصوّر بعضها الآخر.
- VI - لا بدّ أن تكون الفكرة الصحيحة مطابقة للموضوع الذي تمثّله.
- VII - كلّ ما يمكن تصوّره غير موجود، إنّما ماهيته لا تنطوي على وجوده.

القضية 1

الجوهر متقدّم بالطّبع على أعضائه.

البرهان

إنّ ذلك بديهي من خلال التعريفين 3 و5.

القضية 2

الجوهريان اللذان يملكان صفات متباينة إنما هما لا يتفقان في شيء.

البرهان

إن ذلك بديهى من خلال التعريف 3، وفعلا، لا بد لكل جوهري أن يوجد في ذاته ويتصور بذاته، بمعنى أن تصور أحدهما لا ينطوي على تصور الآخر.

القضية 3

إذا لم تتفق أشياء بعضها مع بعض في شيء ما، فإثمه لا يمكن لبعضها أن يكون علّة لبعض الآخر.

البرهان

إذا لم يتفق بعضها مع بعض في شيء ما، فإثمه لا يمكن إذن (حسب البديهية 5) معرفة بعضها ببعض الآخر، وهكذا (حسب البديهية 4) فإن بعضها لا يمكن أن يكون علّة لبعضها الآخر.

القضية 4

يتميز شعيتان متباينتان أحدهما عن الآخر أو أشياء متباينة كثيرة

بعضها عن البعض إما بتنوع صفات الجواهر أو بتنوع أعراض هذه الجواهر.

البوهان

كل ما يوجد إنما يوجد في ذاته أو في شيء آخر (حسب البديهية 1)، بمعنى (حسب التعريفين 3 و 5) أنه لا يوجد شيء خارج العقل (intellectum) عدا الجواهر وأعراضها. فلا يوجد إذن خارج العقل ما يسمح لأشياء كثيرة بتمييز بعضها عن بعض عدا الجواهر أو الأمران سيكون (حسب التعريف 4)، صفات الجواهر وأعراضها.

القضية 5

لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران أو عدة جواهر من طبيعة أو صفة واحدة.

البوهان

لو وجدت عدة جواهر متميزة بعضها عن بعض، لكان تمييزها إما بتنوع الصفات أو بتنوع الأعراض (القضية السابقة). فإذا كان تمييزها بتنوع الصفات فحسب، فإننا سنسلم إذن بأنه لا يوجد غير جوهر واحد للصفة الواحدة. وإذا كان تمييزها بتنوع الأعراض، فبما أن الجوهر (القضية 1) متقدم بالطبع على أعراضه، فإننا لن نستطيع، إن نحن أبعدنا الأعراض واعتبرنا الجوهر في ذاته، أي (التعريف 3 والبديهية 6) من منظور الحقيقة، أن نتصوره

متميزًا عن جوهر آخر، بمعنى أنه (القضية السابقة) لن يتسنى وجود جواهر متعددة، وإنما يوجد جوهر واحد.

القضية «

لا يمكن لجوهر ما أن ينتج عن جوهر آخر.

البرهان

لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران لهما صفة واحدة (القضية السابقة)، أي (القضية 2) يتفقان في شيء ما. وتبعًا لذلك (القضية 3) فإنه لا يمكن لأحدهما أن يكون علّة للآخر، بمعنى أنه لا يمكن لأحدهما أن ينتج عن الآخر.

للمهمة

يترتب على ذلك أنه لا يمكن للجوهر أن ينتج عن شيء آخر، إذ لا يوجد في الطبيعة غير الجواهر وأعراضها، كما هو بين من خلال البديهية 1 والتعريفين 3 و5. وبما أنه لا يمكن للجوهر أن ينتج عن جوهر آخر (القضية السابقة) فإنه لا يمكن للجوهر إطلاقًا أن ينتج عن شيء آخر.

برهان آخر

يُبرهن على هذه القضية أيضًا بأكثر سهولة عن طريق إثبات حُكف

نقيضها. ذلك أنه لو أمكن للجوهر أن ينتج عن شيء آخر لكافته معرفته متوقفة على معرفة علته (البديهية 4)؛ وبالتالي (التعريف 3) لا كان الجوهر جوهرًا.

القضية 7

من طبيعة الجوهر أن يكون موجودا.

البرهان

لا يمكن للجوهر أن ينتج عن شيء آخر (لأنه القضية السابقة)؛ فهو إذن علة ذاته، أي (التعريف 1) أن ماهيته تنطوي بالضرورة على وجوده، وبعبارة أخرى إن من طبيعته أن يكون موجودا.

القضية 8

كل جوهر إنما هو لا متناهٍ بالضرورة.

البرهان

الجوهر الذي يملك صفة من الصفات لا يمكنه أن يكون إلا أحدا (القضية 5)، ومن طبيعته أن يكون موجودا (القضية 7). وعليه فمن طبيعته أن يكون موجودا إما كشيء متناهٍ وإما كشيء لا متناهٍ؛ لكن لا يمكنه أن يوجد كشيء متناهٍ إلا (التعريف 2) كان محدودا من قبل جوهر آخر من نفس طبيعته،

ولكان هذا الجوهر موجودا بالضرورة أيضا (القضية 7)؛ وحينئذ لوجد
جوهران لهما نفس الصفة، وهذا محال (القضية 5). فالجواهر موجود إذن على
نحو لا نهائي.

حاشية 1

لما كان الوجود المتناهي هو في الواقع، سلبا جزئيا، والوجود اللامتناهي
إثباتا مطلقا لوجود كائن طبيعي ما، فإنه ينتج عن القضية 7 وحدها أنه ينبغي
أن يكون كل جوهر لا متناهيا.

حاشية 2

لا شك أنه سيصعب على أولئك الذين يحكمون على الأشياء بمفوض ولم
يألفوا معرفتها بعلمها الأولى تصور برهان القضية 7؛ وهم بالفعل لا يميزون بين
تحولات الجواهر والجواهر ذاتها ولا يعلمون كيف تحدث الأشياء، ومن هذا
المنطلق فهم يتصورون أصل الجواهر على غرار ما يعاينونه في الموجودات
الطبيعية. فعلا، إنه الذين يجهلون على الأشياء الحقيقية يخلطون بين جميع
الأمور ويتصورون، دونما حرج، أشجارا تتكلم كالآدميين، وأناسا يولدون من
الحجر أو من السائل القوي على حد سواء، وأشكالا تتحول إلى أشكال أخرى
مهما كانت هذه الأشكال. وفي نفس السياق، إن الذين يخلطون بين
الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية ينسبون بسهولة إلى الله الانفعالات
الإنسانية، ولا سيما إذا تواصل جهلهم بكيفية حصول هذه الانفعالات. لكن لو
كانت همه الناس متعلقة، على العكس، بطبيعة الجواهر، لما شكروا البتة في
صدق القضية 7، بل لكانت بديهية ولوقع إدراجها ضمن المعاني المشتوكة
(Notions communes). ذلك أن المقصود بالجواهر عندهم سيكون ما هو

موجود في ذاته ومتصور بذاته، أي ما لا تحتاج معرفته إلى معرفة شيء آخر؛ وبالتحولات ما هو موجود في شيء آخر وما يكون تصوّره بالإعتماد على تصوّر الشيء الذي يوجد فيه. لذلك يمكن أن تكون لدينا أفكار صائقة عن تحولات غير موجودة؛ إذ رغم أنّ هذه التحولات لا توجد بالفعل خارج العقل فإن ماهيتها موجودة في شيء آخر يجعل تصوّرها ممكناً؛ بينما تكمن حقيقة الجواهر الموجودة خارج العقل في ذاتها نفسها، لأنّ هذه الجواهر تتصور بذاتها وحدها. وحينئذ لو قلنا إنه لدينا فكرة واضحة ومتميزة، أي صادقة، عن جوهر ما، وأننا تشكّك رغم ذلك في وجود هذا الجهر، فإننا لا نرى مانعاً من القول أيضاً بأنّ لدينا فكرة صادقة ولكننا تشكّك في صديقتها (وهو ما يكون جلياً بقليل من الانتباه)؛ أو كذلك لو سلّمنا بأنّ الجوهر مخلوق فإننا سنسلم بناء على ذلك بأنّ فكرة كاذبة قد أصبحت صادقة، وهو خُلق لا يفوقه خُلق. لا مناص إذن من التسليم بأنّ وجود الجهر، شأنه شأن ماهيته، هو حقيقة أزلية. ومن هنا يمكن الاستنتاج بوجه آخر أنّه لا وجود لغير جوهر واحد ذي طبيعة معينة، وهو ما رأيت أنّه يستحقّ الإثبات هنا. لكن تقتضي منّا الضرورة المنهجية ملاحظة ما يلي:

- 1 - لا ينطوي الحدّ الصحيح لشيء ما إلّا على طبيعة الشيء المحدود ولا يعبر إلّا عنها. ويترتّب على ذلك:
- 2 - أنّه لا ينطوي أيّ حدّ على أيّ عدد معيّن من الأفراد ولا يعبر عنهم أبداً، إذ لا يعبر هذا الحدّ عن أيّ شيء عدا عن طبيعة الشيء المحدود. مثلاً، لا يعبر حدّ المثلث عن عدد معيّن من المثلثات وإنّما عن طبيعة المثلث لا غير.
- 3 - أنّه توجد بالضرورة وبالنسبة إلى جميع الأشياء الموجودة على محدّد لوجودها.

4 - لا بدّ أن تلاحظ أخيراً أنّ هذه العلّة الموجبة لوجود شيء ما إمّا أنّها موجودة ضمن طبيعة الشيء الموجود وحده (وفي هذه الحالة يكون من طبيعة الشيء أنّ يوجد)، وإمّا أنّها موجودة خارج هذا الشيء. وينتج بناءً على ذلك، إن كان يوجد في الطبيعة عدد معيّن من الأفراد، أنّه توجد حتماً علّة يوجد بمقتضاها أولئك الأفراد لا أكثر منهم ولا أقلّ. فلو كان يوجد، على سبيل المثال، عشرون رجلاً في الطبيعة (إفّي أفترض، حتّى نكون أكثر وضوحاً، أنّهم يوجدون جميعاً في نفس الوقت وأنّه لم يسبقهم أحد)، فإنّه لا يكفي (لتعطيل وجود عشرين رجلاً بالذات) أن نعرّف بالطبيعة الإنسانية عموماً، بل ينبغي، علاوة على ذلك، أن نعرّف بالعلّة التي بمقتضاها لا يوجد أكثر أو أقلّ من عشرين رجلاً، إذ (بمقتضى الملاحظة الثالثة) توجد لا محالة علّة لوجود كلّ واحد منهم. ولكن لا يمكن لهذه العلّة (حسب الملاحظتين 2 و3) أن توجد ضمن الطبيعة الإنسانية ذاتها، إذ لا يتطوّر التعريف الصحيح للطبيعة الإنسانية على العدد العشرين؛ وهكذا (وفق الملاحظة 4) إنّ العلّة التي يوجد بمقتضاها العشرون رجلاً، وبالتالي كلّ واحد منهم على وجه الخصوص، إنّما هي موجودة حتماً خارجهم؛ لذلك لا بدّ من الاستنتاج بالضرورة أنّه كلّما كانت طبيعة شيء ما تسمح بوجود أفراد كثيرين مثله، وجدت علّة خارجية يوجد بمقتضاها هؤلاء الأفراد. وتبعاً لذلك، فبما أنّه (كما سبق أن بيّنا في هذه الحاشية) من طبيعة الجوهر أن يكون موجوداً فإنّه لا بدّ لتعريفه أن ينطوي على الوجود الضروري، وبالتالي يجب استنباط وجوده من مجرد تعريفه. ولكن (كما نقيّن ذلك من خلال الملاحظتين 2 و3) لا يمكن أن ينتج عن تعريف الجوهر وجود جواهر كثيرة؛ وينتج عن ذلك بالضرورة أنّه لا يوجد سوى جوهر واحد من نفس الطبيعة، وهو ما كنّا نسعى إلى إثباته.

القضية 9

كلّما كان لبعض الأشياء واقعية أكثر أو كيان أكثر، كان مالكا لصفات أكثر.

البوهان

إنّ ذلك يديه من خلال التعريف 4.

القضية 10

يجب أن تُصوّر كلّ صفة من صفات الجوهر الواحد بذاتها.

البوهان

فعلا، الصفة هي ما يدركه الذهن في الجوهر مقوما لماهيته (التعريف 4)؛ وبالتالي (التعريف 3) يجب أن تُصوّر بذاتها.

مناقشة

يتضح من هنا أنّه رغم تصوّرنا لصفّتين إثنين على أنّهما متميّزتان إحداهما عن الأخرى تعيّنًا حقيقيًا، أعني رغم تصوّرنا لإحديهما دون حاجة إلى الأخرى، إلّا أنّه لا يمكننا أن نستنتج من ذلك أنّهما تمثّلان كائنين إثنين، أي جوهرين متباينين، إذ من طبيعة الجوهر أن تكون كلّ

صفة من صفاته مُتَصَوِّرة بذاتها؛ ذلك أنَّ جميع الصفات التي يملكها الجوهر قد وُجِدت فيه دائماً معاً، كما أنَّه لا يمكن لبعضها أن ينتج عن البعض الآخر، بل تعبَّر كل واحدة منها عن حقيقة الجوهر أو كيانه، فلا غرو إذن ولا خلف إن فسبنا صفات كثيرة إلى نفس الجوهر؛ بل لا شيء في الطبيعة أوضح ممَّا يلي: يجب أن يُتَصَوَّر كلَّ كائن من جهة صفة ما، ويقدر حقيقة أو كيان هذا الكائن يكون حجم صفاته المعبرة عن الضرورة، أي عن الأزل، وعن اللانهاية. وبقاء على ذلك، ينبغي تعريف الكائن اللانتهائي إطلاقاً (كما قلنا في التعريف 6) ككائن يتألف من عدد لا محدود من الصفات تعبَّر كل واحدة منها عن ماهية أزلية ولا نهائية. وإن قلتم الآن ما هي العلامة التي تسمح بإثراك تنوع الجواهر، فطالعوا القضايا الموالية: إنها تبين أنَّه لا يوجد في الطبيعة غير جوهر واحد، وأنَّه لا متقاء على وجه الإطلاق، ممَّا يجعل البحث عن العلامة المطلوبة بحثاً لا طائل من وراءه.

القضية 11

الله - أعني جوهرًا يتألف من عدد لا محدود من الصفات تعبَّر كل واحدة منها عن ماهية أزلية ولا متناهية - واجب الوجود.

البرهان

إذا نفيتم ذلك فتصوِّروا، إن كان ذلك ممكناً. أنَّ الله غير موجود؛ إنَّ ماهيته (البديهية 7) لا تنطوي إذن على وجوده؛ بيد أنَّ ذلك (القضية 7) محال؛ إذن فالله واجب الوجود.

بـرہان آخر

لا بدّ أن يكون لكلّ شيء سبب أو علّة معيّنة تفسّر وجود هذا الشيء أو عدم وجوده. فإن وجد مثلا مثلث، لا بدّ من وجود علّة أو سبب لوجوده؛ وإن لم يوجد، لا بدّ أيضا من وجود علّة أو سبب يمنع وجوده أو ينزع منه الوجود. ثمّ إنّه لا بدّ لهذه العلّة أو السبب إمّا أن تتضمّن طبيعّة الشيء أو أن توجد خارج الشيء. فالعلّة التي تفسّر مثلا عدم وجود دائرة مريّعة إنّما تشير إليها طبيعّة الدائرة المريّعة نفسها من جهة انطوائها على تناقض، وعلى العكس، إنّ ما يفسّر وجود جوهر ما ينتج عن طبيعّة هذا الجوهر وحدها من جهة انطوائها على الوجود الضروري (القضية 7). والأمر يختلف بالنسبة إلى علّة وجود أو عدم وجود دائرة أو مثلث؛ فهذه العلّة لا تنتج عن طبيعتهما وإنّما عن نظام الطبيعة الجسميّة بأكملها؛ إذ لا بدّ أن ينتج عن هذا النظام إمّا أن هذا المثلث موجود بالفعل ضرورة وإمّا أن وجوده الفعلي مستحيل، وهذا أمر بديهي بذاته، ويترتب على ذلك أنّ الشيء الذي لا يمتنع وجوده سبب أو علّة إنّما هو واجب الوجود. وإذا كان لم توجد علّة أو سبب لمنع وجود الله أو لنزع الوجود عنه، فلا مناص من استخلاص وجوده الضروري، إلّا أن افتراض هذه العلّة أو السبب يقتضي إمّا وجودها ضمن طبيعّة الله وإمّا خارجها، أي ضمن جوهر من طبيعّة أخرى، لأنّه لو كان هذا الجوهر من نفس طبيعته لكان في ذلك تسليم بوجود إله. بيدّ أنّه لا يمكن لجوهر من طبيعّة مغايرة أن يشارك الله في شيء (القضية 2) وهو لا يمكنه إذاً أن يضع وجوده أو يرفعه. ولما كان عندئذ من غير الممكن أن نجد علّة أو سبب تنزع الوجود عن الله خارج طبيعته، فمن الضروري، إذا أردنا إنكار وجود الله، أن تتضمّن طبيعته الخاصّة هذه العلّة، بحيث تصبح هذه الطبيعة متضمّنة لتناقض؛ إلّا أنّه من العيب أن نثبت ذلك بالنسبة إلى موجود لا متناه إطلاقا وفي غاية الكمال.

فلا وجود إذن، في الله أو خارجه، لأي علة أو سبب للزعم الوجود عنه، وبالتالي فإن الله واجب الوجود.

برهان آخر

في عدم القدرة على الوجود عجز، وعلى العكس من ذلك، في القدرة عليه قوة (كما هو معلوم بذاته). وإذا كان كانت الموجودات المتناهية هي الموجودة بالضرورة فحسب في اللحظة الحاضرة، فالموجودات المتناهية ستكون أقدر من الموجود اللامتناهي إطلاقاً. بيد أن ذلك (كما هو معلوم بذاته) محال. فإما إذن أنه لا يوجد شيء، وإما أنه يوجد بالضرورة كائن لا متناه إطلاقاً. والحال أننا نوجد إما في نواتنا وإما في شيء آخر موجود بالضرورة. (راجع التديهيّة ١ والقضية 7)؛ إذن فالكائن اللامتناهي إطلاقاً، أعني (بناء على القضية ٦) الله، واجب الوجود.

ملاحظة

أردت في هذا البرهان الأخير إثبات وجود الله بصورة بعدية، حتى يُترك البرهان بأكثر سهولة؛ وليس معنى ذلك أن وجود الله لا ينتج بصورة قبلية عن نفس المبدأ. فعلاً، لما كانت القدرة على الوجود هي القوة، فإنه يتوَّج على ذلك أنه كلما ازدادت نسبة الواقع الذي ينتمي إلى طبيعة شيء ما، كان له بذاته أكثر قدرة على الوجود. وهكذا فإن الكائن اللامتناهي إطلاقاً، أعني الله، له بذاته قدرة لا محدودة إطلاقاً على الوجود، وبالتالي فهو موجود إطلاقاً. لكن لحله سيعسر على العديد من القراء إدراك بدهية هذا البرهان، لكونهم لم يتعودوا على غير تأمل الأشياء الناتجة عن الأسباب الخارجية، ومن بين هذه الأشياء، تلك التي سرعان ما تتكوّن، أي التي يسهل وجودها والتي

يرى أنَّهُ بـسـهـول فـتـاـوـهـاء، بـيـنـمـا يـعـتـقـدـون أنَّه يصـعـب عـلـى الأـشـيـاء، الـتـي يـتـصـوـرون أنَّها تـمـلـك لـكـثـر خـصـائـص، أن تـتـحـقـق، أي أن تـدـخـل حـيـز الـوـجـود بـسـهـولـة. لـكـنـنـي لـسـت بـحـاجـة، كي أـخـلـصـهم مـن هـذه الأحـكـام المـسـبـقـة، أن أـبـيـن هـنا مـدى صـدق المـثـل القـائـل: إنَّ ما يـتـكوـن بـسـرعة، يـقـنـى بـسرعة، وما إذا كانت جـمـيـع الأـشـيـاء، مـن مـنـظـور الطـبـيعة الكـثـيـة، عـلـى نـفس الـدرجـة مـن السـهـولـة أم لا. وحسبي أن أـشـير فـقـط إـلى كـونـي لا أتـحدـث هـنا عـن الأـشـيـاء الـتـي تـنشأ عـن أسـبـاب خـارجـيـة، وإنـمـا عـن الجـواهر الـتـي (القـضـيـة 6) لا يـمـكـن أن تـنتـج عـن أـيـة عـلـة خـارجـيـة. فـعـلا، إنَّ الأـشـيـاء الـتـي تـتـولـد عـن أسـبـاب خـارجـيـة، سـواء تـركـبـت هـذه الأـشـيـاء مـن عـدد كـبـير أو صـغـير مـن الأـجـزاء، إنـمـا كـمـالـها، أعـني واقـعـها، مـتـوقـف عـلـى فـضـيـلة العـلـة الخـارجـيـة؛ وبـهـذه الصـورة فإنَّ وـجـودـها يـنشأ عـن كـمـال هـذه العـلـة لا غـير، لا عـن كـمـالـها الخـاص. وعـلـى العـكـس فإنَّ كلَّ ما يـنـتـمـي إـلى الجـوهر مـن كـمـال، إنـمـا هو لا يـسـتـمـدُّه مـن أـيـة عـلـة خـارجـيـة؛ لـذا كـ فـرـجـودـه أـيـضـا لا يـنتـج عـن غـير طـبـيـعـته وحـدـه، وهو لـيـس بـالنـائـي غـير مـاهـيـته. فـكـمـال الشـيـء إذن لا يـنـفـي وـجـودـه، بـل هو عـلـى العـكـس يـثـبـت؛ وأمـا النـقـص، فـهو يـنـفـي، وبـالقـالـي فـنـحن لـسـنا عـلـى يقـين بـوـجـود أي شـيـء أكـثـر مـن اليقـين بـوـجـود الكـائـن الـلـامـتـناهي إـطـلاقـا، أو المـطـلـق الكـمـال، أعـني الله. إذ لـمـا كـانـت مـاهـيـته تـسـتـبـعد كلَّ نـقـص وتـطـلـوـي عـلـى الكـمـال المـطـلـق، فـهي بـذا ك تـلـغـي كلَّ ما يـدـعو إـلى الشـك فـي وـجـودـه وتـثـبـت بـكـامـل اليقـين، وهو ما يـتـضـح، فـيـما أـعـتـقد، إـلى كلِّ مـن أـيـدى قـلـيـلا مـن الـانـتـباه.

القـضـيـة 12

لا يـمـكـن أن نـتـصوّر بـحـق أـيـة صـفـة مـن صـفـات الجـوهر تـصوِّرا يـترتـب عـلـيه أنَّ هـذا الجـوهر قـابل لـلـانـقـسام.

البرهان

فعلا، إما أن أجزاء الجوهر الذي يتصور منقسما ستحافظ على طبيعة هذا الجوهر، وإما أنها لن تحافظ عليها. ففي الفرضية الأولى ينبغي أن يكون كل جزء (القضية 8) لا متناهي (القضية 6) علة لذاته (القضية 5) مؤلفاً من صفة مختلفة؛ وهكذا يمكن إنطلاقاً من جوهر واحد الحصول على جواهر متعددة، إلا أن ذلك (القضية 6) محال. وعلاوة على ذلك فإن الأجزاء في مثل هذه الحالة (القضية 2) لن تتفق في شيء مع الكل وسيجوز للكل (التعريف 4 والقضية 10) أن يوجد ويتصور بدون أجزائه، وهذا محال، لا شك، في نظر الجميع.

الفرضية الثانية هي أن الأجزاء لن تحافظ على طبيعة الجوهر؛ فلو كان الجوهر ينقسم كله إلى أجزاء متساوية فهو سيفقد طبيعته كجوهر وسيكف عن الوجود، وهذا (القضية 7) محال.

القضية 13

الجوهر اللامتناهي إطلاقاً لا يتجزأ.

البرهان

لو كان الجوهر يتجزأ، فإما أن الأجزاء التي يتقسم إليها ستحافظ على طبيعة الجوهر اللامتناهي إطلاقاً، وإما أنها لن تحافظ عليها. ففي الفرضية الأولى ستوجد جواهر كثيرة من نفس الطبيعة، وهذا (القضية 5) محال. وفي الفرضية الثانية سيجوز للجوهر اللامتناهي إطلاقاً، كما بينا آنفاً، أن يكف عن الوجود، وهذا (القضية 11) أيضاً محال.

لازمة

يترتب على ذلك أنه ليس من جوهر، وبالتالي ليس من جوهر جسماني، قابل للتجزئة من حيث هو جوهر.

حاشية

كون الجوهر لا يتجزأ، فذاك ما يمكن فهمه أيضا بأكثر سهولة باعتبار أنه لا يمكن لطبيعة الجوهر أن تُتصور إلا لا متناهية وباعتبار أن كل ما يمكن أن نعنيه بجزء من الجوهر هو الجوهر المتناهي، وهذا (القضية 8) ينطوي على تناقض صريح.

القضية 14

لا يمكن أن يوجد أي جوهر خارج الله ولا أن يتصور.

البوهان

إن الله كائن لا متناه إطلاقا، ولا يمكن أن ننفي عنه (التعريف 6) أية صفة من الصفات المعبرة عن ماهية جوهرية؛ ثم إن الله موجود بالضرورة (القضية 11)؛ فلو وجد إنن جوهر ما خارج الله فلا بد أن يُفسر هذا الجوهر بصفة من صفاته، وهكذا سيوجد جوهران لهما نفس الصفة، وهذا (القضية 5) محال؛ وتبعاً لذلك لا يمكن لأي جوهر أن يوجد خارج الله ولا بالتالي أن يتصور، إذ لو كان تصوره ممكناً لوقع تصوره بالضرورة موجوداً؛ إلا أن ذلك (بناء على

الجزء الأول من هذا البرهان) محال، فلا يمكن إذن أن يوجد أو يُتصوّر جوهر خارج الله.

لازمة 1

يقرَّب على ذلك بوضوح: 1 - أن الله أحد، أي (التعريف 6) أنه لا يوجد في الطبيعة سوى جوهر واحد وأن هذا الجوهر غير متناه إطلاقاً كما بينّا ذلك في حاشية القضية (10).

لازمة 2

ويترتب: 2 - أن الشيء المفكر والشيء الممتد هما إمّا صفتان إلهيتان أو (البدئية 1) عرضان لصفتين إلهيتين.

القضية 15

كلّ ما يوجد إنّما يوجد في الله، ولا يمكن لأيّ شيء أن يوجد أو يُتصوّر بدون الله.

البرهان

لا يمكن لأيّ جوهر، أي (التعريف 3) لأيّ شيء موجود في ذاته ومُتصوّر بذاته، أن يوجد أو يُتصوّر خارج الله (القضية 14)؛ ومن جهة أخرى (التعريف 5) لا يمكن للأحوال أن توجد ولا أن تُتصوّر بدون الجوهر؛ فهي إذن لا توجد

إلا في الطبيعة الإلهية نفسها ولا يمكن تصوّرها إلا بها وحدها، وبما أنّه لا يوجد أيّ شيء خارج الجواهر والأحوال (البدئية ١)، فإنّه لا يمكن لأيّ شيء أن يوجد أو يتصوّر بدون الله.

حاشية

يتصوّر بعضهم أنّ الله يتكوّن، كالإنسان، من جسم ونفس وأنّه يخضع للأهواء؛ وتبيّن البراهين السابقة بما فيه الكفاية أنّ أصحاب هذا الرأي يعيرون كلّ البعد عن المعرفة الصحيحة للإله، فلنتركهم جانبا، لأنّ جميع الذين تأمّلوا قليلا الطبيعة الإلهية يرفضون أن يكون الله جسمانيا؛ وإنّهم يحسنون إثبات ذلك بقولهم إنّ ما نعنيه بالجسم هو الكمّ الطويل العريض العميق الذي يحده شكل ما، غير أنّه لا يوجد خلف أعظم من أن نطلق ذلك على الله، أي عن الكائن اللامتناهي إطلاقا. بيّد أنّهم، في نفس الوقت، يبيّنون بوضوح - مستدلّين على ذلك بأسباب أخرى - أنّهم يفصلون تماما الجوهر الجسماني أو الممتد عن طبيعة الله، مع التسليم بأنّ هذا الجوهر مخلوق من قبل الله، ولكنّهم يجهلون تماما بأيّ قدرة إلهية خلق الجوهر، وهو ما يبيّن بوضوح أنّهم لا يفهمون ما يقولونه؛ أمّا أنا، فلقد بيّنت بوضوح تامّ، على ما اعتقد (لازمة القضية ٦) والحاشية الثانية للقضية ٨)، أنّه لا يمكن لأيّ جوهر أن ينتج أو يُخلق من قبل كائن آخر. ثمّ إننا قد بيّنا من خلال القضية ١٤ أنّه لا يمكن لأيّ جوهر أن يوجد أو يتصوّر خارج الله؛ كما استنتجنا من ذلك أنّ الجوهر الممتد هو إحدى صفات الله اللامتناهية. وحتى أقدم تفسيراً أوفى، سأبحثُ حُجج هؤلاء المعارضين التي يمكن حصرها فيما يلي: أولاً: إنّ الجوهر الجسماني يتركّب، في رأيهم، من حيث هو جوهر، من أجزاء؛ ولهذا السبب فهم ينفون أن يكون هذا الجوهر لا متناهيا ويرفضون بالتالي نسبته إلى الله، وإنّهم يعبرون عن رأيهم بالاعتماد على أمثلة عديدة سننقل هنا بعضها. فلو كان الجوهر

الجسماني، كما يقولون، لا نهائيا، فلنتصوره إذن منقسما إلى جزئين: إن كل جزء سيكون إما متناهيا وإما لا متناهيا. في الحالة الأولى، سيكون اللامتناهي مركبا من جزئين متناهيين، إلا أن ذلك خلف. أما في الحالة الثانية، فإنه سيوجد لا متناه أكبر مرتين من لا متناه آخر، وهذا لا يقلل خلفا عن الفرضية الأولى. وعلاوة على ذلك، فإن كان قيس الكم اللامتناهي بواسطة أجزاء طول كل واحد منها قدم فإن هذا اللامتناهي سيكون مؤلفا من عدد لا محدود من تلك الأجزاء ويمكن قول نفس الشيء إن كان قيس اللامتناهي بواسطة أجزاء طول الواحد منها بوصة. وهكذا سيصبح عدد لا محدود أكبر إثني عشر مرة من عدد لا محدود آخر. وأخيرا، إذا تصورنا أن خطين أ - ب و أ - ج ينطلقان من نقطة تنتمي إلى كم لا محدود و أنهما بعد انفصالهما حسب مسافة محددة، يمتدان إلى ما لا نهاية له، فمن الأكيد أن المسافة بين ب و ج ستزداد بدون انقطاع



وستصبح غير محددة بعد أن كانت محددة. ولما كانت هذه الظروف ناتجة، فهي نظروهم، عن كوننا نفترض كما لا محذور، فإنهم يستنتجون من ذلك أن الجوهر الجسماني محدود لا محالة وأنه بالتالي لا ينتمي إلى ماهية الله.

وإنهم يستنتجون أيضا برهانا ثانيا من كمال الله المطلق: إذ الله، كما يقولون، هو في غاية الكمال، وإذا كان فهو لا يتفعل؛ ولكن يمكن للجوهر الجسماني، باعتباره يتجزأ، أن يتفعل؛ وتبعاً لذلك فإن الجوهر الجسماني لا ينتمي إلى ماهية الله.

تلك هي البراهين التي وجدتها عند المؤلفين والتي وقع اعتمادها لإثبات أن الجوهر الجسماني لا يليق بطبيعة الإله ولا يمكن أن ينتمي إليه، إلا أنه يمكن أن نتبين بقليل من الانتباه أنني قد أجبت عن ذلك سابقا، إذ أن هذه البراهين تقوم فحسب على افتراض الجوهر الجسماني مركبا من أجزاء، وهذا خلف

كما بينت أعلاه (القضية 12 مع لازمة القضية 13). ثم إنه يتبين لنا، إذا ما نظرنا إلى المسألة بتمحيص، أن النتائج غير المعقولة (على افتراض أنها جميعا هكذا، وهي نقطة أتركها خارج المناقشة الحاضرة) التي يستخلصون منها أن الجوهر الممتد محدود، هي نتائج لا تستنبط قط من افتراض كم لا محدود وإنما من افتراض أن هذا الكم اللامحدود قابل للقيس ويتكون من أجزاء محدودة؛ وبناء على ذلك فإنه لا يمكننا أن نستنتج أي شيء من هذه الخوف عدا أن الكم اللامحدود غير قابل للقيس ولا يمكنه أن يتكون من أجزاء محدودة؛ ولكن هذا هو بالذات ما أثبتنا أعلاه (القضية 12 وما يتبع). فالسهم الذي رمونا به لم يصب في الواقع غيرهم. وإن كانوا يريدون، من جهة أخرى، انطلاقا من خلف ما افترضوه، استنتاج محدودية الجوهر الممتد، فهم في الحقيقة يتصرفون مثل من يتصور دائرة لها خصائص المربع ثم يستنتج من ذلك أنه ليس للدائرة مركزا تربط بينه وبين المحيط خطوط متساوية. ذلك أن الجوهر الجسماني، الذي لا يمكن تصوّره إلا لا متناهيا وأوحد وغير قابل للتجزئة (القضايا 8 و 5 و 12)، إنما يتصورونه متعددا وقابلا للتجزئة حتى يتسنى لهم استنتاج محدوديته. وفي نفس السياق، لقد سمى بعضهم، بعد أن تصوروا أن الخط يتكون من نقط، إلى البحث عن براهين عديدة من أجل إثبات لا تجزؤ الخط بصورة لا متناهية. فعلا، إن افتراض الجوهر الجسماني مؤلفا من أجسام أو أجزاء لا يقل خلقا عن افتراض الجسم مؤلفا من سطوح، والسطوح من خطوط، وأخيرا الخط من نقط، إن الذين يعلمون أن العقل المبين (Claram rationem) معصوم من الخطأ يعترفون بذلك، ولا سيما أولئك الذين ينفون وجود الخلاء. ذلك أنه لو كان الجوهر الجسماني قابلا للتجزئة بحيث تكون أجزاؤه منفصلة حقا بعضها عن بعض فلماذا لا يمكن أن يتعدم جزء ما وأن نحافظ بقية الأجزاء فيما بينها على نفس الصلات السابقة؟ وإذا يجب على هذه الأجزاء أن تتلاصق بعضها مع بعض بحيث ينتفي وجود الخلاء لا شك أنه لو كانت الأشياء منفصلة حقا بعضها عن بعض لأمكن لبعضها أن

يوجد وأن يحافظ على حالته بدون الآخر، ولما كان لا يوجد في الطبيعة خلاء (لقد تطرقنا إلى هذا الموضوع في مجال آخر)، بل الأجزاء كلها تتجمع بطريقة تتمتع وجوده، فإنه ينتج عن ذلك أنه لا يمكن لهذه الأجزاء أن تنفصل حقا بعضها عن بعض، بمعنى أن الجوهر الجسماني، بما هو جوهر، لا يقبل التجزئة. بيد أنه لو سألنا لماذا نحن نميل بطبيعتنا إلى تجزئة الكم، فإن جوابي هو أننا نتصور الكم بطريقتين اثنتين: فإما أن يكون تصورا له مجردا، أي سطحيا، كأن نتمكّله بالخيالة، وإما أن نتصوره كجوهر، وهو ما لا يتم إلا بواسطة الذهن، فإذا ما اعتبرنا الكم من منظور الخيال، وهي حالة مألوفة وسهلة المأخذ، فإننا سنجد محدودا وقابلا للقسمة ومتكوّنا من أجزاء؛ وعلى العكس، إذا ما اعتبرناه من منظور الذهن وتصورناه كجوهر، وهو أمر عسير، فإننا سنجد، كما أثبتنا ذلك بما فيه الكفاية، لا متناهيا وأوحد وغير قابل للتجزئة. ويظهر ذلك جليا لكلّ الذين يحسنون التمييز بين الخيالة والذهن (imaginationem et intellectum): ولا سيما إذا وقع الانتباه أيضا إلى أن المادة هي هي في كلّ مكان، وأنه لا يمكن التمييز بين أجزاء داخلها إلا في حالة تصورنا لها منطبعة بطرق مختلفة؛ مما يترتب عليه أن التباين الموجود بين أجزائها إنما هو تباين في الحالة (modaliter) فقط وليس تباينا حقيقيا. فنحن نتصور مثلا أن الماء، بما هو ماء، يتجزأ وأن أجزاءه تنفصل بعضها عن بعض، غير أن ذلك لا يكون من حيث هو جوهر جسماني، لأنه لا يقبل بهذه الصورة لا الانفصال ولا الانقسام. وفي هذا السياق إن الماء يتكوّن ويفسد بما هو ماء، ولكنه لا يتكوّن ولا يفسد بما هو جوهر. وبذلك أعتقد أنني قد أجيبت على البرهان الثاني، بما أنه يقوم أيضا على افتراض أن المادة، بما هي جوهر، قابلة للقسمة وتتكوّن من أجزاء. وحتى لو كان هذا البرهان يقوم على غير ذلك، فإنني أفسح المجال لا تليق المادة بالطبيعة الإلهية، ما دام (القضية 14) لا يوجد خارج الله أي جوهر ليؤثر فيه. فكلّ الأشياء، كما قلت، موجودة في الله، وكلّ ما يحدث إنما يحدث بموجب قوانين طبيعة الله اللامحدودة لا

غيره وينتج عن ضرورة ماهيته (كما سنبين ذلك قريباً)؛ وتبعاً لذلك لا يجوز القول بأي وجه من الوجوه إن الله يتأثر بفعل كائن آخر أو أن الجوهر الممتد لا يليق بالطبيعة الإلهية، حتى لو افترضنا أن هذا الجوهر قابل للتجزئة، شريطة أن نسلّم بأنه أزلي ولا محدود. ولكن كفى حديثاً في هذا الموضوع الآن.

القضية 16

ينتج حتماً عن وجوب *(Ex necessitate)* الطبيعة الإلهية عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الأحوال، أي كلّ ما يمكن أن يدركه عقل *(intellectum)* لا محدود.

البرهان

هذه القضية بديهية لا ريب عند كلّ من ينتبه إلى أن العقل يستنبط، انطلاقاً من تعريف معيّن لشيء ما، خصائص عديدة تابعة حقاً وبالضرورة لهذا الشيء (أي تابعة لماهية الشيء ذاتها)، ولا سيما إذا كان تعريف الشيء يعبر عن واقعية أكثر، أي إذا كانت ماهية الشيء تنطوي على واقعية أكثر. ولما كانت الطبيعة الإلهية تملك عدداً لا محدوداً انطلاقاً من الصفات (التعريف ٥) المعبّرة كلّ واحدة عن ماهية لا متناهية في ذاتها، فإنّه ينتج حتماً عن وجوبها عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الأحوال، أي كلّ ما يمكن أن يدركه عقل لا محدود.

لازمة 1

ينتج عن ذلك: 1 - أن الله هو العلة الفاعلة لجميع الأشياء التي يمكن أن يدركها عقل لا محدود.

لازمة 2

وينتج: 2 - أن الله علة بذاته، لا عرضاً.

لازمة 3

وينتج: 3 - أن الله علة أولى على وجه الإطلاق.

القضية 17

إن الله يتصرف بقوانين طبيعته وحدها ولا يخضع لأي قسر.

البرهان

لقد بينا (القضية 16) أن أشياء لا تحصى إطلاقاً تنتج عن وجوب الطبيعة الإلهية وحدها أو (الأمران سيان) عن قوانين طبيعته وحدها، كما برهننا (القضية 15) على أنه لا يمكن لأي شيء أن يوجد ولا أن يتصور بدون الله، بل الأشياء جميعاً موجودة في الله؛ وعلى ذلك لا يمكن لأي شيء أن يوجد خارج الله كي يحدد فعله أو يرغمه على تصرف ما؛ وعليه فإن الله يتصرف بقوانين طبيعته وحدها وبدون أي قسر.

اللزامة 1

ينتج عن ذلك: 1 - أنه لا توجد أية علة خارج الله أو في داخله لتحته على الفعل، عدا كمال طبيعته الخاصة.

اللزامة 2

وينتج: 2 - أن الله وحده علة حرة، لأن الله فحسب يوجد بضرورة طبيعته وحدها (القضية 11 واللازمة الأولى للقضية E4) ويتصرف بضرورة طبيعته وحدها (القضية السابقة). وعندئذ (التعريف 7) فهو وحده علة حرة.

حاشية

يرى بعضهم أن الله علة حرة لأنه يستطيع، حسب اعتقادهم، أن يجعل الأشياء التي قلنا إنها ناتجة من طبيعته، أي أنها بقدرته، لا تحدث، وبعبارة أخرى لا تنتج منه. فقولهم هذا كالقول: إنه بقدرة الله أن يجعل طبيعة المثلث لا تستلزم من زواياه الثلاث أن تكون مساوية لزاويتين قائمتين، أو أن وجود العلة لا يقتضي وجود المعلول، وهذا خلف. وعلاوة على ذلك سأتين لاحقاً وبونما لجوء إلى هذه القضية أنه لا العقل ينتمي إلى طبيعة الله ولا الإرادة. أعلم جيداً أن الكثير يعتقدون أنه بوسعهم البرهنة على امتلاك الطبيعة الإلهية لعقل رفيع وإرادة حرة؛ وهم يصرون فعلاً بعدم معرفتهم لشيء أكمل مما عهدوه في أنفسهم في غابة الكمال كي يكون جديراً بأن يُنسب إلى الله. ورغم أنهم يتصورون الله عليمًا، إلا أنهم لا يعتقدونه قادرًا على إيجاد كل ما يعلمه بالفعل، لأنهم سيحطمون بهذه الطريقة، حسب ظنهم، قدرة الله. فلو كان الله، على حدّ تعبيرهم، قد خلق كل ما يوجد في عقله، لما بقي له شيء إضافي يقدر

على خلقه، إلا أن ذلك لا يتناسب، في نظرهم، مع قدرة الله المطلقة؛ واقد
 فضكوا، تبعاً لذلك، التسليم بأن الله لا ييالي بالاشياء جميعاً ولا يخلق شيئاً
 عدداً ما قرر خلقه وفقاً لإرادة مطلقة معينة. ولكن أعتقد أنني بينت يكامل
 الوضوح (القضية 16) أنه ينتج دائماً وينفكس الضرورة عن قدرة الله العظمى،
 أي عن طبيعته اللانهائية، عدد لا محدود من الاشياء بعدم لا محدود من
 الأحوال، مثلما ينتج منذ الأزل وإلى الأبد عن طبيعة المثث أن زواياه الثلاث
 مساوية لزوايتين قائمتين، لذلك كانت قدرة الله العظمى قدرة فعلية منذ الأزل،
 وسوف تبقى أبداً فعلية. إن تصورنا هذا لقدرة الله المطلقة يجعلها، في
 اعتقادنا على الأقل، أكثر كمالاً، وعلاوة على ذلك يبدو أن خصوصي (ليسمح لي
 بالحديث صراحة) ينكرون قدرة الله المطلقة، فهم مرغمون حقاً على الاعتراف
 بأن الله يدرك بعقله عدداً لا محدوداً من الاشياء القابلة للخلق والتي لن
 يستطيع مع ذلك أبداً خلقها؛ إذ لو كان ذلك ممكناً، أي لو خلق الله كل ما
 يدركه بعقله، لتفدت، حسب قولهم، كل قدرته وأصبح ناقصاً، وكى يضعوا
 الكمال في الله، فإنهم لم يجنوا بدأ من التسليم في الوقت نفسه بأنه لا
 يستطيع أن يفعل كل ما تتسع له قدرته. إنه لا يمكن، في نظري، تصور شيء
 أقل معقولة من هذا أو أقل ملاصقة لقدرة الله المطلقة.

ثم إنني أضيف هنا بعض الشيء عن العقل والإرادة اللذين ننسبهما عادة
 إلى الله؛ فإن كان العقل والإرادة ينتميان إلى طبيعة الله الأزلية، فإن المقصود
 بكلتا هاتين الصفتين هو، بكل تأكيد، شيء آخر غير ما يقصده الناس عموماً،
 ذلك أن العقل والإرادة المؤلفين لماهية الله يختلفان اختلافاً تاماً عن عقلنا
 وإرادتنا ولا يمكن أن يتفقا معهما إلا في الاسم، كاتفاق الكلب، المجرة
 السماوية، مع الكلب، الحيوان التابع، وسأثبت ذلك كما يلي. إن كان العقل
 ينتمي إلى الطبيعة الإلهية فإنه لن يكون، مثل عقلنا، لاحقاً بطبيعته (كما يزعم
 أغلبهم ذلك) للأشياء التي يدركها، أو مزامناً لها، ذلك أن الله متقدم على جميع
 الأشياء بعليته (اللزمة الأولى للقضية 16)؛ بل، على العكس، إن حقيقة الأشياء

وماهيتها الصورية هي على نحو ما لأنها توجد موضوعيا على هذا النحو في العقل الإلهي. فالمعقل الإلهي إذن من حيث تصوّره مكوّنًا لماهية الله، هو حقًا علّة الأشياء، أي علّة ماهيتها وعلّة وجودها على حدّ السواء. وهو ما وقع إدراكه، على ما يبدو، من قبل أولئك الذين أثبتوا أنّ عقل الله وإرادته وقدرته شيء واحد، ولما كان عقل الله هو العلّة الوحيدة للأشياء، أي (كما بيّنّا) أنّه علّة ماهيتها وعلّة وجودها على حدّ السواء، فهو يختلف عنها بالضرورة من حيث الماهية وأيضًا من حيث الوجود. فعلا، إنّ ما يجعل المعلول مختلفًا عن علّته هو بوجه التحقيق أنّه تابع لها. فمثلا الإنسان هو علّة وجود إنسان آخر، لا علّة ماهيته، لأنّ هذه الماهية حقيقة أزلية؛ وبالتالي فالإنسان يتفقان تماما من حيث الماهية ولكنهما يختلفان من حيث الوجود؛ ولهذا السبب فإنّ غناء وجود أحدهما لا يتبعه غناء وجود الآخر، ولكن لو أمكن لماهية أحدهما أن تتقوّض وأن تصبح باطلة فإنّ ماهية الآخر ستبطل أيضا. وبناء على ذلك فإنّ الشيء الذي يكون علّة لماهية معلول ما ولوجوده معًا، يختلف بالضرورة عن هذا المعلول من حيث الماهية ومن حيث الوجود على حدّ سواء، ولما كان عقل الله هو علّة ماهية عقلنا وعلّة وجوده معًا، فإنّ عقل الله يختلف إذن، من حيث تصوّره مؤلّفًا للماهية الإلهية، عن عقلنا نحن من حيث الماهية ومن حيث الوجود على حدّ سواء ولا يمكن أن يتفق معه في شيء، عدا في الاسم، كما أردنا إثباته. وفيما يتعلّق بالإرادة، يمكن أن نتهج نفس الطريقة، كما هو بيّن لكل واحد.

القضية 18

الله علّة محايثة (causa immanens)، لا متعدية، لجميع الأشياء.

البرهان

كل ما يوجد إسماء يوجد في الله ويجب أن يتصور بالله (القضية 15)، وبالتالي (اللزمة الأولى للقضية 16) إن الله علّة الأشياء الموجودة فيه؛ هذه نقطة أولى. ثم إنّه لا يمكن أن يوجد أيّ جوهر خارج الله (القضية 14)، بمعنى (التعريف 3) أنّه لا يوجد خارج الله أيّ شيء في ذاته، وهذه هي النقطة الثانية. وعليه فإنّ الله علّة محايدة، لا متعدية، لجميع الأشياء.

القضية 19

الله أزلي، أي أن جميع صفاته أزلية.

البرهان

فعلًا، إنّ الله جوهر (التعريف 6) موجود بالضرورة (القضية 11)، بمعنى (القضية 7) أن الوجود ينتمي إلى طبيعته أو (الأمران سيّان) أن تعريفه ينطوي على وجوده، وبالتالي (التعريف 8) فهو أزلي. وبالإضافة إلى ذلك، إنّ المقصود بصفات الله (التعريف 4) هو ما يعبر عن ماهية الجوهر الإلهي، أي ما ينتمي إلى الجوهر: فذاك عينه، أجل، ما ينبغي أن تنطوي عليه الصفات. وبما أن الأزل ينتمي إلى طبيعة الجوهر (كما سبق أن أثبت ذلك من خلال القضية 7)، فإنّ كلّ صفة من الصفات تنطوي إذن بالضرورة على الأزل، وبالتالي فهي جميعاً أزلية.

مباشرة

تصبح هذه القضية بديهية جداً إذا ما توخينا الطريقة (القضية 11) التي برهنت بها على وجود الله؛ إذ ينتج عن هذا البرهان أن وجود الله مثل ماهيته، هو حقيقة أزلية. وفضلاً عن ذلك لقد أثبتنا أيضاً بطريقة أخرى (القضية 19 من "مبادئ نيكاوت") أزلية الله، ولستنا في حاجة هنا إلى صياغة ذلك من جديد.

القضية 20

إن وجود الله وماهيته شيء واحد لا غير (*unum et idem*).

البرهان

إن الله (القضية السابقة) أزلي وجميع صفاته أزلية، أي (التعريف 8) أن كل صفة من صفاته تعبر عن الوجود، إذن إن نفس الصفات الإلهية التي (التعريف 4) تفسر ماهية الله الأزلية، تفسر في الوقت ذاته وجوده الأزلي، بمعنى أن الشيء المكون لماهية الله هو عينه المكون لوجوده، وبالتالي فإن الماهية والوجود شيء واحد لا غير.

للمهمة 1

ينتج عن ذلك: 1 - أن وجود الله هو، مثل ماهيته، حقيقة أزلية.

لَا وَهْمَ 2

وينتج: 2 - أن الله ثابت لا يتغير، بمعنى أن جميع صفات الله لا تتغير (immutabilia). إذ لو كانت هذه الصفات متغيرة من حيث الوجود، لكانت أيضا (القضية السابقة) متغيرة من حيث الماهية، أي (كما هو معلوم بذاته) لأصبحت باطلة بعد أن كانت صادقة، وهذا محال.

القضية 21

كل ما ينتج عن الطبيعة المطلقة لصفة إلهية، لا يد أنه قد وجد دائما وأنه لا متناه، وبعبارة أخرى إنه لا متناه وأزلي بمقتضى تلك الصفة.

البرهان

لو نفيتم، ذلك، فتصوروا، إن كان ذلك ممكنا، أنه ينتج، داخل صفة من صفات الله وعن الطبيعة المطلقة لهذه الصفة، شيء يكون متناهيا ويكون وجوده أو نواحه محدودا، مثلا فكرة الإله (ideam Dei) في الفكر (in cogitatione). فالفكر، ما دما نفترض أنه صفة إلهية، هو حتما غير متناه بطبيعته (القضية 11)، ولكن من جهة أخرى، بما أن الفكر يحتوي على فكرة الإله فنحن نفترضه متناهيا، ولكن (التعريف 2) لا يمكن أن نتصور الفكر متناهيا إن لم يكن محدودا من قبل الفكر ذاته. بيد أنه لا يمكن أن يكون محدودا من قبل الفكر بما هو مكون لفكرة الإله، لأن الفكر يكون في هذه الحالة متناهيا، إذن سيكون الفكر محدودا من قبل الفكر بما هو غير مكون

لفكرة الإله، مع أن هذه الفكرة موجودة حتماً (القضية 11). إذن يوجد فكر غير مكوّن لفكرة الإله، وبالتالي فإن فكرة الإله لا تنتج عن طبيعة الفكر بما هو فكر مطلق (إذ نحن نتصوره كمكوّن لفكرة الإله أو كغير مكوّن لها)؛ إلا أن ذلك مناقض لما افترضناه. إذن إن كانت فكرة الإله في الفكر، أو إن كان أي شيء آخر (ذلك لا يهم، لأن الاستدلال كلي) داخل صفة من صفات الله ينتج عن ضرورة الطبيعة المطلقة لهذه الصفة، فهذا الشيء هو بالضرورة لا متناه. هذه نقطة أولى.

الآن، إن ما ينتج بهذا النحو عن ضرورة طبيعة صفة من الصفات لا يمكن أن يكون بقاءه محدوداً. لو نفيتم ذلك، فافترضوا أن شيئاً ينتج عن ضرورة طبيعة صفة ما وأنه يوجد في صفة من صفات الله، مثلاً فكرة الإله في الفكر، وافترضوا أن هذا الشيء لم يكن موجوداً أو أنه قد لا يوجد يوماً ما، إن الفكر، باعتباره صفة من صفات الله، يوجد بالضرورة وهو ثابت لا يتغير (القضية 11، والأزمة الثانية للقضية 20). وبناء على ذلك فإنه، بعد الحدود التي ينتهي معها بقاء فكرة الإله (التي نفترض أنها لم تكن موجودة وقد ينتهي وجودها يوماً ما)، سيبقى الفكر موجوداً بدون فكرة الإله. إلا أن ذلك مناقض للفرضية، إذ المقروض هو أنه إذا ما وجد الفكر فإن فكرة الإله تنتج عنه حتماً. إذن إن فكرة الإله في الفكر، وإن كل ما ينتج بالضرورة عن الطبيعة المطلقة لصفة إلهية لا يمكن أن يكون بقاءه محدوداً، بل هو أبدي بمقتضى تلك الصفة. هذه نقطة ثانية. ولاحظوا أن كل ما يقال هنا ينبغي إثباته عن كل شيء ينتج بالضرورة، داخل صفة إلهية، عن طبيعة الله المطلقة.

القضية 22

كل ما ينتج عن صفة إلهية، من جهة ما يطرأ عليها من تحولٍ

موجود بمقتضى هذه الصفة وجوداً ضرورياً ولا نهائياً، إنما هو موجود بالضرورة وبصورة لا نهائية.

البرهان

يكون الاستدلال على هذه القضية بنفس الطريقة المتوخاة في الاستدلال السابق.

القضية 23

كلّ حال يكون وجوده ضرورياً ولا نهائياً لا بدّ أنّه قد نتج بالضرورة إمّا عن الطبيعة المطلقة لصفة من صفات الله، وإمّا عن صفة طرأ عليها تحوّل موجود بصورة ضرورية ولا نهائية.

البرهان

يوجد الحال في شيء آخر غيره، وبه يجب أن يتصور (التعريف 5)، أي (القضية 15) أنّه يوجد في الله وحده ويجب تصوّره بالله وحده. فإذا تصوّرنا إذن حالا موجوداً بالضرورة وغير متناه، فإِنَّه ينبغي تصوّر هاتين الصفتين أو إدراكهما بالضرورة بواسطة صفة إلهية باعتبار أنّ هذه الصفة تعبر عن ضرورة الوجود ولا تناهية، أو (الأمران سيّان حسب التعريف 8) عن الأزل، أي (التعريف 6 والقضية 19) باعتبار هذه الصفة على وجه الإطلاق. إذن فالحال الموجود ضرورة وغير المنتهي قد نتج لا محالة عن الطبيعة المطلقة لصفة إلهية، وذلك إمّا بصورة مباشرة (راجع مثلاً القضية 21) وإمّا بواسطة

تحول ناتج عن الطبيعة المطلقة لتلك الصفة، أي (القضية السابقة) موجود
بضرورة ضرورية ولا نهائية.

القضية 24

لا تنطوي ماهية الأشياء التي يُنتجها الله على الوجود.

البرهان

إنّ ذلك يديه من خلال التعريف 1: لأنّ الذي تنطوي طبيعته
(منظوراً إليها في ذاتها) على الوجود يكون علّة لذاته ويوجد بضرورة طبيعته
وحدها.

اللزامة

يترتب على ذلك أنّ الله ليس فحسب العلّة التي تجعل الأشياء
تشرع في الوجود، بل هو أيضاً العلّة التي تجعلها تبقى في
الوجود، وبعبارة أخرى (كي نستعمل لفظاً مدرسياً) إنّ الله علّة
كيان الأشياء، ذلك أنّه، سواء وجدت هذه الأشياء أو لم توجد فإننا
كلّما تأملنا ماهيتها وجدناها لا تنطوي لا على الوجود ولا على العدم،
وبالتالي فإنّه لا يمكن لماهيتها أن تكون علّة لوجودها وبقائها؛ بل الله
فحسب يمكنه ذلك، لأنّ من طبيعته هو فحسب أن يكون موجوداً (اللزامة
الأولى للقضية 14).

القضية 25

ليس الله الحلة الفاعلة لوجود الأشياء فحسب، بل هو العلة الفاعلة لماهيتها أيضا.

البرهان

لو تقيّم ذلك فمعناه أن الله ليس علة ماهية الأشياء؛ وبالتالي (البديهية 4) يمكن لماهية الأشياء أن تُترك بدون الله؛ لكن ذلك غير معقول (القضية 15). إذن فالله هو علة ماهية الأشياء أيضا.

ملاحظة

تنتج هذه القضية بأكثر وضوح من القضية 16. فعلا، ينتج عن هذه القضية أنه يلزم من وجود الطبيعة الإلهية ككل من وجود الأشياء وماهيتها. وبعبارة واحدة، إن المعنى الذي يقال به إن الله علة ذاته يجب أن يقال به أيضا إنه علة جميع الأشياء، وسنبيّن ذلك بأكثر وضوح في اللازمة الآتية.

لازمة

ليست الأشياء الجزئية (Res particulares) غير أعراض لصفات الله، وبعبارة أخرى إنها أحوال يُعبّر عن خلالها عن صفات الله بطريقة معينة ومحددة. إن البرهان على ذلك بديهي من خلال القضية 15 والتعريف 5.

القضية 26

الشيء المدفوع إلى إنتاج معلول ما إنما دفعه الله حتماً إلى ذلك.
أما الشيء الذي لم يدفعه الله فلا يمكنه أن يدفع نفسه بنفسه إلى إنتاج معلول ما.

البرهان

إن ما يجعل الأشياء تُقال مدفوعة إلى إنتاج معلول ما إنما هو بالضرورة شيء إيجابي (كما هو معلوم بذاته)؛ وبالتالي فإن الله هو العلة الفاعلة، بضرورة طبيعته، لكل من ماهية هذا الشيء وجوده (القضيتان 25 و16)؛ هذه نقطة أولى، ويرتّب عليها بكل وضوح الجزء الثاني من القضية؛ إذ لو كان الشيء الذي لا يدفعه الله يستطيع أن يدفع نفسه بنفسه، لبطال الجزء الأول من القضية، وهذا محال، كما بينا.

القضية 27

لا يمكن للشيء الذي دفعه الله إلى إنتاج معلول ما أن يجعل نفسه بنفسه غير مدفوع.

البرهان

إن ذلك جليّ من خلال البديهية 3.

القضية 28

لا يمكن لأي شيء جزئي (singular) *، أعني لأي شيء متناه ومحدّد الوجود، أن يوجد ولا أن يتحدّد إنتاجه لمعلول ما إن لم يتحدّد وجوده وإنتاجه لهذا المعلول بعلة أخرى هي ذاتها متناهية ومحدّدة الوجود؛ وهذه العلة بدورها لا يمكنها أيضا أن توجد وأن يتحدّد إنتاجها لمعلول ما إن لم يتحدّد وجودها وإنتاجها لهذا المعلول بعلة هي الأخرى متناهية ولها وجود محدّد، وهكذا نواليك بلا نهاية.

البرهان

كلّ ما يتحدّد وجوده وإنتاجه لمعلول ما إنّما يتحدّد بهذا النحو من قبل الله (القضية 26 ولازمة القضية 24). ولكن لا يمكن لأي شيء متناه ومحدّد الوجود أن ينتج عن الطبيعة المطلقة لصفة إلهية، لأنّ كلّ ما ينتج عن الطبيعة المطلقة لصفة إلهية هو لا متناه وأزلي (القضية 21). فذلك الشيء قد نتج إذن عن الإله أو عن بعض صفاته من جهة اعتباره متأثرا بتحوّل معين، إذ لا يوجد شيء

* المقصود بالاشياء الجزئية، من هنا فصاعداً، الاشياء الفردية والخصصية والعينية التي تكون معرفتها بواسطة مفهوم مطابق لفرديتها. ورغم أنّ الإنجليز قد ترجموا أحيانا هذه العبارة بـ "individual objects"، كما أشار إلى ذلك روجي كايوا (الملاحظة رقم 336 لترجمته لكتاب "علم الأخلاق")، إلّا أنّنا تجنّبنا هذا اللفظ، ما دام سبينوزا لا يستعمله، كما تجنّبنا اللفظين الآخرين (الخصصية والعينية) رغم أنّهما واردان عند فلاسفة الإسلام، خشية أن يقع القارئ في لبس ناتج عما أصبحا يكتنفانه من معاني جديدة في عصرنا هذا.

خارج الجوهر وخارج الأحوال (اليدوية 1، التعريفان 3 و 5)، والأحوال (لازمة القضية 25) ليست شيئا عدا تحولات لصفات الله، ولكن لا يمكن لهذا الشيء أن يكون قد نتج عن الله ولا عن إحدى صفاته من جهة تأثره بتحول أولي ولا محدود (القضية 22). فهو إذن قد نتج عن الله أو قد تحدّد وجوده وإنتاجه لمعلول ما من قبل الله أو من قبل إحدى صفاته من جهة انطباعه بتحول متناه ومحدّد الوجود؛ هذا بالنسبة إلى النقطة الأولى، والآن إن هذه العلة - أو بعبارة أخرى، هذا الحال - (لنفس السبب الذي سمح بالاستدلال في الجزء الأول) قد حدّتها بدورها علة أخرى متناهية أيضا ومحددة الوجود، وهذه الأخيرة حدّتها بدورها علة أخرى (لنفس السبب) وهكذا بلا نهاية (لنفس السبب).

حاشية

بما أن بعض الأشياء قد نتجت مباشرة عن الله، وهي تلك التي تلزم بالضرورة عن طبيعته المطلقة، وبما أن أشياء أخرى قد نتجت عنه عن طريق الأولى ويتعذر مع ذلك وجودها وتصورها بفير الله، فإنه يترتب:

(1) - أن الله هو العلة القريبة إطلاقا (causa absolute proxima) للأشياء الناتجة عنه مباشرة، لا العلة القريبة من حيث جنسها (in suo genere)، كما يقال، إذ لا يمكن لمعلولات الله أن توجد ولا أن تُتصور بدون علّتها (القضية 15 ولازمة القضية 24).

ويتبع:

(2) - أنه لا يصحّ القول إن الله هو العلة البعيدة للأشياء الجزئية، اللهم إلا إذا كانت غايتهما التمييز بين هذه الأشياء وتلك التي أنتجها مباشرة أو بالأحرى تلك التي تنتج عن طبيعته المطلقة. ذلك أننا نعني بالعلة

البعيدة العلة التي لا تربطها أية صلة بمعلولها، بيد أن كل ما يوجد إنما يوجد في الله وهو تابع له في وجوده، بحيث لا يمكنه أن يوجد ولا أن يتصور بدون الله.

القضية 29

لا شيء في الطبيعة حادث (contingens)، بل كل ما فيها محدد بضرورة الطبيعة الإلهية كي يوجد وينتج معلولا ما بنحو ما.

البرهان

كل ما يوجد إنما يوجد في الله (القضية 15)، ولا يمكن القول إن الله حادث، لأن الله (القضية 14) يوجد ضرورة، لا جوازاً. وبالنسبة إلى أحوال طبيعة الله، فهي تنتج عن هذه الطبيعة بالضرورة أيضاً، لا عن طريق الجواز (القضية 16)، وذلك سواء اعتبرنا الطبيعة الإلهية إطلاقاً (القضية 21) أو اعتبرناها محددة للفعل بنحو ما (القضية 27). وعلاوة على ذلك، ليس الله علة هذه الأحوال بما هي موجودة فحسب (لازمة القضية 24) بل هو علقها أيضاً من جهة كونها محددة لإنتاج معلول ما (القضية 26). وإذا كانت هذه الأحوال غير محددة من قبل الله فإنه يصبح من باب المستحيل، لا من باب الجواز، أن تحدّد نفسها بنفسها (نفس القضية)؛ أمّا إذا كانت، على العكس من ذلك، محددة من قبل الله، فإنه (القضية 27) من المستحيل وليس من الجائز أن تجعل نفسها غير محددة. فكل شيء محدد إذن بضرورة الطبيعة الإلهية لا فقط كي يوجد، بل أيضاً كي ينتج معلولا ما بوجه ما، ولا وجود لشيء حادث.

حاشية

قيل أن أوصل أريد أن أفسر هنا ما ينبغي أن نفهم بالطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة، أو بالأحرى أن أشير إلى ذلك، لأنه غدا من الواضح، مما تقدم، أن ما ينبغي فهمه بالطبيعة الطابعة هو ما يكون في ذاته وتصوراً بذاته، أعني صفات الجوهر تلك التي تميّز عن ماهية أزلية ولا متناهية، أو كذلك (اللازمة الأولى للقضية 14، واللازمة الثانية للقضية 17) الإله من جهة اعتباره علة حرّة، وأعني بالطبيعة المطبوعة كلّ ما ينتج عن وجوب الطبيعة الإلهية، أي كلّ ما ينتج عن وجوب كلّ صفة من صفات الله، وأعني بها أيضاً كلّ أحوال صفات الله، باعتبارها أشياء موجودة في الله ولا يمكنها بدون أن توجد ولا أن تُتصور.

القضية 30

يدرك العقل المحدود بالفعل (*Intellectus actu finitus*) أو اللامحدود بالفعل صفات الله وأعراضه ولا شيء غيرها.

البرهان

يجب أن تتفق الفكرة الصحيحة مع الموضوع الذي تمثله (البيئية 6) أي (كما هو معلوم بذاته) أن ما يوجد موضوعياً في العقل موجوداً بالضرورة في الطبيعة؛ إلا أنه لا يوجد في الطبيعة (اللازمة الأولى للقضية 14) سوى جوهر واحد، ألا وهو الله؛ ولا توجد أعراض (القضية 15) عدا الأعراض الموجودة في الله والتي (نفس القضية) لا يمكنها أن توجد ولا أن تُتصور بدون الله؛ وعليه

فإن العقل المحدود بالفعل أو اللامحدود بالفعل يدرك صفات الله وأعراضه ولا شيء غيرها.

القضية 31

يجب أن ننسب العقل بالفعل (*Intellectus actu*)، سواء كان محدوداً أو لا محدوداً، وكذلك الإرادة والرغبة والحب إلخ، إلى الطبيعة الطبيعية، لا إلى الطبيعة الطائفة.

البرهان

فعلاً، إننا نعني بالعقل (كما هو معلوم بذاته)، لا الفكر المطلق، وإنما نمطا ممدداً من التفكير فنسب، ويختلف هذا النمط عن الأنماط الأخرى كالرغبة والحب إلخ، وينبغي بالتالي (التعريف 5) تصوّره بواسطة الفكر المطلق؛ أجل، ينبغي تصوّره (القضية 15 والتعريف 6) بواسطة صفة إلهية تعبّر عن الماهية الأزلية واللامتناهية للفكر، وذلك بنحو ما يجعل وجوده وتصوره يتعزّزان بتكون هذه الصفة؛ ولهذا السبب (حاشية القضية 23) يجب أن ننسبه إلى الطبيعة الطبيعية لا إلى الطبيعة الطائفة، وكذا الشأن بالنسبة إلى بقية أنماط التفكير.

حاشية

إذا كنت أتحدث هنا عن عقل بالفعل فليس معناه أنني أسلم بوجود عقل بالقوة (*intellectum potentia*)، وإنما أردت، سعياً إلى تجنب الخلط، أن

أقتصر الحديث عن الشيء الذي ندركه بأكثر وضوح، ألا وهو عملية المعرفة ذاتها، لأننا لا ندرك شيئاً بصورة أوضح من إدراكنا لها، فعلاً، إن كل ما نستطيع معرفته إنما يقود إلى معرفة أكبر لعملية المعرفة.

القضية 32

لا يمكن أن تسمى الإرادة علة حرة، وإنما علة ضرورية فحسب.

البرهان

إن الإرادة، كالعقل، نمط معين من التفكير؛ وبالتالي (القضية 28) فإنه لا يمكن لأي فعل إرادي أن يوجد وأن يحدث لإنتاج معلول ما إلا من قبل علة معينة، وهذه العلة بدورها من قبل علة أخرى، وهكذا نواليك إلى غير نهاية. وإذا ما افترضنا أن الإرادة لا محبودة، فإنه ينبغي أيضاً أن يتحدد وجودها وإنتاجها لمعلول ما من قبل الله، لا من حيث هو جوهر لا متناه على وجه الإطلاق وإنما من حيث هو يملك صفة تعبر عن الماهية المطلقة والأولية للفكر (القضية 23). وسواء تصورنا الإرادة محبودة أو غير محبودة فهي تقتضي علة محددة لوجودها وإنتاجها معلولاً ما، وعلى ذلك فإنه لا يمكن القول إنها علة حرة وإنما هي علة ضرورية أو مقهورة (necessaria vel coacta) فحسب.

لأهمية 1

يترتب على ذلك:

(1) - أن الله لا يتصرف بإرادة حرة.

لازمة 2

وينتج:

(2) - أن نسبة الإرادة والعقل إلى طبيعة الله كنسبة الحركة والسكون، وعلى وجه الإطلاق كنسبة جميع الأشياء الطبيعية التي (القضية 29) تكون محدّدة للوجود والفعل بنحو ما. ذلك أن الإرادة في حاجة، مثل جميع الأشياء الأخرى، إلى علة تحدّد وجودها وإنتاجها لمعلول ما بنحو ما. ورغم أنه ينتج عن وجود إرادة معيّنة أو عقل معيّن عدد لا محدود من الأشياء، فإنّه لا يمكن القول مع ذلك بأنّ الله يتصرّف بإرادته الحرة؛ تماما كما أنّه لا يمكن القول، نظرا إلى أنّ بعض الأشياء تنتج عن الحركة والسكون (وهي أشياء لا تعدّ ولا تحصى أيضا)، بأنّ الله يتصرّف بحريّة الحركة والسكون. فالإرادة إذن لا تنتمي إلى طبيعة الله أكثر من انتماء الأشياء الطبيعية الأخرى إليها، بل إنّ نسبتها إليها كنسبة الحركة والسكون وكلّ الأشياء التي بيّنا أنّها تنتج بالضرورة عن الطبيعة الإلهية المحدّدة لوجودها وإنتاجها معلولا ما بوجه ما.

القضية 33

لم يكن بالإمكان أن تنتج الأشياء عن الله بطريقة أخرى وبنظام آخر غير الطريقة والنظام اللّذين نتجت بهما.

المبوهان

إنّما الأشياء جميعا تابعة بالضرورة لطبيعة الله (القضية 16) ومحدّدة من

قبل ضرورة طبيعة الله كي توجد وتتج معولا ما بنحو ما (القضية 29). وعلى ذلك فلو كان بإمكان بعض الأشياء أن توجد بتحو آخر أو أن تكون محدودة لإنتاج معلول ما بشكل آخر، بحيث يصبح نظام الطبيعة نظاما آخر، لكان بوسع الله أيضا أن تكون طبيعته طبيعة أخرى، وبالتالي (القضية 11) لوجب أن توجد هذه الطبيعة ولأمكن، تبعا لذلك، وجود إلهين أو ألهة متعددة، وهذا (اللزامة الأولى للقضية 14) محال. لذلك لم يكن بالإمكان أن تنتج الأشياء عن الله بطريقة أخرى وبنظام آخر، إلخ.

مأشبة 1

بعد أن بينت، انطلاقا مما سبق، ويوضح أشد من وضوح النهار، أن الأشياء لا تحتوي قطعا على ما يسمح بالقول إنها حادثة، أود الآن بتقديم تفسير موجز لما ينبغي أن نعنيه بالحادث (Contingens)، وقبل ذلك ما ينبغي أن نعنيه بالضروري (Necessarium) والمستحيل (Impossibile). يقال عن شيء من الأشياء إنه ضروري إما بالإضافة إلى ماهيته وإما بالإضافة إلى علته. ذلك أن وجود الشيء تابع بالضرورة إما لماهيته وتعريفه وإما لعلة قاعلة معينة. ونقول عن الشيء إنه مستحيل لنفس هذه الأسباب، أي أننا نقول ذلك إما لكون ماهية هذا الشيء أو تعريفه يغلوي على تناقض، أو لكونه لا توجد في الخارج أية علة محددة لإنتاج هذا الشيء. أما السبب الوحيد الذي يجعلنا نقول عن شيء ما إنه حادث فهو النقص في معرفتنا لا غير. ذلك أن الشيء الذي نجهل أن ماهيته تنطوي على تناقض، أو الذي نعلم جيدا أن ماهيته لا تنطوي على أي تناقض، دون أن نستطيع مع ذلك إثبات أي شيء يقيني عن وجوده نظرا لجهلنا بنظام الأشياء، قلت إن شيئا كهذا لا يمكن أن يبدو لنا أبدا ضروريا ولا مستحيلا، وعلى ذلك فنحن نسميه حادثا أو ممكنا (vel contingentem vel possibilem).

حاشية 2

يترتب بوضوح عما سبق أن الله قد جعل الأشياء في غاية الكمال، ما دامت هذه الأشياء قد نتجت بالضرورة عن طبيعة في غاية الكمال، ونحن لا نلحق بهذه الصورة أي عيب بالله، إذ أن ما جعلنا تثبت ذلك هو كماله الخاص؛ بل إن إثبات العكس قد ينجر عنه (كما بينت آنفا) أن الله ليس في غاية الكمال؛ ذلك أنه لو نتجت الأشياء بطريقة أخرى لكتنا نسبنا إلى الله طبيعة مختلفة عن تلك التي يفرضها اعتبار الموجود الذي في غاية الكمال، ولكني لا أشك أن الكثير من الناس يستبعدون هذا الرأي ويرون فيه خلقا، بل هم يرفضون حتى النظر فيه؛ وذلك ليس لشيء غير أنهم قد تعودوا على منح الله حرية من غير النوع الذي حددناه (التعريف 7)، أي على منحه إرادة مطلقة. ولا شك أيضا أنهم لو أرادوا تأمل هذا الموضوع وفحص بقية استدلالاتي فحصا دقيقا، لاستبعدوا كلياً هذا النوع من الحرية التي تسبواها إلى الله، لا فحسب باعتبارها شيئاً تافهاً، بل أيضاً باعتبارها عائقاً كبيراً للعلم، ولا حاجة هنا إلى تكرار ما قلته في حاشية القضية 17. بيد أنني سأتبين فضلاً عن ذلك، ومراعاة لهم، أنه حتى في صورة ما إذا سلمنا بأن الإرادة تنتمي إلى ماهية الله، فإنه ينتج مع ذلك عن الكمال الإلهي أنه لم يكن بإمكان الله أن يخلق الأشياء بطريقة أخرى وينتظام آخر. ويسهل إثبات ذلك إذا اعتبرنا، بادئ ذي بدء، ما يسلّمون به هم أنفسهم، وهو أن وجود كل شيء على نحو ما هو عليه إنما يتوقف على قرار الله وحده وعلى إرادته وحدها. وفعلنا، لو كان الأمر على خلاف ذلك، لما كان الله علة لجميع الأشياء، وثانياً، إنهم يسلّمون أيضاً بأن كل القرارات الإلهية قد وضعها الله ذاته منذ الأزل؛ إذ لو كان الأمر غير ذلك لكان العيب والتقلب من سمات الله. ثم إنه لا يوجد في الأزل لا متى ولا قبل ولا بعد؛ ويترتب على ذلك، أي على كمال الله وحده، أنه لا يمكن لله ولم يكن بوسعها أبداً إقرار شيء آخر؛ بمعنى أن الله لم يوجد قبل قواراته ولا يمكنه أن

يوجد بدونها. ولعلهم سيقولون: حتى لو افترضنا أن الله قد أحدث طبيعة مغايرة للأشياء، أو أنه قد أقر منذ الأزل شيئاً آخر للطبيعة ونظامها، فإن ذلك لا يلصق أي عيب بالله. إني أجيب بأن مثل هذا القول يجعلهم يسلّمون بأن الله يستطيع تغيير قراراته؛ إذ لو كان الله قد أقر للطبيعة ونظامها شيئاً آخر غير الذي أقره، بمعنى أنه لو أراد وتصور شيئاً آخر للطبيعة لكان يملك بالضرورة عقلاً آخر غير عقله الحاضر، وإرادة أخرى غير إرادته الحاضرة. ولو كان يجوز منح الله عقلاً آخر وإرادة أخرى دون أن نغير مع ذلك شيئاً من ماهيته وكماله، فلم لا يمكنه حالياً تغيير قراراته المتعلقة بالأشياء المخلوقة مع المحافظة على كماله؟ ذلك أنه مهما كان تصورنا لعقله وإرادته في علاقتهما بالأشياء المخلوقة، فإنهما يحافظان دائماً على نفس العلاقة مع ماهيته وكماله. ومن جهة أخرى، يسلّم جميع الفلاسفة، على ما أعرف، بأن الله لا يملك عقلاً بالقوة، وإنما عقله بالفعل، وبما أن عقل الله وإرادته لا ينفصلان عن ماهيته، كما يسلّم بذلك الجميع أيضاً، فإنه يترتب على ذلك أنه، لو كان الله يملك عقلاً بالفعل وإرادة آخرين، لكانت ماهيته حتماً ماهية أخرى؛ وبالتالي (كما استنتجت ذلك أعلاه) لو كانت الأشياء قد غتجت عن الله بشكل آخر غير شكلها الحاضر، لكان عقل الله وإرادته، أي (كما يسلّم بذلك) ماهيته، على خلاف ما هما عليه، وهذا محال.

وبما أنه لم يكن بالإمكان أن تنتج الأشياء عن الله بأي وجه آخر وبأي نظام آخر، فضلاً عن أن صدق هذه القضية ناجم عن كمال الله المطلق، فنحن لن نُقنعنا حجة بأن الله لم يرغب في خلق جميع الأشياء الموجودة في عقله بنفس الكمال الذي هي عليه في عقله. ولعل الاعتراض الذي سيقع تقديمه هو أنه لا يوجد في الأشياء كمال ولا نقص، بل يتوقف القول بكمال الأشياء أو نقصها، ويحسنها أو قبحها، على إرادة الله فقط؛ وبالتالي، لو كانت إرادة الله أن يكون الكامل ناقصاً جداً، والعكس بالعكس، لفعل. ولكن، أليس في ذلك

إثبات صريح بأن الله، الذي يدرك بالضرورة ما يريد، يستطيع بإرادته أن يدرك الأشياء إدراكاً آخر غير إدراكه لها؟ إن هذا (كما بينت) خلف كبير، لذلك يمكن أن نجعل البرهان الذي يعارضوننا به يتقلب ضدّهم، كما يلي: إن جميع الأشياء خاضعة لقدرة الله؛ وكما يتسنى لهذه الأشياء أن تكون على غير ما هي عليه، فإنّه لا مندوحة عن أن تكون إرادة الله أيضاً غير ما هي عليه. إلاّ أنّه لا يمكن لإرادة الله أن تكون غير ما هي عليه (مثلاً بيننا ذلك بكامل البدهة انطلاقاً من كمال الله). إذن لا يمكن للأشياء أن تكون على غير ما هي عليه.

إنّي لا أنكر أن هذا الرأي، الذي يخضع جميع الأشياء إلى إرادة إلهية يستوي عندها كلّ شيء، ويتصرف حسب هواها، يتعد عن الحقيقة أقلّ من الرأي الذي يسلّم بأن الله يتصرف دائماً مع مراعاة للخير. إذ يبدو أن أصحاب الرأي الأخير يضعون خارج الله شيئاً مستقلاً عنه، ويرون أن الله يتصرف بالنظر إلى هذا الشيء كتمودج أو يسعى إليه كغاية محدّدة. معنى ذلك أن الله يخضع للغير، وهذا خلف لا يفرقه خلق، لأنّ الله، كما أثبتنا، هو العلّة الأولى، والعلّة الحرّة الوحيدة، لماهية جميع الأشياء ولوجودها على حدّ السواء. لذلك لا أجد مبرراً لإضاعة الوقت في دحض هذا الخلف.

القضية 34

قدرة الله عين ماهيته.

البرهان

ينتج عن وجوب ماهية الله وحدها أن الله علّة ذاته (القضية 11)

و(القضية 16 مع لازمتها) علّة جميع الأشياء. إذن فقدرة الله، التي بمقتضاها يوجد الله ذاته ويتصرّف وتوجد الأشياء وتتصرّف، هي عين ماهيته.

القضية 35

كلّ ما نتصوّر أنّه بقدرة الله، فهو حتماً موجود.

البرهان

كلّ ما هو بقدرة الله يجب أن يكون من ضمن ماهيته بحيث ينتج عنها بالضرورة. وهو بالتالي موجود حتماً.

القضية 36

لا شيء يوجد دون أن ينتج عن طبيعته معلول ما.

البرهان

كلّ ما يوجد إنّما يعبر، بطريقة معيّنة ومحدّدة، عن طبيعة الله، أي عن ماهيته (لازمة القضية 25)؛ وبعبارة أخرى (القضية 34) إنّ كلّ ما يوجد يعبر، بطريقة معيّنة ومحدّدة، عن قدرة الله التي هي علّة الأشياء جميعاً، وبالتالي (القضية 16) لا بدّ أن ينتج عنه معلول ما.

تذييل

فسرت من خلال ما تقدم طبيعة الله ومميزاته، وهي: أنه واجب الوجود، وأنه أحد، وأنه يوجد ويتصرف بضرورة طبيعته وحدها، وأنه العلة الحرة للأشياء جميعا، وبأي وجه هو كذلك؛ وأن جميع الأشياء موجودة فيه وتابعة له، بحيث لا يمكن لأي شيء أن يوجد ولا أن يتصور بدونيه، وأخيرا أن جميع الأشياء قد حددها الله مسبقا، ليس بإرادة حرة (ex libertate voluntatis)، كلاً أعني ليس وفق رغبته المطلقة، وإنما وفقا لطبيعته المطلقة، أي لقدرته للأمكنة.

ولقد حرصت، فضلا عن ذلك، وفي كل مناسبة، على استبعاد الأحكام المسبقة التي قد تحول دون إدراك استدلالتي. وبما أن العديد من الأحكام المسبقة ما فتئت تعوق الناس إلى أقصى حد عن إدراك ترابط الأشياء بالطريقة التي نكرت، فلقد رأيت من المفيد أن أفحص هذه الأحكام على ضوء العقل. إن جميع الأحكام التي اتعهد بالإشارة إليها هنا متأتية عن حكم مسبق واحد، وهو أن الناس يفترضون عموما أن جميع الأشياء الطبيعية تتصرف مثلهم من أجل غاية، بل إنهم على يقين من أن الله نفسه يوجه كل شيء نحو غاية معينة. فعلا إنهم يقولون بأن الله قد سخر كل شيء للإنسان، وأنه خلق الإنسان ليعبده. سأنظر إذن، يادئ ذي بدء، في هذا الحكم المسبق فحسب، وسأبحث أولا عن سبب تشبث الناس به وعمّا يجعلهم يميلون جميعا، وبصورة طبيعية، إلى تبنيه. وفي مرحلة ثانية سأبين خطأ هذا الحكم، كما سأبين في النهاية كيف تتولد عنه الأحكام المسبقة المتعلقة بالخير والشر، بالإستحقاق والخطيئة، بالثناء والتوبيخ، بالنظام والفوضى، بالجمال والقبح، وبأشياء أخرى من نفس القبيل. بيد أنه لم يحن الأوان لاستقياط ذلك من طبيعة النفس البشرية. فلنقتصر الآن على وضع مبدأ يعلمه الجميع، وهو أن الناس جميعا يولون وهم يجهلون علل

الاشياء، وأنهم يرغبون في البحث عما يكون مفيدا لهم، وأنهم على وعي بذلك.
ويتلو:

(1) أن الناس يعتقدون أنفسهم أحرارا نظرا إلى وعيهم بأفعالهم الإلزامية
وبرغابتهم، إلا أنهم لا يفكرون، ولو في الحلم، في الأسباب التي تجعلهم
يرغبون ويريدون، إذ هم يجهلون هذه الأسباب. ويتلو:

(2) - أن الناس يتصرفون دائما لفائدة معينة، وهي الشيء النافع الذي
يرغبون فيه؛ وفناء على ذلك إن مسعاهم الوحيد هو معرفة الغلل النهائية
للأشياء التي تم إنجازها، فيهدون عندما يتحصلون على معلومات عنها، إذ لم
يبق لهم أي داع للقلق. وإذا ما تعذر عليهم معرفة هذه الأسباب من شخص
آخر، فإن مسعاهم الأخير سيكون الرجوع إلى نواتهم والتأمل في الغايات
التي تدفعهم عادة إلى القيام بمثل هذه الأعمال، وبالتالي فإنهم سيحكمون
بالضرورة على طبع غيرهم بالنظر إلى طبعهم الخاص. وبما أنهم يجلسون،
فضلا عن ذلك، في نواتهم وخارج نواتهم، عددا كبيرا من الوسائل التي
تساعدهم كثيرا على الفوز بما ينفعهم، من ذلك مثلا أن لهم أعينا للإبصار
وأسنانا للمضغ وأعشابا وحيوانات للتغذي بها وشمس يستضيئون بها وبحرا
لتغذية الأسماك، إلخ، فإنهم قد اعتبروا كل الأشياء الموجودة في الطبيعة
وسائل في خدمتهم. وبما أنهم يعلمون، من جهة أخرى، أن هذه الوسائل التي
ليست من صنعهم الخاص بل هم عثروا عليها عثورا، فإنهم رأوا في ذلك باعنا
للاعتقاد في وجود شخص قد مدّهم بها كي يسخّروها لأنفسهم. وإنهم لم
يستطيعوا حقا، بعد أن اعتبروا الأشياء وسائل في خدمتهم، الاعتقاد بأن هذه
الأشياء قد صنعت نفسها بنفسها، بل استنتجوا بالنظر إلى الوسائل التي
تمروا بتغييرها لأنفسهم، أنه يوجد مدير أو مديرون كثيرون للطبيعة يتمتعون
بحرية بشرية، وأن هؤلاء المديرين قد سخّروا كل ما عليها لخدمة الإنسان وسدّ
حاجاته. ونظروا إلى كونهم لم يحصلوا أبدا على ما يعرفهم بطبع هذه
الكائنات، فإنهم قد حكموا عليها أيضا بالمقارنة مع طبعهم الخاص وأقروا بأن

الآلهة تسخر جميع الأشياء لصالح الادميين كي يتعلقوا بها وتتال منهم أعظم تمجيد، وبالتالي فلقد سهر كل واحد، حسب طبعه الخاص، على ابتكار طرق مختلفة لعبادة الله واستعطافه أكثر من غيره، كي يسخر الله الطبيعة كلها لخدمة رغبته العمياء وجشعه اللامحدود، وبهذه الصورة استحال هذا الحكم المسبق إلى معتقد باطل تجذر في أعماق النفوس، مما جعل الناس جميعا يبدلون قصارى جهدهم لمعرفة العلل الغائية لجميع الأشياء وتفسيرها. يبدو أنهم لما كانوا يحاولون إثبات أن الطبيعة لا تتصرف عينا (أي أنها لا تتصرف تصرفا لا يخدم الإنسان)، فهم لم يثبتوا شيئا آخر، على ما يبدو، غير أن الطبيعة والآلهة مصابة بنفس هذيان الادميين. انظروا، أرجوكم، إلى ما أفضت إليه الأمور! فمن بين عديد المنافع التي تقدمها الطبيعة إنهم لم يجدوا بدءا من العثور على عدد كبير من المساوي، مثل الزوابع والرجات الأرضية والأمراض الفخ، وأقروا بأن هذه الأحداث إنما تعبر عن غضب الله الذي أغاظته ذنوب الادميين أو ما اقترهوه من خطايا في عبادتهم له. ورغم أن التجربة تكذب يوميا هذا الاعتقاد، مبيّنة بالاعتماد على أمثلة لا تحصى، أن الحسنات والسينات تصيب الاتقياء والزنادقة دونما تمييز، فهم لم يتخلوا مع ذلك عن هذا الحكم المسبق المتأصل فيهم؛ بل إنهم قد استسهلوا اعتبار هذه الظاهرة من جملة الأمور المجهولة التي لا يعلمون فيما تستخدم، وفضلوا البقاء فيما هم عليه من جهل قلمي، على هدم كامل هذا البناء وابتكار بناء جديد. وعلى ذلك فهم قد سلموا عن يقين بأن أحكام الله تتجاوز بكثير الفهم الإنساني؛ ولا شك أن هذا السبب وحده كان كافيا كي يبقى الجنس البشري في جهل دائم للحقيقة، لولا الرياضيات التي تعنى، لا بالغايات، وإنما بماهيات الاشكال وخاصياتها، والتي أشعّت أمام الادميين معيارا آخر للحقيقة. وفضلا عن الرياضيات، توجد أسباب أخرى (لا فائدة في ذكرها هنا) جعلت الناس يقتبهن إلى هذه الأحكام المسبقة الشائعة ويقتلون على المعرفة الحقيقية للأشياء.

وهكذا نكون قد فسرت بما فيه الكفاية ما تعهدت به في مرحلة أولى. وإن
أحتاج إلى حُطْب طويلة كي أبين الآن أنه ليس للطبيعة أي غاية محدّدة مسبقاً
وإن جميع العلل الغائية لا تعمل أن تكون مجرد أوهام بشرية. واعتقد حقاً أنني
أثبت ذلك بما فيه الكفاية لما بينت عن أيّ مبادئ وعن أيّ علل يتولّد ذلك الحكم
المسبق، كما أثبت ذلك في القضية 16 وفي لازمتي القضية 32، وأيضاً من
خلال ما قلته للتدليل على أن كلّ ما في الطبيعة إنّما يحدث وفق ضرورة أزلية
وبغاية الكمال. ومع ذلك أضيف أن هذا المذهب الغائي يقبّل الطبيعة رأساً على
عقب، إذ أنه يعتبر معلولاً الشيء الذي يكون في الواقع علّة، والعكس بالعكس؛
ثمّ إنه يجعل السّابق بالطّبع لاحقاً؛ وهو أخيراً يجعل الرّفيع والكمال ناقصاً
جداً. لتتركّ جانباً النقطتين الأولىين (البديهيتين بذاتهما) وسيثبت عندنا من
خلال القضايا 21، 22، و 23 أن المعلول الأكثر كمالاً هو ذلك الذي ينتج عن الله
مباشرة، وأنّه كلّما احتاج شيء ما إلى عدد أكبر من العلل الوسيطة كان أكثر
نقصاً. ولكن إذا كانت الأشياء الناتجة عن الله مباشرة قد جعلت من أجل أن
يبلغ الله غايته، فالأشياء الأخيرة، التي جعلت من أجلها الأولى، إنّما هي
بالضرورة أفضلها جميعاً. ثمّ إنّ هذا المذهب يحطّ من كمال الله، إذ لو كان
الله يتصرّف من أجل غاية، لكان يرغب بالضرورة في شيء يفتقر إليه. وبالرغم
من التّمييز الذي يقيمه اللاهوتيون والميتافيزيقيون بين الغاية التي يُفتقر إليها
(finem indigentiae) والغاية التي يقع تمثيلها (finem assimilationis)، إلّا
أنّهم يتفقون على أن الله قد جعل كلّ شيء من أجل نفسه، لا من أجل الأشياء
المزعم خلقها. ذلك أنّه لا يمكنهم الإقرار بوجود شيء محبّد لأفعال الله، قبل
الخلق. عدا الله، وعلى ذلك فإنّه لا بدّ لهم من التسليم أيضاً بأنّ الله قد كان
فاقدًا لجميع الأشياء التي كان يريد تدبير السبيل إليها والتي كان يرغب فيها،
كما هو واضح بذاته.

وإن يغيب عنا هنا أن أتباع هذا المذهب، الذين أرابوا عرض مهارتهم
بتعيين غايات للأشياء، قد أعموا نوعاً جديداً من الاستدلال للمدافعة عن

مذهبهم: وهو الرد لا إلى المستحيل وإنما إلى الجهل؛ مما يبين أنه لم يكن لديهم قط طريقة أخرى للبرهنة على مذهبهم. فلو سقط مثلاً حجرٌ من السقف على رأس إنسان وأرداه قتيلاً، فأتهم سييرهنون على أن الحجر قد سقط ليقتل هذا الإنسان، إذ أتى لظروف يمثل هذه الكثرة (وهي في الغالب ظروف متفقة كثيرة) أن تتجمع اتفاقاً إن لم يكن الحجر قد سقط لذلك الفرض بمشيئة إلهية. لعل جوابكم سيكون: لقد حدث ذلك لأن الريح كانت تعصف ولأن الإنسان كان ماراً من هناك، ولكنهم سيصرون قائلين: لماذا كانت الريح تعصف في تلك اللحظة بالذات ولماذا كان هذا الإنسان ماراً من ذلك المكان في تلك الآونة بالذات؟ فإذا أجبتهم: لقد هبَّت الريح لأن البحر، بعدما كان الطقس جميلاً، أخذ يوم أمس في الهيجان، وأما الإنسان فلقد استدعى من قبل صديق، فأتهم سيلحون من جديد، لأنهم لا ينفكون يطرحون الأسئلة: لماذا كان البحر هائجاً ولماذا استدعى ذلك الإنسان في ذلك الموعد بالذات؟ وسيواصلون استجوابكم على هذا التوال عن علل الأحداث إلى أن تلجأوا إلى مشيئة الله، وهي مأوى الجهل. كما أنه قد يصيبهم زهول غيبي عند معاينتهم لبنية جسم الإنسان ولتنظيمه الرائع الذي يجهلون أسبابه، فيستنتجون أنه لم يتكوّن بصورة آلية وإنما بواسطة فن إلهي أو فائق للطبيعة، بحيث لا يضر أي جزء منه بالآخر. وهكذا فقد يحدث لمن يبحث عن العلل الحقيقية للخوارق ويدأب كرجل علم على استقصاء الموجودات الطبيعية عوض الاندهاش الأحقق بآثارها، أن يُنعت بالكفر والزندقة وأن يُرمى بهذه التهمة من قبل أولئك الذين تقدّسهم العامة كمفسرين للطبيعة والملائكة. هؤلاء يعلمون جيداً أن القضاء على الجهل هو القضاء على الصورة الحمقاء، أي على الوسيلة الوحيدة التي تسمح لهم بالاستدلال والمحافظة على نفوذهم. لكن كفى حديثاً في هذا الموضوع، ولننتقل إلى النقطة الثالثة التي عزمنا على معالجتها.

فبعد أن أيقن الناس أن كل ما يحدث إنما يحدث من أجلهم، وأوا أن قيمة الأشياء متوقفة على مدى إقانتها لهم، وأن أكثر الأشياء تحقيقاً للمتعة أكثرها جودة. وهكذا فإنهم لم يتأخروا عن تكوين تلك المعاني التي يدعون أنها تساعد على تفسير طبائع الأشياء، وهي معاني الخير والشر، والنظام والفوضى، والمار والبارد، والجمال والقبح؛ ولقد تشقت، عن اعتبارهم لأنفسهم أحراراً، معان أخرى كالثناء والتوبيخ، والمخطيئة والاستحقاق؛ فسُفسر في مرحلة لاحقة هذه المعاني الأخيرة، وذلك فور بحثي في الطبيعة الإنسانية؛ أما الآن، سنُطرق بإيجاز إلى المعاني الأولى.

إن، لقد سمى الناس خيراً كل ما ساعد على اكتساب الصحة وعبادة الله، وشرّاً كل ما خالف ذلك، ولما كان الذين لا يملكون معرفة بطبيعة الأشياء لا يثقون عنها شيئاً، بل هم يتخيلونها فحسب ويظنون الخيال عقلاً، كانوا يجزمون بوجود نظام في الأشياء، جهلاً منهم بطبيعتها وبطبيعتهم الخاصة على حدّ السواء، وفعلاً، عندما تكون الأشياء مهيأة بطريقة تجعل إدراكها بالحواسّ يسهل تخيلها واستحضارها، فإننا نقول: إنها منظمة تنظيمًا مُحكمًا؛ ونقول في الحالة المخالفة إنها رديئة التنظيم أو في حالة فوضى، وبما أننا نستطيع الأشياء التي نتخيلها بسهولة أكثر من غيرها، فإن الناس يفضلون إذن النظام على الفوضى، كما لو كان النظام، إذا ما استثنينا علاقته بالخيال، شيئاً موجوداً في الطبيعة. وأنهم يقولون أيضاً إن الله قد خلق الأشياء كلها بنظام، وهم بهذه الصورة ونحوها يربطون إلى الله مخيلة؛ أو لربّما ما يزعمونه هو أن الله، حرصاً منه على مساعدة المخيلة الإنسانية، قد أعدّ الأشياء بطريقة تجعل تخيلها في غاية السهولة، ولعلّهم لن يقتنعوا بالاعتراض القائل بوجود عدد لا محدود من الأمور التي تتجاوز مخيلتنا، وعدد لا يحصى من الأشياء التي تحدث فيها الاختلاط نظراً إلى ضعفها، لكن كفى حديثاً في هذا الموضوع.

أما المعاني الأخرى، فهي لا تعدو أن تكون أيضا مجرد ضروب من الخيال
تطرق بصور مختلفة على المخيلة، إلا أن الجهلة يعتبرونها صفات رئيسيا
للأشياء، ذلك أنهم يعتقدون، كما سبق القول، أن الأشياء جميعا قد أحدثت من
أجلهم، وأن طبيعة شيء من الأشياء تكون حسنة أو قبيحة، سليمة أو عفتة
وفاسدة، حسب تأثيرهم بها. فمثلا إذا كانت الحركة التي تتلقاها الأعصاب من
الأشياء للحركة بواسطة العينين حركة مرافقة للصحة، فإننا نسمي هذه
الأشياء جميلة. بينما نسمي الأشياء المولدة لعكس تلك الحركة قبيحة.
ونسمي الأشياء التي تحرك الإحساس عن طريق الأنف عطرة أو قننة؛ وحلوة
أو مرّة، طيبة المذاق أو لا طعم لها، تلك التي تحركه عن طريق اللسان؛ كما
نسمي حلبة أو ليخة، خشنة أو صفيحة تلك التي تحركه عن طريق اللمس، إلخ.
وأخيرا، نقول عن الأشياء التي تثير الأذن إنها تحدث نوبا أو صوتا أو نغما؛
واقدر فقد الناس صوابهم لدرجة الاعتقاد بأن الله أيضا يجد متعة في النغم؛
بل يعتقد عدد من الفلاسفة أن الحركات السماوية تكون تناغما. ويبين كل ذلك
بما فيه الكفاية أن كل امرئ يحكم على الأشياء وفق ما لديه من استعداد
عقلي، أو بالأحرى أنه يحل محل هذه الأشياء ضروب خياله، فلا غرو إذن
(لنكتف بالإشارة إلى ذلك) أن تنشأ بين الناس مجادلات بحل هذه الكثرة وأن
يؤول بهم الأمر إلى النزعة الشككية، إذ لئن كانت الأجسام البشرية يتفق
بعضها مع بعض في العديد من النقاط، فهي مع ذلك تختلف في العديد من
النقاط الأخرى؛ وبالتالي إن ما يبدو خيرا لبعضهم يبدو شرا للبعض الآخر؛
وما يكون منظما في اعتقاد بعضهم يكون مشوشا عند البعض الآخر؛ وما
يرى بعضهم يتقوّن منه البعض الآخر، وهكذا دواليك. وإن اتوسع في ذلك لأن
المجال لم يفتح بعد لمعالجة هذه المسائل بإسهاب، ولأن الجميع قد اختبروها
بما فيه الكفاية، فعلا، يريد الجميع قائلين: بقدر تعدد العقول تتعدد الآراء؛
وكل واحد لا يرى غير رأيه؛ وليس الفرق بين العقول أقل من الفرق بين
الأنواق. وتبين هذه الأمثال السائرة أن الناس يحكمون على الأشياء وفق

استعدادهم العقلي، وأنهم يتخيلونها أكثر مما يعرفونها. إذ لو كانوا يدركون الأشياء بوضوح، لكانت هذه الأشياء قادرة، كما تشهد بذلك الرياضيات، على إقناع الناس جميعاً، إن لم أقل على استهوانهم.

يتضح لنا إذن أن جميع المفاهيم التي تعوّبت العامة على استعمالها في تفسير الطبيعة هي مجرد ضروب من الخيال. وأنها لا تطلعنا على طبيعة أي شيء ما عدا على بنية المخيلة؛ وما دامت لهذه المفاهيم أسماء تنطبق، حسب ما بينو، على موجودات حالة خارج المخيلة، فإنني أسمىها موجودات خيالية، لا عقلية. وبالتالي فإن كل البراهين التي تستخدم ضدنا انطلاقاً من مثل هذه المفاهيم يمكن تفنيدها بسهولة. وفعلًا، لقد تعود العديد من الناس على الاستدلال كما يلي: لو كانت جميع الأشياء ناتجة عن وجوب طبيعة إله في غاية الكمال، فمن أين أتت إذن كل العيوب الموجودة في الطبيعة؟ أي ما الذي يجعل الأشياء تفسد لدرجة التعفن، وما الذي يجعلها قبيحة لدرجة التقزّز، وعمّا يتولّد الشرّ والفوضى، إلخ. إنه من السهل، كما قلت، أن نجيب على ذلك. إذ لا يكون تقدير ما للأشياء من كمال إلا بالنظر إلى طبيعتها وقدرتها، بمعنى أن هذه الأشياء لا تكون أكثر أو أقل كمالاً لكونها تروق للحراس أو تتقرّها، أو لكونها تلائم الطبيعة البشرية أو تقزّها. أمّا أولئك الذين يتساءلون لماذا لم يخلق الله جميع الناس خلقاً يكون فيه العقل مرشدهم ورائدهم الوحيد، فإنني أجيبهم ببساطة: إن ما يفسر ذلك هو أن الله لم تعوزه المادة كي يخلق جميع الأشياء، بدءاً بأعلامها درجة من الكمال ووصولاً إلى أبنائها درجة؛ بل يعود ذلك، إذا تحسّنا بكثير دقّة، إلى أن قواطين الطبيعة قد كانت من الوفرة يمكن، بحيث كانت تكفي لإنتاج كل ما يمكن أن يتصوره عقل لا محدود، كما أثبت ذلك من خلال القضية 16.

تلك هي الأحكام المسبقة التي أردت الإشارة إليها هنا. وإذا ما بقيت أحكام أخرى من نفس القبيل، فإنه يوسع كل واحد أن يتخلّص منها بقليل من التفكير.

الجزء الثاني

في طبيعة النفس وأصلها

ننتقل الآن إلى تفسير الأشياء الناتجة بالضرورة عن ماهية الله أي عن الكائن الأزلي الأمتناهي. لكنني لن أحدثها جميعاً، لأنني بيّنت، في القضية 16 من الجزء الأول، أنه ينتج عن هذه الماهية عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الأوجه؛ وسأقتصر على تفسير الأمر الذي يمكن أن تكوننا بخطى ثابتة إلى معرفة النفس البشرية وسعادتها القصوى.

تساؤلات

I - أعني بالجسم حالا (modum) يميز، بوجه معين ومحدد، عن ماهية الله من جهة اعتبارها شيئاً معقداً؛ راجع لازمة القضية 25 من الجزء الأول.

II - أقول إن ما ينتمي إلى ماهية شيء من الأشياء هو ذلك الذي، إن وجد، وجد الشيء، وإن بطل، بطل الشيء؛ أو أيضاً ذلك الذي لا يمكن للشيء أن

يوجد بدونهُ ولا أن يُتصوّر، والعكس بالعكس، أي ذلك الذي لا يمكنه أن يوجد بدون الشيء ولا أن يُتصوّر.

III - أعني بالفكرة تصوّرًا (conceptum) عنده النفس بوصفها شيئاً مفكراً.

شـــــــرح

أفضل كلمة تصوّر على كلمة إدراك لأن كلمة إدراك قد تفيد أن النفس تكون متفعلة إذا، موضوع ما، بينما تعبر كلمة تصوّر عن فعل نفسي.

IV - أعني بالفكرة التامة (ideam adaequatam) الفكرة التي، إذا ما اعتبرت في ذاتها ويقطع النظر عن موضوع ما، تملك كل الخصائص أو كل العلامات الباطنية المميّزة للفكرة الصحيحة.

شـــــــرح

أقول الباطنية استبعاداً للعلامة الخارجية، أي للتطابق بين الفكرة والموضوع الذي تمثله.

V - الديمومة (Duratio) هي الاستمرار اللامحدود للوجود.

شـــــــرح

أقول لا محدود لأن لا يمكن تحديدها ابتداءً بطبيعة الشيء الموجود ذاته، ولا بملكها الفاعلة التي تضع بالضرورة وجود الشيء ولا تُبطله.

VI - أعني بالواقع والكمال نفس الشيء.

VII - أعني بالأشياء الجزئية (res singulares) الأشياء المتناهية التي تملك وجوداً محدداً ؛ وإذا ما أسهم أفراد كثيرون في عملية واحدة بحيث يكون جميعهم معا علة لمعلول واحد، فإنني أعتبرهم من هذا المنظور شيئاً جزئياً واحداً.

بديهيّات

I - لا تتطوي ماهية الإنسان على الوجود الضروري، أي أنه يجوز، وفق نظام الطبيعة، أن يوجد هذا الإنسان أو ذاك أو أن لا يوجد.
II - الإنسان يفكر.

III - لا توجد أنماط تفكير كالحب والرغبة أو كل ما يمكن تسميته بانفعالات النفس إلا إذا وجدت لدى الشخص ميتة فكرة ممثلة لموضوع الحب أو الرغبة إلخ. لكن يمكن أن توجد الفكرة دون أن يوجد أي نمط آخر من التفكير.

IV - إننا نحس بأن الجسم يتأثر بطرق عديدة.

V - إننا لا نحس ولا ندرك من بين الأشياء الجزئية غير أجسام وأنماط فكرية.

انظر المصادر التابعة للقضية 13.

القضية 1

الفكر صفة من صفات الله، وبعبارة أخرى إن الله شيء مفكر (res cogitans).

البرهان

الأفكار الجزئية، أعني هذه الفكرة أو تلك، أحوالٌ تعبّر عن طبيعة الله بطريقة معيّنة ومحدّدة (لازمة القضية 25، الجزء الأول). وعلى ذلك يملك الله (التعريف 5، الجزء الأول) صفة تنطوي جميع أفكارها الجزئية على مفاهيمها، كما تسمح هذه الصفة أيضا بتصوّر هذه الأفكار. فالفكر إذن صفة من صفات الله اللامتناهية، وتعبّر هذه الصفة عن ماهية الله الأزليّة واللامتناهية (التعريف 6، الجزء الأول)، وبعبارة أخرى إنّ الله شيء مفكّر.

مباشرة

هذه القضية بديهية أيضا من جهة كوننا نستطيع تصوّر كائن مفكّر لا متناه، إذ كلّما كان كائن مفكّر يستطيع التفكير في أشياء أكثر فأكثر تقتصره متضمنًا لواقع أو كمال أكثر. وبناء على ذلك فإنّ الكائن الذي يستطيع التفكير في عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الطرق هو حتما كائن لا متناه بفضل التفكير. وما دمنا نتصوّر، بالنظر إلى الفكر فمفسب، وجود كائن لا متناه، فالفكر هو بالضرورة (التعريفان 4 و 6، الجزء الأول) إحدى صفات الله اللامتناهية، كما أرينا ذلك.

القضية 2

الامتداد صفة من صفات الله، وبعبارة أخرى إنّ الله شيء ممتدّ
(*res extensa*).

البرهان

للبهنة على هذه القضية، نتوخى نفس الطريقة التي توخيناها في البرهان السابق.

القضية 3

توجد في الله فكرة كل من ماهيته وجميع ما ينتج بالضرورة عن ماهيته.

البرهان

فعلاء إن الله (القضية 1)* يستطيع تصور عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الطرق، أو (الأمران سيان حسب القضية 16 من الجزء الأول) تكوين فكرة ماهيته وفكرة كل ما ينتج منها بالضرورة، وبما أن كل ما يكون بقدره الله فهو حتماً موجود (القضية 35، الجزء الأول) فإن هذه الفكرة موجودة بالضرورة، ولا يمكنها (القضية 15، الجزء الأول) أن توجد في غير الله.

* إننا لا ننكر، في الإحالات، الجزء الذي توجد فيه القضية التي يرجع إليها سبيلوزا، كلما كانت هذه القضية والقضية التي يبرهن عليها توجدان في نفس الجزء من الكتاب.

حاشيية

إنَّ ما تقصده العامة بالقدرة الإلهية هو إرادة الله الحرة وحقُّ الله على جميع الموجودات؛ ولهذا السبب تعتبر هذه الموجودات عموماً ممكنة ؛ إذ الله، كما يقال، قادر على تحطيم كلِّ شيء وإبادة كلِّ شيء، ثمَّ إنَّه غالباً ما يقع تشبيه قدرة الله بقدرة الملك؛ إلا أنَّه قد سبق أن نفينا ذلك في اللأزميتين 1 و 2 القضية 32 من الجزء الأول، كما أثبتنا في القضية 16 من نفس الجزء أنَّ الله يتصرَّف بنفس الضرورة التي تجعله يعقل ذاته؛ بمعنى أنَّه، كما يترتَّب على وجوب الطبيعة الإلهية (مثلاً يسلَّم بذلك الجميع) أنَّ الله يعقل ذاته، فإنَّه يترتَّب عليها أيضاً أنَّ الله ينجز عدداً لا محصوراً من الأعمال بعدد لا محصور من الصور. ولقد بيَّنا، فضلاً عن ذلك، في القضية 34 من الجزء الأول، أنَّ قدرة الله ليست غير ماهيته الفاعلة. وبالتالي فإنَّ تصوُّرنا إله غير فاعل لا يقلُّ امتناعاً عن تصوُّرنا إله غير موجود.

ثمَّ إنَّني أستطيع، لو كنت أرغب في مواصلة الاستدلال، أن أثبت هنا أنَّ هذه القدرة التي تنسبها العامة إلى الله ليست قدرة إنسانية محسب (وهو ما يبيِّن أنَّ العامة تتصوَّر الإله كإنسان أو على شاكلة إنسان). بل هي تنطوي أيضاً على العجز. إلا أنَّني لا أريد الرجوع دائماً إلى نفس الموضوع، وإنَّني ألجُّ فقط على القارئ كيما يتأمَّل جيداً فيما قيل في هذا الشأن في الجزء الأوَّل من القضية 16 إلى النهاية. إذ لن يستطيع أحد إدراك ما أريد قوله إن لم يحلر الخلط بين قدرة الله وقدرة الملوك الإنسانية أو حقهم.

القضية 4

لا يمكن لفكرة الله، التي ينتج عنها عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الصور، أن تكون إلا واحدة.

البرهان

لا يدرك العقل اللامتناهي (Intellectus infinitus) شيئا غير صفات الله وأعراضه (القضية 30، الجزء الأول).

ولكن الله أحد (unicus) (اللزمة الأولى للقضية 14، الجزء الأول)؛ إذن لفكرة الله، التي ينتج عنها عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الصور، لا يمكنها أن تكون إلا واحدة.

القضية 5

إنَّ علَّة الوجود الصُّوري للأفكار هي الله منظورا إليه فقط كشيء مفكر، لا كشيء يُفسَّر بصفة أخرى، بمعنى أنَّ العلَّة الفاعلة لأفكار كلِّ من صفات الله والأشياء الجزئية ليست الموضوعات التي تمتثلها هذه الأفكار أو، بعبارة أخرى، الأشياء المدركة، وإنما هي الله نفسه من حيث إنه شيء مفكر.

البرهان

إنَّ ذلك بديهى من خلال القضية 3، حيث أثبتنا بالفعل أنَّ الله يستطيع

تكوين فكرة ماهيته وكل ما ينتج عنها بالضرورة، ولقد استخلصنا ذلك انطلاقاً من كون الله شيئاً مفكراً، لا من كونه موضوعاً لفكرته الذاتية. لذلك فإنَّ علّة الوجود الصوري للأفكار هي الله، بما هو شيء مفكّر. لكن إليكم برهاناً آخر: إنَّ الوجود الصوري للأفكار حالٌّ من أحوال الفكر (كما هو معلوم بذاته)، أي (لازمة القضية 25، الجزء 1) أنّه حالٌ يعبّر بوجه معيّن عن طبيعة الله بما هو شيء مفكّر، وهكذا فهو (القضية 10، الجزء 1) لا ينطوي على تصوّر أيّة صفة إلهية أخرى، كما أنّه، تبعاً لذلك (البديهية 4، الجزء 1) لا ينتج عن أيّة صفة أخرى غير الفكر: إذن فعلة الوجود الصوري للأفكار هي الله منظوراً إليه فقط كشيء مفكّر، إلخ.

القضية 6

علّة أحوال كلّ صفة من الصفات إنّما هي الله، منظوراً إليه فقط من جهة الصفة التي تنتمي إليها هذه الأحوال، لا من جهة صفة أخرى.

البرهان

فعلاً، تُترك كلّ صفة بذاتها وبغض الطرف عن بقية الصفات (القضية 10، الجزء 1). إذن تنطوي أحوال كلّ صفة على تصوّر صفتها، لا على تصوّر صفة أخرى؛ وبالتالي (البديهية 4، الجزء 1) فإنَّ علّة الأحوال هي الله منظوراً إليه فقط من جهة الصفة التي تنتمي إليها هذه الأحوال، لا من جهة صفة أخرى.

اللزمية

يترتب على ذلك أن الوجود الصوري للأشياء التي ليست أحوالا للفكر لا ينتج عن الطبيعة الإلهية لكونها تملك معرفة سابقة بالأشياء، بل تنتج الأشياء التي هي موضوعات للأفكار عن صفاتها الخاصة وتُستنبط منها بنفس الطريقة وبنفس الضرورة اللتين تنتج بهما الأفكار عن صفة الفكر.

الخصيصة 7

إنّ نظام الأفكار وترابطها هو عينه (*idem est*) نظام الأشياء وترابطها.

المبرهان

إنّ ذلك جليّ من خلال البديهية 4، من الجزء الأول؛ إذ تتوقف فكرة كلّ شيء معلول على معرفة العلة المتصيّبة فيها.

اللزمية

يتربّ على ذلك أن قدرة التفكير عند الله مساوية لقدرته الفعلية على الفعل، أي أن كلّ ما ينتج صوريا عن طبيعة الله اللاتهائية، ينتج أيضا موضوعيا في ذات الله عن فكرة الله، وفق نفس النظام والترابط.

مباشرة

قبل أن نواصل هنا، لا بد من تذكر ما سبق أن أثبتنا: وهو أن كل ما يمكن أن يدركه عقل لا محدود مكوناً لماهية الجوهر إنما ينتمي إلى جوهر أحد، وبالتالي فالجوهر المفكر والجوهر المتمد هما نفس الجوهر، يدرك تارة تحت صفة من الصفات وطوراً تحت صفة أخرى. كما أن الحال الذي ينتمي إلى الامتداد، وفكرة هذا الحال، هما أيضاً نفس الشيء المعبر عنه بطريقتين اثنتين: ويبدو أن بعض اليهود قد لمحوا ذلك بصورة ضبابية لما سألوا: *يَا نَ اللَّهِ وَعَقْلُ اللَّهِ وَالْأَشْيَاءُ الَّتِي يَعْقِلُهَا هَذَا الْعَقْلُ شَيْءٌ وَاحِدٌ هُوَ هُوَ (unum et idem est)*. فمثلاً الدائرة التي توجد في الطبيعة، وفكرة الدائرة الموجودة في الله، هما شيء واحد هو هو، يفسر بصفات مختلفة. وهكذا، سواء تصورنا الطبيعة من جهة صفة الإمتداد أو من جهة صفة التفكير أو من جهة أية صفة أخرى، فإننا سنجد نظاماً واحداً لا غير أو ترابطاً واحداً للأسباب لا غير، أي أننا سنجد نفس الأشياء الناتجة بعضها عن بعض. ولما قلت إن الله هو مثلاً علة فكرة الدائرة من جهة كونه شيئاً مفكراً فحسب، كما أنه علة الدائرة من جهة كونه شيئاً متمدناً فحسب، فإن ما حدثني على مثل هذا القول هو أنه لا يمكن إدراك الوجود الصوري لفكرة الدائرة إلا بواسطة نمط فكري آخر هو عبارة عن علة مباشرة له، كما لا يمكن إدراك هذا النمط الأخير إلا بواسطة نمط آخر، وهكذا نواصل بلا نهاية. من هذا المنطلق، وطالما اعتبرت الأشياء أنماطاً فكرية، فإنه لا بد من تفسير نظام الطبيعة كلها، أي ترابط الملل، بصفة الفكر وحدها؛ وإذا ما اعتبرت الأشياء أنماطاً للإمتداد، فإنه لا بد من تفسير نظام الطبيعة كلها بصفة الإمتداد وحدها؛ وكذا الشأن بالنسبة إلى بقية الصفات. وعلى ذلك فإن الله، من جهة كونه يتألف من عدد لا محدود من الصفات، هو حقاً علة الأشياء كما هي ذاتها. وإني لا أستطيع الآن تفسير ذلك بأكثر وضوح.

القضية 8

تقوم أفكار الأشياء الجزئية (أو الأحوال) المعدومة في فكرة الله
اللانهائية، بنفس الطريقة التي تقوم بها الماهيات الصورية للأشياء
الجزئية (أو الأحوال) في صفات الله.

البرهان

تقوم بداهة هذه القضية على القضية السابقة؛ لكن يمكن فهمها بأكثر
وضوح من خلال الحاشية السابقة.

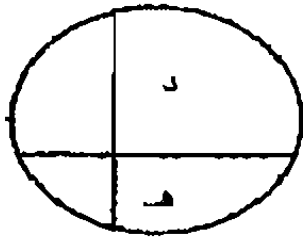
لازمة

يتربّب على ذلك أنّه طالما كانت الأشياء الجزئية لا توجد إلا ضمن صفات
الله، فإن وجودها الموضوعي، أعني وجود أفكارها، متوقّف على وجود فكرة
الله اللانهائية. وإذا كانت الأشياء الجزئية لا توجد ضمن صفات الله فحسب،
بل توجد أيضا في صيغة النّوام، فإن أفكارها تنطوي أيضا على وجود يسمح
بالقول إنّها تدوم.

حاشية

إذا كان بعضكم يرغب في مزيد التوضيح، فإنني لا أستطيع تقديم أيّ مثال
يفسّر بطريقة واقية الشيء الذي اتحدّث عنه هنا، لأنّه شيء فريد من نوعه.

يبدُ أنني سأحاول إثبات ذلك قدر الإمكان: فطبيعة الدائرة، كما هو معلوم، تسمح للقطع التي تكونها كل الخطوط المستقيمة المتقاطعة في نقطة واحدة بدخلها، يتكوين مستطيلات متكافئة؛ تحتوي الدائرة إذن على عدد لا محدود من القطع الزوجية المتساوية الحاصل؛ غير أنه لا يمكن القول إن إحدى هذه القطع الزوجية موجودة، إلا باعتبار أن الدائرة موجودة، كما أنه لا يمكن القول أيضا إن فكرة إحدى هذه الأزواج موجودة، إلا باعتبار أن هذه الفكرة موجودة ضمن فكرة الدائرة. لكن لننصّر الآن أنه لا يوجد من



بين هذا العدد اللامحدود من الأزواج سوى زوجين اثنين، هما د و هـ. لا شك إذن أن فكرتيهما توجدان، لا فحسب ضمن فكرة الدائرة، بل أيضا باعتبارهما تنطويان على وجود تلك الأزواج من القطع؛ وهذا ما يجعلها تتميز عن بقية أفكار الأزواج الأخرى.

القضية 9

إنَّ علةَ فكرة الشيء الجزئي الموجود بالفعل (*actu existens*) هي الله، لا من حيث هو لا متناه، وإنما باعتباره متأثرا بفكرة شيء جزئي آخر موجود بالفعل، وعلة هذه الفكرة هي الله أيضا من حيث تأثره بفكرة ثالثة، وهكذا نواليك إلى غير نهاية.

البرهان

إنَّ فكرة شيء جزئي موجود بالفعل هي نعط فكري جزئي، وهو متميز عن

بقية الانماط (اللزمة القضية 8 وحاشيتها)؛ وبالتالي فإنَّ علة هذه الفكرة هي الله من جهة كونه شيئاً مفكراً فحسب (القضية 6)؛ لكن ليس (القضية 28، الجزء 1) من جهة كونه شيئاً مفكراً على وجه الإطلاق، وإنما باعتباره متأثراً بنمط فكري آخر؛ كما أنَّ علة هذا الأخير هي الله أيضاً من جهة كونه متأثراً بنمط آخر، وهكذا دواليك إلى غير نهاية.

ولما كان نظام الأفكار وترابطها (القضية 7) هو ذاته نظام الأشياء وترابطها، فإنَّ علة فكرة شيء جزئي ما هي فكرة أخرى، أي أنَّها الله باعتباره متأثراً بفكرة أخرى، كما أنَّ علة هذه الفكرة الأخرى هي الله أيضاً من جهة كونه متأثراً بفكرة ثالثة، وهكذا دواليك إلى غير نهاية.

اللزمة

يوجد في الله عِلْمٌ بكلِّ ما يحدث في الموضوع الجزئي لفكرة من الأفكار، باعتباره فقط يملك فكرة هذا الموضوع.

البرهان

توجد في الله فكرة عن كلِّ ما يحدث في موضوع فكرة من الأفكار (القضية 3)، لا باعتبار أنَّ الله غير متناه، وإنما باعتباره متأثراً بفكرة أخرى لشئ جزئي (القضية السابقة)؛ لكنَّ (القضية 7) نظام الأفكار وترابطها هو عينه نظام الأشياء وترابطها، وعليه فإنَّه يوجد في الله عِلْمٌ بما يحدث في موضوع جزئي، باعتباره فقط يملك فكرة هذا الموضوع، إلخ.

القضية 10

لا ينتسب كيان الجوهر إلى ماهية الإنسان، وبعبارة أخرى ليس الجوهر ما يؤلف صورة الإنسان.

البرهان

فعلا، يخطوي كيان الجوهر على الوجود الضروري (القضية 7، الجزء 1). فلو كان إذن كيان الجوهر ينتمي إلى ماهية الإنسان، لكان وجود الجوهر يقتضي بالضرورة وجود الإنسان (التعريف 2)، وبالتالي لكان الإنسان موجودا بالضرورة، وهذا (البدئية 1) محال. إذن، إلخ.

حاشية

يُبرهن أيضا على هذه القضية بالاعتماد على القضية 5 من الجزء الأول، وهي أنه لا يوجد قطّ جوهران من طبيعة واحدة. وبما أنه يمكن أن يوجد الكثير من الناس، فإن ما يؤلف صورة الإنسان ليس قطّ كيان الجوهر. وقد تصبح هذه القضية أكثر وضوحا بالإضافة إلى الخصائص الأخرى للجوهر، ألا وهي أن الجوهر بطبيعته لا متناهٍ وثابت ولا يتجزأ، إلخ.

اللمحة

ينتج عن ذلك أن ماهية الإنسان تتألف من تحولات معينة لصفات الله؛ ذلك أن كيان الجوهر (القضية السابقة) لا ينتمي إلى ماهية الإنسان، فهذه الماهية

إذن (القضية 15، الجزء 1) هي شيء موجود في الله ولا يمكنها بدون الله أن توجد ولا أن تُتصور. وبعبارة أخرى (لازمة القضية 25، الجزء 1) إنها عرض أو حال (affectio, sive modus) يعبر عن طبيعة الله بطريقة معينة ومحددة.

حاشية

لا شك أنه ينبغي على الجميع التسليم بأنه لا يمكن لأي شيء أن يوجد وأن يُتصور بدون الله. ذلك أنهم يسلّمون جميعاً بأن الله هو العلة الوحيدة لجميع الأشياء، وأنه علة ماهيتها ووجودها على حدّ السواء؛ بمعنى أن الله ليس فحسب علة الأشياء من حيث الصيرورة، كما يقال، بل أيضاً من حيث الوجود. إلا أن بعضهم يقول: إن ما ينتمي إلى ماهية الشيء هو ما لا يمكن للشيء أن يوجد بغيره وأن يُتصور. وعليه فإما أنهم يعتقدون أن طبيعة الله تنتمي إلى ماهية الأشياء المخلوقة، وإما أنه يمكن للأشياء المخلوقة أن توجد وتُتصور بدون الله، أو أنهم لا يتفقون مع أنفسهم، وهو الأقرب إلى الظن، وسبب ذلك هو، في رأيي، أنهم لم يراعوا الترتيب المطلوب للتفلسف، وعرض أن يلتزموا باعتبار طبيعة الله قبل كلّ شيء، إذ هي متقدمة معرفياً وطبيعياً، فهم قد ظلّوها متأخرة في نظام المعرفة، كما ظلّوا أن الأشياء التي نسميها موضوعات للحواس هي سابقة على جميع الأشياء الأخرى. وهكذا، بينما كانوا يتأملون في الأشياء الطبيعية، فإنهم لم يفكروا قط في الطبيعة الإلهية، ولما شرعوا في اعتبار الطبيعة الإلهية، كفّوا عن التفكير في الأوهام الأولى التي بنوا عليها معرفة أشياء الطبيعة، مادامت لا تساعد على معرفة طبيعة الله؛ فلا عجب حينئذ إن وقعوا في التناقض، ولكنني لن أقف عند هذا الحد؛ إذ كنت أُنوي هنا فقط أن أقدم السبب الذي متعني من القول: "إن ما ينتمي إلى ماهية شيء ما هو ما لا يمكن لهذا الشيء أن يوجد بغيره وأن يُتصور".

فالسبب هو أنه لا يمكن للأشياء الجزئية أن توجد وتُتصور بدون الله، مع أن الله لا ينتمي إلى ماهيتها، لكن قلت: إن ما يؤلف بالضرورة ماهية شيء ما هو ذلك الذي يكفي وجوده لوجود الشيء ويكفي زواله لزوال الشيء؛ أو هو أيضا ذلك الذي لا يمكن للشيء أن يوجد بدونَه ولا أن يتصور، والعكس بالعكس، أي ذلك الذي لا يمكنه بدون الشيء أن يوجد ولا أن يتصور.

القضية 11

ليس ما يؤلف أولاً الكيان القعلي للنفس البشرية غير فكرة شيء جزئي (*rei singularis*) موجود بالفعل.

البشرهسان

تتألف ماهية الإنسان (لازمة القضية السابقة) من أحوال معينة لصفات الله، ألا وهي (البديهية 2) أحوال الفكر؛ ومن بين جميع هذه الأحوال (البديهية 3) الفكرة هي الأولى بطبيعتها؛ وعندما توجد هذه الفكرة، يقضي أن توجد الأحوال الأخرى (التي تسبقها الفكرة بطبيعتها) في الفرد ذاته (نفس البديهية)؛ إذن إن ما يؤلف كيان النفس البشرية هو أولاً فكرة، لكنها ليست فكرة شيء غير موجود، وإلا (لازمة القضية 8) ما أمكننا القول إن هذه الفكرة موجودة؛ فهي إذن فكرة شيء موجود بالفعل، لكنها ليست فكرة شيء لا متناه، لأنه لا بد للشيء اللامتناهي (القضيتان 21 و 22، الجزء 1) أن يوجد دائماً بالضرورة، إلا أن ذلك (البديهية 1) محال؛ إذن إن ما يؤلف أولاً الكيان القعلي للنفس البشرية هو فكرة شيء جزئي موجود بالفعل.

الأزمة

ينتج عن ذلك أن النفس البشرية جزء من عقل الله اللامتناهي؛ وبالتالي، عندما نقول إن النفس البشرية تدرك هذا الشيء أو ذاك، فإن ما نقصده هو أن الله لا يما هو لا نهائي، وإنما بوصفه يَمْلَأُ (explicatur) بطبيعة النفس البشرية، أو من حيث إنه مؤلف للنفس البشرية، يملك هذه الفكرة أو تلك. وعندما نقول إن الله له هذه الفكرة أو تلك، لا بما هو مكون لطبيعة النفس البشرية فحسب، بل أيضا من جهة كونه يملك، بالإضافة إلى هذه النفس وبالإشتراك معها، فكرة شيء آخر، فإننا نقول آنذاك إن النفس البشرية تدرك شيئا ما إدراكا جزئيا أو غير تام (ex parte, sive inadacquate)

حاشية

لا شك أن القراء ستصيبهم الحيرة هنا وستخامرهم العديد من الاعتراضات؛ لذلك أرجوهم أن يتقدموا معي بخطى بطيئة وأن يرجعوا الحكم إلى أن ينتهوا من قراءة كل ما كتبت.

القضية 12

كل ما يحدث في موضوع الفكرة المؤلفة للنفس البشرية لا بد أن تدركه هذه النفس؛ وبعبارة أخرى، إن فكرة هذا الشيء الذي يحدث موجودة بالضرورة في النفس؛ بمعنى أنه إذا كان موضوع الفكرة المؤلفة للنفس البشرية هو الجسم، فإنه لن يحدث شيء في هذا الجسم دون أن تدركه النفس.

البرهان

فعلا، يوجد في الله بالضرورة علمٌ بكلِّ ما يحدث في موضوع فكرة ما (لازمة القضية 9)، باعتبار أن الله يتأثر بفكرة هذا الموضوع، أي (القضية 11) باعتباره مؤلفاً لنفس شيء ما. إذن يوجد في الله علمٌ بكلِّ ما يحدث في موضوع الفكرة المؤلفة للنفس البشرية، باعتبار أن الله مؤلف لطبيعة هذه النفس، أي (لازمة القضية 11) أنه سيوجد بالضرورة في النفس علمٌ بهذا الشيء الذي يحدث، بمعنى أن النفس ستدركه.

حاشية

تصبح هذه القضية أكثر وضوحاً ويداها بالرجوع إلى حاشية القضية 7.

القضية 13

إن موضوع الفكرة المؤلفة للنفس البشرية هو الجسم، أي أنه حال - موجود بالفعل - من أحوال الامتداد، لا غير.

البرهان

فعلا، لو لم يكن الجسم موضوعاً للنفس البشرية، لما وجدت أفكارُ أعراضِ الجسم في الله (لازمة القضية 9) بوصفه مؤلفاً لأنفسنا، وإنما بوصفه مؤلفاً لنفس شيء آخر، أي (لازمة القضية 11) لما وجدت أفكارُ أعراضِ الجسم في أنفسنا؛ بيد أنه (الديهية 4) لدينا أفكارُ

أعراض الجسم؛ إذن فموضوع الفكرة المؤلفة للنفس البشرية هو الجسم بما هو موجود بالفعل (القضية 11). والآن، لو كان يوجد، بالإضافة إلى الجسم، موضوع آخر للنفس، لكان من الضروري، باعتبار (القضية 36، الجزء 1) أنه لا يوجد شيء دون أن ينتج عنه معلول، أن توجد في أنفسنا فكرة هذا المعلول (القضية السابقة)؛ إلا أنه (البيهيية 5) ليس لدينا أية فكرة من هذا القبيل؛ إذن فموضوع النفس هو الجسم الموجود، لا غير.

الاستمارة

يتوَّجَّب على ذلك أن الإنسان يتكوَّن من نفس وجسم، وأنَّ الجسم البشري موجود كما نحسَّ (sentimus) به.

ملاحظة

نقهم ممَّا تقدّم، لا فقط أنَّ النفس البشرية متَّحدة بالجسم، بل أيضًا ما ينبغي أن يُعنى باتِّحاد النفس والجسم. بيِّدُ أنَّه يتعلَّز علينا الحصول على فكرة تامة، أي متميِّزة (adæquate, sive distincte)، عن هذا الإتحاد إنَّ لم نعرف قبل ذلك طبيعة جسمنا، لأنَّ ما أثبتناه إلى حدِّ الآن هو في غاية العموم ويتعلَّق بكلِّ من الأسميين وغيرهم من الأفراد المالكين لنفسٍ ما، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة. وفعلاً، توجد فكرة كلِّ شيء في الله - الذي هو علَّة هذا الشيء - على غرار وجود فكرة جسم الإنسان. وبهذه الصورة ينطبق بالضرورة ما قلناه عن فكرة جسم الإنسان على فكرة أيِّ شيء من الأشياء، غير أنَّه لا يمكن أن ننكر أنَّ الأفكار يختلف بعضها عن بعض باختلاف الموضوعات ذاتها، وأنَّ بعضها يكون أسمى من

الأخر ويفوقه واقعية بقدر ما يكون موضوعه أسمى من موضوعه وأكثر منه واقعية، لذلك يقتضي منا تحديد ما يميز النفس البشرية عن بقية النفوس وما يجعلها تتفوق عليها أن نعرف طبيعة موضوعها، أي طبيعة جسم الإنسان، غير أنه يتعذر عليّ شرح ذلك في هذا المقام، كما أن ذلك ليس ضروريا لما أريد إثباته، بيد أنني أقول بصفة عامة إنه كلما كان بعض الأجسام قادرا، بالمقارنة مع الأجسام الأخرى، على الفعل والانفعال بطرق كثيرة معاً، كانت نفسه قادرة، بالمقارنة مع النفوس الأخرى، على إدراك أشياء كثيرة معاً. وكلما كانت أفعال بعض الأجسام تابعة له وحده وكانت الأجسام التي تساعد على الفعل أقلّ عدداً، كانت لنفسه قدرة أكثر على المعرفة المتميزة.

ومن هنا يمكننا معرفة سموّ نفس ما على بقية النفوس، وفهم ما يجعلنا لا نعرف جسمنا إلا بصورة مبهمّة جداً، وأشياء أخرى كثيرة ساستنظيمها فيما يلي بالاعتماد على ما تقدّم. ولهذا السبب رأيت أن ذلك يستحقّ المزيد من الشرح والبرهان؛ وهو ما يتطلب بالضرورة وضع بعض المقدمات حول طبيعة الأجسام.

بستديهيّة ١

تكون الأجسام إما في حركة وإما في سكون:

بستديهيّة 2

يتحرك كلّ جسم تارة بأكثر ببطء وطورا بأكثر سرعة.

مأخوذة 1

تتميز الأجسام بعضها عن بعض من حيث الحركة والسكون، والسرعة والبطء، لا من حيث الجوهر.

البرهان

أعتبر الجزء الأول من هذه المأخوذة معلوما بذاته. أما كون الأجسام لا يتميز بعضها عن بعض من حيث الجوهر، فإن ذلك ينبغي من خلال كل من القضيتين 5 و 8 من الجزء الأول، كما يكون ذلك أكثر وضوحا بالرجوع إلى ما قيل في حاشية القضية 15 من الجزء الأول.

مأخوذة 2

تتفق (convenient) كل الأجسام في بعض جوانبها.

البرهان

تتفق كل الأجسام أولا في كونها تنطوي على تصور صفة واحدة لا غير (التعريف 1)، ثم في كونها تتحرك تارة بتكثر بطء وطورا بأكثر سرعة، ويوجه عام في كونها تتحرك تارة وتسكن أطوارا.

مأخوذة 3

الجسم المتحرك أو الساكن إنما دفعه جسم آخر إلى الحركة أو

السكون، وهذا الجسم دفعه أيضا جسم آخر إلى الحركة أو السكون؛ وهذا الجسم دفعه بدوره جسم آخر، وهكذا دواليك بلا نهاية.

المسألة

الأجسام (التعريف 1) أشياء جزئية يتميز بعضها عن البعض (المأخوذة 1) من حيث الحركة والسكون؛ وبالتالي فكل شيء قد دفعه شيء جزئي آخر إلى الحركة أو السكون (القضية 28، الجزء 1)، أي (القضية 6) أنه قد دفعه جسم آخر هو (البديهية 1) في حالة حركة أو سكون. لكن هذا الجسم هو أيضا (لنفس السبب) في حالة حركة أو سكون لأن جسما آخر قد دفعه إلى الحركة أو السكون، وهذا الأخير (لنفس السبب) إنما دفعه بدوره جسم آخر، وهكذا دواليك إلى غير نهاية.

الاستدلال

ينتج عن ذلك أن الجسم الذي يكون في حالة حركة يبقى متحركا إلى أن يحتم عليه جسم آخر الوقوف، كما أن الجسم الذي يكون في حالة سكون يبقى ساكنا إلى أن يدفعه جسم آخر إلى الحركة؛ وهذا أيضا معلوم بذاته. فإذا افترضنا مثلا أن بعض الأجسام، مثلا الجسم أ، في حالة سكون، بغض الطرف عن بقية الأجسام المتحركة، فإنه لا يمكننا قول شيء عن الجسم أ عدا أنه ساكن، وإذا حدث فيما بعد للجسم أ أن يتحرك، فإن ذلك لن يتأتى عن حالة السكون التي هو عليها، إذ كل ما يمكن أن ينتج عن هذه الحالة هو أن يبقى الجسم أ في سكون، وعلى العكس، إذا افترضنا أن أ في حالة حركة فإنه لا يسعنا، كلما اعتبرنا أ بمفرده، إلا أن نثبت أنه متحرك، وإذا حدث فيما بعد أن أصبح أ في حالة سكون، فإن ذلك لا يتأتى عن حركته السابقة، إذ لا

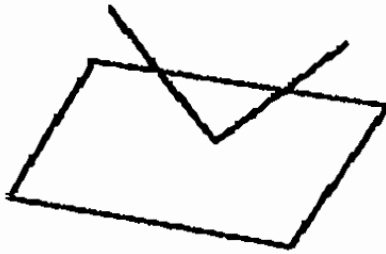
يمكن أن ينتج شيء عن هذه الحركة عدا بقاء الجسم أ في حالة حركة، وبناء على ذلك فإن ما يطرأ على الجسم أ ينتج عن شيء غير موجود في أ، أي عن علة خارجية تحتم على أ الوقوف.

بديهيّة 1

كلّ الأوجه التي يتأثر بها جسمٌ بآخر إنما هي تابعة في نفس الوقت لطبيعة الجسم المتأثر وطبيعة الجسم الذي يؤثر فيه؛ بحيث يكون نفس الجسم متحركاً بطرق مختلفة باختلاف الأجسام التي تحركه، وفي المقابل يحرك نفس الجسم أجساماً مختلفة بطرق مختلفة.

بديهيّة 2

عندما يصطدم جسم متحرك بجسم ساكن نون أن يقدر على تحريكه فهو ينعكس بطريقة تجعله يواصل حركته، وتساوي الزاوية التي يرسمها خطاً حركة الانعكاس مع سطح الجسم الساكن الممعدوم الزاوية التي يرسمها مع السطح ذاته خطاً حركة السقوط.



هذا بالنسبة إلى أبسط الأجسام، وهي الأجسام التي لا يتغير بعضها عن البعض إلا بالمركبة والسكون، وبالسرعة والبطء. فننتقل الآن إلى الأجسام المركبة.

تعميم

عندما تخضع بعض الأجسام من نفس الحجم أو من أحجام مختلفة إلى

صِفْط تسلطه عليها أجسام أخرى بحيث تبقى متلاصقة، أو إذا كانت الأجسام تتحرك بدرجة واحدة من السرعة أو بدرجات مختلفة بحيث يجعلها الضفْط السلْط عليها تنقل حركتها بعضها إلى بعض وفق علاقة معينة، فإننا نقول إن هذه الأجسام متحدة بعضها ببعض وإنها تؤلف معاً جسماً واحداً، أي فرداً يتميز عن بقية الأفراد بواسطة وحدة الجسم هذه.

بستيفيسية 3

بقدر ما تكون المساحات التي تسمح لأجزاء فردٍ ما - أي لأجزاء جسم مركّب ما - بانطباق بعضها على بعض مساحات كبيرة أو صغيرة، يكون من الصّعب أو السّهل إرغامها على تبديل وضعها، ويكون بالتّالي من الصّعب أو السّهل على الفرد أن يتخذ شكلاً آخر، وبناء على ذلك سئسمي الأجسام التي تنطبق أجزاءها بعضها على بعض وفق مساحات كبيرة أجساماً صلبة، والأجسام التي تنطبق أجزاءها بعضها على بعض وفق مساحات صغيرة أجساماً ليّنة، والأجسام التي تتحرك أجزاؤها بعضها بين بعض أجساماً سائلة.

مساخوذة 4

إذا افترضنا أنّ أجساماً معينة تنفصل عن جسم، أي عن فرد، يتألف من العديد من الأجسام، وأنّ أجساماً أخرى من نفس الطبيعة ونفس العدد تحلّ محلّها في نفس الوقت، فإنّ الفرد سيحافظ على طبيعته التي كان عليها سابقاً، دون أن يطرأ على صورته أيّ تغيير.

البرهان

فعلا، لا تتميَّز الأجسام بعضها عن البعض من حيث الجوهر (المأخوذة ١)،
وأما ما يؤلَّف صورة الفرد فهو (القضية السابقة) وحدة الجسم؛
وبالرغم من التغيَّرات الطارئة على الجسم فإنَّ هذه الصورة
(حسب الافتراض) باقية؛ فالفرد سيحافظ إذن على طبيعته
التي كان عليها سابقا، وذلك من حيث الجوهر ومن حيث الحال على حدِّ
السواء.

مأخوذة ٥

إذا أصبحت الأجزاء التي يتركَب منها الفرد أكبر أو أصغر حجما،
ولكن بمقدار يجعلها تحافظ كلّها فيما بينها على نفس النسبة السابقة من
الحركة والسكون، فإنَّ الفرد سيحافظ على طبيعته السابقة دون أن يحدث أيّ
تغيير في الصورة.

البرهان

البرهان هو نفسه الذي استُعمل في المأخوذة السابقة.

مأخوذة ٦

إذا أُرغمت بعض الأجسام التي يتركَب منها الفرد على تغيير
حركتها من اتِّجاه إلى آخر، ولكن بطريقة تجعلها قادرة

على مواصلة حركاتها وعلى تناقلها بنفس النسبة السابقة،
فإن الفرد سيحافظ أيضا على طبيعته دون أي تغير في الصورة.

البرهان

إن ذلك بديهي بذاته، لأن المفروض هو أن الفرد يحافظ على كل ما قلناه
في تعريفه، إنه مؤلف لصورة.

ملاحظة 7

يحافظ أيضا الفرد المركب بهذه الصورة على طبيعته، سواء تحرك
بتكمله أو بقي في حالة سكون، وسواء تحرك في هذا الاتجاه أو ذاك،
شريطة أن يحافظ كل جزء على حركته وأن ينتقلها إلى الأجزاء الأخرى كما
كان يفعل.

البرهان

إن ذلك بديهي من خلال تعريف الفرد، راجع ما قبل الملاحظة 4.

حاشية

نتبين إذن من خلال ما تقدم في أية حالة يمكن لفرد مركب أن
يتأثر بطرق كثيرة وأن يحافظ مع ذلك على طبيعته. ولقد تصورنا إلى حد
الآن فردا يتركب من أبسط الأجسام المتميزة بعضها عن

البعض بالحركة والسكون، والسرعة والبطء، وإذا ما تصوّرنا الآن فرداً آخر يتركّب من أفراد كثيرين تختلف طبيعته بعضهم عن بعض، فإنّنا سنجدّه قادراً على التأثير بطرق أخرى كثيرة مع المحافظة على طبيعته. إذ لما كان كلّ جزء يتركّب من أجسام كثيرة فهو يستطيع (المأخوذة السابقة)، دون أن تتغيّر طبيعته، أن يتحرّك تارة بالكثير ببطء وطوراً بالكثير سرعة، وبالتالي أن ينقل حركاته إلى الأجزاء الأخرى تارة بالكثير ببطء وطوراً بالكثير سرعة.

وإذا تصوّرنا، علاوة على ذلك، نوعاً ثالثاً من الأفراد يتركّب من الأفراد الثانيين، فإنّنا سنجدّه قادراً على التأثير بطرق أخرى كثيرة دون أن تتغيّر صورته. وإذا ما واصلنا على هذا الدّرب بلا نهاية فإنّنا سنتصوّر الطبيعة كلّها فرداً واحداً تتنوّع أجزاؤه، أي جميع الأجسام، بطرق لا تُحصى ودون أدنى تغيير للفرد الكلّي، فلو كانت غاييتي الحديث في موضوع الجسم بالذات لأطنيت في شرح ذلك وإثباته؛ لكنني قلت آنفاً إنّ غاييتي ليست هذه، وأنّني فتحت هذا الموضوع كي يتيسّر لي استنباط ما قرّرت إثباته. لا غير.

مصادرات

- I - يتألّف الجسم البشري من عدد كبير جداً من الأفراد (نوي طبائع مختلفة)، وكلّ واحد من هؤلاء الأفراد إنّما هو شديد التركيب (Valde compositum) بطوره.
- II - من بين الأفراد الذين يتألّف منهم الجسم البشري، بعضهم سائل، وبعضهم لين، وآخرها بعضهم صلب.
- III - يتأثّر الأفراد الذين يؤلّفون الجسم البشري، وبالتالي يتأثّر الجسم البشري نفسه، بالأجسام الخارجية بعدد كبير جداً من الأوجه.

- IV - يحتاج الجسم البشري، المحافظة على كيانه، إلى عدد كبير جداً من الأجسام الأخرى التي تجلده باستمرار.
- V - إذا وقع جسم خارجي جزءاً سائلاً من الجسم البشري إلى الاصطدام باستمرار بجزء لينة، فإن الجزء السائل سيغير سطح الجزء اللين وسيطبع فيه، إن صح التعبير، بعض آثار الجسم الخارجي الذي يدفعه.
- VI - يستطيع الجسم البشري تحريك الأجسام الخارجية وتهيتها (disponere) بلوحي كثيرة جداً.

القضية 14

النفس البشرية قادرة على إدراك عدد كبير جداً من الأشياء، ولا سيما إذا كان جسمها قادراً على التهيق بعدد أكبر من الأوجه.

البرهان

فعلاً، يتأثر الجسم البشري (المصدرتان 3 و 6) بالأجسام الخارجية بطرق كثيرة جداً، كما أنه على هيئة تجعله يؤثر في الأجسام الخارجية بطرق كثيرة جداً. لكن النفس البشرية (القضية 12) تدرك لا محالة كل ما يحدث في الجسم البشري؛ فالنفس قادرة إذن على إدراك عدد كبير جداً من الأشياء، ولا سيما، إلخ.

القضية 15

ليست الفكرة المؤلفة للكيان المصوري للنفس البشرية بسيطة، بل هي مركبة من عدد كبير جداً من الأفكار.

البرهان

الفكرة المؤلفة للكيان الصوري للنفس البشرية هي فكرة الجسم (القضية 13) الذي (المحصاة 1) يتركب من عدد كبير جداً من الأفراد الشبدي التركيب. ولما كان كل فرد مكون للجسم إنما تناسبه فكرة موجودة بالضرورة في الله (لازمة القضية 8)، فإن فكرة الجسم البشري تتركب إذن (القضية 7) من ذلك العدد الكبير من أفكار الأجزاء المركبة له.

القضية 16

تنطوي فكرة الانفعال الذي يشعر به الجسم البشري عندما يتأثر بوجه من الوجوه بالأجسام الخارجية على كل من طبيعة الجسم البشري وطبيعة الجسم الخارجي.

البرهان

فعلاً، تنتج كل الكيفيات التي يتأثر بها الجسم عن كل من طبيعة الجسم المتأثر وطبيعة الجسم الذي يؤثر فيه (البديهية 1 التي تتلو لازمة المأخوذة 3)؛ وعلى ذلك فإن فكرة هذه الكيفيات (البديهية 4، الجزء 1) تنطوي بالضرورة على طبيعة هذا الجسم وذلك؛ وبالتالي فإن فكرة الانفعال الذي يشعر به الجسم البشري عندما يتأثر بوجه من الوجوه بجسم خارجي تنطوي على كل من طبيعة الجسم البشري وطبيعة الجسم الخارجي.

الافتراضات 1

ينتج عن ذلك: (1) أن النفس البشرية تدرك في ذات الوقت طبيعة جسمها الخاص وطبيعة عدد كبير جداً من الأجسام الأخرى.

الافتراضات 2

وينتج: (2) أن الأفكار التي لدينا عن الأجسام الخارجية تشير إلى حالة جسمنا الخاص أكثر مما تشير إلى طبيعة الأجسام الخارجية؛ وهذا ما فسّرته بالاعتماد على أمثلة كثيرة في تدليل الجزء الأول.

القضية 17

إذا تأثر الجسم البشري بطريقة تتطوي على طبيعة جسم خارجي، فإن النفس البشرية ستمتد هذا الجسم الخارجي موجوداً بالفعل، أو حاضراً، إلى أن يتأثر الجسم بأثر (*afficiatur affectu*) يلقي وجوده، أو حضوره، هذا الجسم الخارجي ذاته.

البرهان

إن ذلك بديهى، لأنه طالما بقي الجسم البشري متأثراً بهذا النحو، فإن النفس البشرية (القضية 12) ستظلّ تعتبر أثر الجسم ذلك، أي (القضية السابقة) أنه سيكون لديها فكرة نعت وجود فعلي، وهي فكرة تتطوي على طبيعة الجسم الخارجي؛ وبعبارة أخرى سيكون

لديها فكرة لا تلقي وإقما تثبت وجود أو حضور طبيعة الجسم الخارجي، وهكذا ستعتبر النفس (اللزمة 1 القضية السابقة) الجسم الخارجي موجوداً بالفعل، أو حاضراً، إلخ.

اللازمة

إذا تأثر الجسم البشري مرةً بأجسام خارجية، فإنّ النفس ستصبح قادرة على اعتبار هذه الأجسام، حتّى في صورة عدم وجودها وعدم حضورها، كما لو كانت حاضرة.

البشرى

إذا دفعت أجسام خارجية الأجزاء السائلة للجسم البشري إلى الاصطدام بالأجزاء اللينة، فإنّ مساحات هذه الأخيرة ستتغير (المصادرة 5)؛ وبالتالي (راجع البديهية 2، بعد لازمة المأخوذة 3) فإنّ الأجزاء السائلة ستعكس بطريقة غير الطريقة المألوفة؛ وعلى إثر ذلك فهي ستعكس، إذا ما غابتها حركتها العنقوية إلى الالتقاء بتلك المساحات الجديدة، بنفس الطريقة التي انعكست بها لما كانت مدفوعة نحو تلك المساحات من قبل الأجسام الخارجية. وبناء على ذلك، فبينما تواصل الأجزاء السائلة - المنعكسة بهذه الصورة - حركتها، فهي ستترك أثراً في الجسم البشري بنفس الطريقة السابقة، وستكوّن النفس من جديد (القضية 12) فكرة هذا الأثر؛ بمعنى أنّ النفس (القضية 17) ستعتبر الجسم الخارجي حاضراً من جديد؛ وذلك في كلّ مرة تلقي فيها الأجزاء السائلة للجسم البشري، أثناء حركتها العنقوية، بتلك المساحات بالذات. ولهذا فإنّ النفس ستنتظر إلى الأجسام الخارجية، التي تترك بها

الجسم البشري ذات مرة، كما لو كانت حاضرة، رغم أنها لم تعد موجودة، وذلك في كل مرة تتكرر فيها تلك العملية في الجسم.

حاشية

وهكذا ترى كيف يمكن أن نعتبر الأشياء غير الموجودة كما لو كانت موجودة، وهو ما يحدث غالبا. وقد ينتج ذلك عن أسباب أخرى، ولكن حسبي أنني بيّنت سببا واحدا يسمح لي بتفسير هذا الشيء كما لو كنت أبرهن عليه بعلة حقيقية؛ ومع ذلك لا أعتقد أنني جدت كثيرا عن العلة الحقيقية، لأن كل المصادر التي سلّمت بها هنا تكاد لا تحتوي على شيء لم تثبت التجربة؛ كما أنه لا يجوز لنا الشك في التجربة بعد أن بيّنا أن الجسم البشري موجود وفق إحساسنا به (راجع لازمة القضية 13). وعلاوة على ذلك (انطلاقا من اللازمة السابقة وعن اللازمة الثانية للقضية 16) إننا ندرك بوضوح ما هو الفرق مثلا بين فكرة محمد الموائمة لماهية نفس محمد بالذات، وفكرة محمد الموجودة في إنسان آخر، لنقل مثلا في علي. فالفكرة الأولى تعبّر مباشرة عن ماهية جسم محمد، كما أنها لا تنطوي على الوجود إلا طالما كان محمد موجودا؛ أما الثانية فهي تشير إلى هيئة جسم علي أكثر مما تشير إلى طبيعة محمد؛ وهذه الصورة فإنّه طالما بقي جسم علي على تلك الهيئة فإن نفس علي ستعتبر محمدا كما لو كان حاضرا، حتى لو لم يعد موجودا.

والآن، محافظة على العبارات الشائعة، سأطلق عبارة صور الأشياء (rerum imagines) على انطباعات الجسم البشري التي تمثّل لنا أفكارها الأشياء الخارجية كما لو كانت حاضرة، وإن كانت تمثّلها بون استحضار أشكالها. وعندما تنتظر النفس إلى هذه الأشياء من هذه الزاوية، فإننا نقول إنها تتخيّل، وكما أشرع هنا في الحديث

عن الخطأ فإنني أريد الإشارة إلى أن تخيلات النفس، إذا ما اعتبرت في ذاتها، لا تحتوي على أي خطأ؛ وبعبارة أخرى، إن النفس لا تُخطئ لكونها تتخيل، بل هي تُخطئ لكونها تفتقر إلى فكرة تستبعد وجود الأشياء التي تتوهمها حاضرة، وفعلًا، لو كانت النفس، أثناء استحضارها عن طريق الخيال لأشياء غير موجودة، تعلم في الوقت ذاته أن هذه الأشياء لا توجد حقًا، لنسبت هذه القدرة على التخيل إلى ميزة في طبيعتها، لا إلى عيب كامن فيها؛ ولا سيما إذا كانت ملكة الخيال هذه تابعة لطبيعتها وحدها، أي (التعريف 7، الجزء 1) إذا كانت قدرة النفس على التخيل قدرة حرة.

القضية 18

إذا تأثر الجسم البشري مرةً بجسمين أو بأجسام كثيرة معاً، وإذا تخيلت النفس في المستقبل بعض هذه الأجسام، فإنها ستتذكر في الحال الأجسام الأخرى.

البرهان

إن ما يجعل النفس (اللزمة السابقة) تتخيل جسماً من الأجسام هو أن الجسم البشري يتأثر بما يتركه فيه جسم خارجي بنفس الطريقة التي سبق أن تأثر بها لما تلقت بعض أجزائه دفعا من قبل هذا الجسم الخارجي بالذات؛ ولما (حسب الفرضية) كان الجسم قد تهيأ بطريقة تجعل النفس تتخيل جسمين معاً، فإن النفس ستتخيلهما فيما بعد معاً، وإذا ما تخيلت أحدهما فإتبعها ستتذكر الآخر في الحال.

حاشية

ومن هنا ندرك بوضوح ما هي الذاكرة (Memoria)، فهي لا تعدو أن تكون حقاً غير تسلسلٍ مُحَدَّدٍ للأفكار، وينطوي هذا التسلسل على طبيعة أشياء موجودة خارج الجسم البشري، كما أنه يحدث في النفس على نسقٍ تأثرات هذا الجسم وتسلسلها.

أقول: (1) إنه تسلسل أفكار تنطوي على طبيعة أشياء موجودة خارج الجسم البشري، لا تسلسل أفكار تفسر طبيعة تلك الأشياء ذاتها، إذ هي في الواقع (القضية 16) أفكار تأثرات الجسم البشري، وهي تنطوي في نفس الوقت على طبيعة هذا الجسم وعلى طبيعة الأجسام الخارجية.

وأقول: (2) إن هذا التسلسل يحدث على نسق تأثرات الجسم البشري وتسلسلها، كي أميزه عن تسلسل الأفكار الذي يحدث وفق ترتيب الذهن، وهو تسلسل تدرك النفس بمقتضاه الأشياء بعقلها الأولي، كما أنه نفس التسلسل عند جميع الناس. ومن هنا ندرك بوضوح لماذا تنتقل النفس انبساطاً فورياً من فكرة موضوع إلى فكرة موضوع آخر لا يشبه الأول في شيء، كأن ينتقل مثلاً رجل روماني من فكرة كلمة "Pomum" (تفاحة) إلى فكرة ثمرة لا تشبه هذا الصوت المنطوق في شيء ولا تشترك معه في شيء غير أن جسم ذلك الروماني قد تأثر بهما معاً في كثير من الأحيان، أي أن هذا الرجل ذاته قد سمع مراراً كلمة "تفاحة" بينما كان يرى هذه الثمرة. وبهذه الصورة ينتقل كل شخص من فكرة إلى أخرى وفق ما تعود عليه من ترتيب لصور الأشياء في جسمه، فالجندي الذي يرى مثلاً آثار فرس على الرمل سينتقل مباشرة من فكرة الفرس إلى فكرة الفارس، ومن هناك إلى فكرة الحرب، إلخ؛ أما الفلاح فهو سينتقل على العكس من ذلك، من فكرة الفرس إلى فكرة المحراث، فالحقل، إلخ؛ وهكذا ينتقل كل واحد من فكرة إلى أخرى حسب ما تعود عليه من ربط بين صور الأشياء.

القضية 19

لا تعرف النفس البشرية الجسم البشري ذاته ولا تدرك أنه موجود إلا من خلال أفكار التأثيرات التي تطرأ عليه.

البيان

فعلا، النفس البشرية هي فكرة الجسم البشري، أو معرفته (القضية 13) الموجودة في الله (القضية 9) باعتباره متأثراً بفكرة أخرى لشيء جزئى ما؛ أو أيضاً، لما كان الجسم البشري يستحق إلى عدد كبير جداً من الأجسام كي تجدد باستمرار (المصادرة 4)، ولما كان نظام الأفكار وترابطها هو عينه (القضية 7) نظام العلل وترابطها، فإن تلك الفكرة ستوجد في الله بوصفه متأثراً بأفكار عدد كبير جداً من الأشياء الجزئية. وبالتالي فإن الله له فكرة الجسم البشري أو يعرف الجسم البشري من جهة كونه متأثراً بعدد كبير جداً من الأفكار الأخرى، لا باعتباره مكوناً لطبيعة النفس البشرية، بمعنى (لازمة القضية 11) أن النفس البشرية لا تعرف الجسم البشري. ولكن أفكار تأثيرات الجسم موجودة في الله بما هو مكون لطبيعة النفس البشرية، وبعبارة أخرى، إن النفس تدرك تلك التأثيرات (القضية 12)، وهي بغناء على ذلك تدرك الجسم الإنساني ذاته (القضية 6)، كما أنها تدركه موجوداً بالفعل (القضية 17)؛ إذن تدرك النفس البشرية الجسم البشري ذاته بهذه الطريقة لا غير.

القضية 20

توجد في الله أيضاً فكرة أو معرفة النفس البشرية، وهي تنتج في الله وتنتمي إليه على منوال فكرة أو معرفة الجسم البشري.

البرهان

الفكر صفة من صفات الله (القضية 1)، وبالتالي (القضية 3) توجد في الله بالضرورة فكرة كل من الفكر ذاته وجميع تأثيراته وأيضا فكرة النفس البشرية (القضية 11). ثم إن وجود فكرة أو معرفة النفس هذه لا تنتج عن الله بما هو لا متناه وإنما بما هو متأثر بفكرة أخرى لشيء جزئي (القضية 9). ولكن نظام الأفكار وتربطها هو عينه نظام الأشياء وتربطها (القضية 7)؛ إذن ففكرة أو معرفة النفس تنتج في الله وتنتمي إليه على منوال فكرة أو معرفة الجسم.

القضية 21

فكرة النفس تلك إنما هي متحدة بالنفس على منوال اتحاد النفس ذاتها بالجسم.

البرهان

لقد استنتجنا أن النفس متحدة بالجسم انطلاقا من كون الجسم هو موضوع النفس (راجع القضيتين 12 و 13)، وبالتالي ينبغي أن تكون فكرة النفس متحدة بموضوعها، وذلك لنفس السبب، أي أنه ينبغي أن تكون متحدة بالنفس على منوال اتحاد النفس بالجسم.

حاشية

يمكن فهم هذه القضية باكثر وضوح انطلاقا مما قيل في حاشية القضية 7؛ فنحن قد بينا هناك بالفعل أن فكرة الجسم والجسم، أي (القضية 13) النفس والجسم، هما شخص واحد لا غير

(unum et idem esse Individuum)، متصور تارة من جهة صفة الفكر وطورا من جهة صفة الامتداد؛ لذلك فإن فكرة النفس والنفس ذاتها هما شيء واحد لا غير، متصور من جهة صفة واحدة لا غير، هي صفة الفكر، فوجود فكرة النفس ووجود النفس ذاتها ينتجان عن الله بنفس ضرورة قوة التفكير، ذلك أن فكرة النفس، أي فكرة للفكرة، لا تحلو أن تكون في الواقع صورة الفكرة (forma ideae)، باعتبار أن الفكرة هي نمط فكري لا علاقة له بموضوع (objectum)؛ وفي نفس السياق، من كان يعلم شيئا فهو يعلم أنه يعلمه، وهو يعلم في نفس الوقت أنه يعلم أنه يعلمه، وهكذا نواليك بلا نهاية. ولكننا سنتنظر في ذلك لاحقا.

القضية 22

لا تدرك النفس البشرية تأثيرات الجسم فحسب، بل هي تدرك أيضا أفكار هذه التأثيرات.

السبب

تترابط أفكار أفكار التأثيرات في الله وتنتمي إليه على منوال أفكار التأثيرات ذاتها؛ ويمكن البرهنة على ذلك مثلما فعلنا أعلاه في القضية 20. وبما أن أفكار تأثيرات الجسم توجد في النفس البشرية (القضية 12)، أي (لازمة القضية 11) في الله بما هو مؤلف لماهية النفس البشرية، فإن أفكار تلك الأفكار ستوجد إذن في الله باعتباره يملك معرفة أو فكرة النفس البشرية، أعني (القضية 21) أنها ستوجد في النفس البشرية ذاتها التي، بهذا الحكم، لا تدرك تأثيرات الجسم فحسب، بل هي تدرك أيضا أفكار هذه التأثيرات.

القضية 23

لا تعرف النفس ذاتها إلا من خلال إدراكها لأفكار تأثيرات الجسم.

البرهان

تنتج فكرة النفس أو معرفتها في الله (القضية 20) وتنتمي إليه على منوال فكرة الجسم أو معرفته. ولما كانت النفس البشرية (القضية 19) لا تعرف الجسم البشري ذاته، أعني (لازمة القضية 11) لما كانت معرفة الجسم البشري لا تنتمي إلى الله بما هو مؤلف لطبيعة النفس البشرية، فإن معرفة النفس لا تنتمي إذن إلى الله بما هو مؤلف لماهية النفس البشرية؛ ومن هذا المنظور (لازمة القضية 11) فإن النفس البشرية لا تعرف ذاتها. ثم إن أفكار التأثيرات الحاصلة للجسم تنطوي على طبيعة الجسم البشري ذاته (القضية 16)، أي (القضية 13) أنها موافقة لطبيعة النفس؛ وعلى ذلك فإن معرفة هذه الأفكار تنطوي بالضرورة على معرفة النفس؛ ولما كانت معرفة هذه الأفكار موجودة (القضية السابقة) في النفس البشرية ذاتها، فإن النفس البشرية لا تعرف إذن ذاتها إلا من هذا المنظور فحسب.

القضية 24

لا تنطوي النفس البشرية على معرفة تامة (adaequantam) للأجزاء المؤلفة للجسم البشري.

المبوهان

لا تنتمي الأجزاء المولفة للجسم البشري إلى ماهية الجسم ذاته إلا من جهة نقلها لحركاتها بعضها إلى بعض وفق نسبة معينة (انظر التعريف الذي يخلو لازمة المأخوذة 3)، لا من جهة اعتبارها أفراداً ويقطع النظر عن علاقتها بالجسم البشري. فعلا، إن أجزاء الجسم البشري (المصادرة 1) أفراداً نوو تركيب معقد للغاية، ويمكن لأجزاء هؤلاء الأفراد (المأخوذة 4) أن تنفصل عن الجسم البشري وأن تنقل حركاتها (انظر البديهية 1 التي تنقل المأخوذة 3) إلى أجسام أخرى وفق نسبة أخرى، مع أن الجسم يحافظ تماماً على طبيعته وصورته؛ وتبعاً لذلك فإن فكرة أو معرفة أي جزء من الأجزاء ستوجد في الله (القضية 3)، وذلك (القضية 9) من جهة اعتباره متأثراً بفكرة أخرى لشيء جزئي، وباعتبار أن هذا الشيء الجزئي سابق على الجزء ذاته وفق نظام الطبيعة (القضية 7).

وما قلناه يصدق أيضاً على أي جزء من أجزاء الفرد المكون للجسم البشري؛ وعلى هذا فإن معرفة أي جزء من الأجزاء المولفة للجسم البشري إنما هي موجودة في الله باعتباره متأثراً بعدد كبير جداً من أفكار الأشياء، لا باعتباره مالكا فحسب لفكرة الجسم البشري، أي (القضية 13) لفكرة المكونة لطبيعة النفس البشرية؛ وبالتالي، فإن النفس البشرية (لازمة القضية 11) لا تنطوي على معرفة تامة للأجزاء المولفة للجسم البشري.

القضية 25

لا تنطوي فكرة أي تأثر من تأثيرات الجسم البشري على المعرفة التامة للجسم الخارجي.

البرهان

لقد بينا أن فكرة تأثير من تأثيرات الجسم البشري تنطوي على طبيعة الجسم الخارجي (راجع القضية 16)، باعتبار أن الجسم الخارجي يحدد الجسم البشري بوجه من الوجوه. لكن لما كان الجسم الخارجي قرناً مستقلاً عن الجسم البشري، فإن فكرته أو معرفته موجودة في الله (القضية 9) باعتبار أن الله متأثر بفكرة شيء آخر، وباعتبار (القضية 7) أن هذا الشيء سابق بالطبع على الجسم الخارجي ذاته. فالمعرفة التامة للجسم الخارجي لا توجد إذن في الله من حيث أن لديه فكرة تأثير الجسم البشري، وبعبارة أخرى إن فكرة تأثير الجسم البشري لا تنطوي على المعرفة التامة للجسم الخارجي.

القضية 26

لا تدرك النفس أي جسم خارجي على أنه موجود بالفعل، إلا من خلال أفكار تأثيرات جسمها الخاص.

البرهان

إذا لم يتأثر الجسم البشري بأي وجه من الوجوه بجسم من الأجسام الخارجية، فإن فكرة الجسم البشري (القضية 7)، أي (القضية 13) النفس البشرية، لا تتأثر هي الأخرى بأي وجه من الوجوه بفكرة وجود ذلك الجسم؛ وبعبارة أخرى، إنها لا تدرك بأي وجه من الوجوه وجود ذلك الجسم الخارجي، ولكن، في صورة ما إذا كان الجسم البشري متأثراً بوجه ما بجسم من الأجسام الخارجية، فإن النفس ستدرك (القضية 16 مع لازمتيها) الجسم الخارجي.

لَاؤَمَّة

ليس للنفس البشرية، من جهة كونها تتخيل (imaginatur) جسماً خارجياً، معرفة تامة بهذا الجسم.

البسوفان

عندما تعتبر النفس البشرية الأجسام الخارجية من خلال أفكار تلتأت جسمها الخامس، نقول إنَّها تتخيل (imaginari) (انظر حاشية القضية 17)؛ ولا يوجد ظرف آخر تستطيع فيه النفس أن تتخيل الأجسام موجودةً بالفعل (القضية السابقة).

وبناء على ذلك (القضية 25) ليس للنفس، من جهة كونها تتخيل أجساماً خارجية، معرفة تامة بهذه الأجسام.

القضية 27

لا تنطوي فكرة تأثر من تأثرات الجسم البشري على المعرفة التامة للجسم البشري ذاته.

البسوفان

تنطوي كل فكرة من أفكار تأثرات الجسم البشري على طبيعة الجسم البشري، من جهة اعتباره متأثراً بوجه ما (انظر القضية 16). لكن لما كان الجسم فرداً قابلاً للتأثر بطرق أخرى كثيرة، فإن فكرته، إلخ (راجع برهان القضية 25).

القضية 28

إن أفكار تأثيرات الجسم البشري، إذا ما اعتُبرت في علاقتها بالنفس البشرية فحسب، ليست واضحة متميزة، بل هي مختلطة (confusae).

البشرمان

فعلا، تنطوي أفكار تأثيرات الجسم البشري (القضية 16) على طبيعة كل من الأجسام الخارجية والجسم البشري ذاته؛ وينبغي أن تنطوي هذه الأفكار، لا على طبيعة الجسم البشري فحسب، بل أيضا على طبيعة أجزائه؛ ذلك أن التأثيرات هي أنماط (المصادرة 3) تتأثر أجزاء الجسم البشري، وهي بالتالي أنماط تأثر الجسم بكامله. ولكن (القضيتان 24 و 25) المعرفة التامة للأجسام الخارجية، وأيضا المعرفة التامة للأجسام المؤلفة للجسم البشري، إنما هي موجودة في الله من جهة اعتباره متأثرا، لا بالنفس البشرية، وإنما بأفكار أخرى. وعليه فإن أفكار تلك التأثيرات، إذا ما اعتُبرت في علاقتها بالنفس البشرية فحسب، هي كالأوزم المنفصلة عن مقدماتها، أي أنها (كما هو معلوم بذاته) أفكار مختلطة.

حاشية

يمكن الإثبات، بنفس الطريقة، أن الفكرة المكوّنة لطبيعة النفس البشرية ليست، إذا ما اعتُبرت في ذاتها وحدها، واضحة متميزة؛ وبالمثل، ليست أفكار

أفكارٍ تآثرات الجسم البشري، إذا ما اعتُبرت في علاقتها بالنفس وحدها، واضحة متميِّزة، وهو ما يسهل على كلِّ واحدٍ إدراكه.

القضية 29

لا تنطوي فكرةُ فكرةٍ تآثرٍ من تآثرات الجسم البشري على المعرفة التامة للنفس البشرية.

البوهان

فعلا، لا تنطوي فكرةُ تآثرٍ من تآثرات الجسم البشري (القضية 27) على المعرفة التامة للجسم ذاته، وبعبارة أخرى، إنها لا تعبر عن طبيعته على نحو ملائم (adequate)، أعني (القضية 13) أنها لا تتوافق مع طبيعة النفس على نحو ملائم؛ وبالتالي (البدئية 6، الجزء 1) فإنَّ فكرة هذه الفكرة لا تعبر عن طبيعة النفس البشرية بصورة ملائمة، بمعنى أنها لا تنطوي على معرفة تامة لها.

لازمة

يتربَّع على ذلك أنَّ النفس البشرية، كلُّها أركت الأشياء وفق النظام العام للطبيعة (communi Naturae ordine)، لا تعرف ذاتها ولا جسمها الخاص ولا الأجسام الخارجية معوفة تامة، بل لا تعلم هذه المعرفة أن تكون مختلطة ومبتورة (mutilatum). فعلا، إنَّ النفس لا تعرف ذاتها إلَّا من خلال إدراكها لأفكار تآثرات الجسم (القضية 23)؛ وهي لا تترك جسمها الخاص (القضية

(19) إلا بواسطة أفكار تأثرات الجسم؛ وهي أيضا تدرك الأجسام الخارجية بواسطة تلك الأفكار فحسب (القضية 26)؛ وبناء على ذلك فهي، بوصفها تملك تلك الأفكار، لا تعرف ذاتها (القضية 29) ولا جسمها الخاص (القضية 27) ولا الأجسام الخارجية (القضية 25) معرفة تامة، بل لا تعدو معرفتها لها أن تكون معرفة مختلطة ومبتورة (القضية 28 مع هاشيتها).

حاشية

أقول عن قصد إن النفس لا تعرف ذاتها ولا جسمها الخاص ولا الأجسام الخارجية معرفة تامة، بل لا تعدو هذه المعرفة أن تكون مختلطة ومبتورة، وذلك كلما أدركت النفس الأشياء وفق النظام العام للطبيعة؛ أعني كلما كانت مدفوعة من الخارج وحسب الأحداث الطارئة إلى اعتبار هذا الشيء أو ذاك، لا كلما كانت مدفوعة من الداخل - ونظراً إلى كونها تعتبر أشياء كثيرة معاً - إلى معرفة توافق الأشياء وتباينها وتقابلها؛ ذلك أنه كلما كانت النفس مهيأة باطنياً بصورة أو بآخرى فهي تنظر إلى الأشياء بوضوح وتمييز، كما سأتبين ذلك لاحقاً.

القضية 30

لا يمكننا الحصول إلا على معرفة ناقصة جداً (*admodum* inadaequatam) عن ديمومة (*duratione*) جسمنا الخاص.

البرهان

ليست ديمومة جسمنا تابعة لعاقبته (البديهية 1)؛ وهي ليست

تابعة أيضا للطبيعة الله المطلقة (القضية 21، الجزء 1)، ولكن يتحتم على الجسم (القضية 28، الجزء 1) أن يوجد ويُنتج معلولات ما بمقتضى علل محدّدة حتّت عليها علل أخرى أن توجد وتنتج معلولات ما في ظروف معيّن ومحدّد؛ وهذه العلل قد تحدّثت بدورها من قبل علل أخرى، وهكذا بلا نهاية. فديمومة جسمنا تابعة إذن للنظام الكلي للطبيعة وتركيب الأشياء. أمّا فيما يتعلق بشروط تركيب الأشياء، فإنّه يوجد في الله معرفة تامة بذلك، باعتبار أن الله يملك أفكار جميع الأشياء، لا باعتبار أنه يملك فكرة الجسم البشري فحسب (لازمة القضية 9)؛ وبالتالي فإن معرفة ديمومة جسمنا ناقصة جدّا عند الله من جهة اعتباره مؤلّفا للطبيعة النّفس البشرية، أي (لازمة القضية 11) أن هذه المعرفة إنّما هي ناقصة جدّا في أنفسنا.

القضية 31

لا يمكننا الحصول إلّا على معرفة ناقصة جدّا عن ديمومة الأشياء الجزئية الموجودة خارجنا.

البرهان

فعلا، يجب أن يدفع كلّ شيء جزئي، مثلما يحدث للجسم البشري، من قبل شيء جزئي آخر إلى الوجود وإلى إنتاج معلولات ما في ظرف معيّن ومحدّد؛ ويدفع هذا الشيء بدوره من قبل شيء آخر، وهكذا بلا نهاية (القضية 28، الجزء 1). ولما كنّا قد أثبتنا في القضية السابقة، انطلاقا من هذه الخاصية المشتركة للأشياء الجزئية، أنّه ليس لدينا إلّا معرفة ناقصة جدّا عن ديمومة جسمنا الخاص، فلا بدّ من

التمسك، فيما يتعلق بليمومة الأشياء الجزئية، بما استنتجناه، أي بأنه لا يمكننا الحصول إلا على معرفة ناقصة جداً عن هذه الأشياء.

اللزامة

بقرئ على ذلك أن جميع الأشياء الجزئية حادثة وفانية؛ إذ لا يمكننا (القضية السابقة) الحصول على أية معرفة تامة عن ليمومتها، وذلك هو ما ينبغي أن تعنيه بحوث الأشياء وجواز قسائها (انظر الحاشية الأولى للقضية 33، الجزء 1)، وإلا (القضية 29، الجزء 1) فلا شيء حادث إذا ما استثنينا ذلك.

القضية 32

جميع الأفكار صادقة (verae)، من حيث علاقتها بالله.

البسوهسان

فعلاً، إن جميع الأفكار الموجودة في الله موافقة تماماً لموضوعاتها (لازمة القضية 7)، وبالتالي فهي صادقة.

القضية 33

لا يوجد في الأشياء أي شيء إيجابي نقول بمقتضاه إنها باطلة.

البرهان

إذا نفيتم ذلك، فحاولوا تصوّر نمط إيجابي من التفكير، بحيث يكون هذا النمط صورة الخطأ، أي صورة البطلان (*erroris sive falsitatis*)، فنمط التفكير هذا لا يمكنه أن يوجد في الله (القضية السابقة)؛ ولكن لا يمكن لأي شيء أن يوجد ولا أن يتصور خارج الله (القضية 15، الجزء 1)، وعليه فإنه لا يوجد في الأفكار أي شيء إيجابي نقول بمقتضاه إنها باطلة.

القضية 34

كلّ فكرة توجد فينا على نحو مطلق، أي على نحو تامّ وكامل (*adaequata et perfecta*)، إنما هي فكرة صادقة.

البرهان

عندما نقول إنّ فكرة تامّة وكاملة توجد فينا، فكلّ ما نقصده هو (لازمة القضية 11) أنّ فكرة تامّة وكاملة توجد في الله من جهة كونه يؤلّف طبيعة أنفسنا، وبالتالي (القضية 32) فنحن لا نقول شيئاً آخر غير أنّ فكرة كهذه فكرة صادقة.

القضية 35

يمكن البطلان في عدم المعرفة (*cognitionis privatione*) الذي تنطوي عليه الأفكار غير التامة، أي المبتورة والمختلطة.

البيروني

لا يوجد في الأفكار أي شيء إيجابي مؤلف لصورة البطلان (القضية 33)؛ لكن لا يمكن للبطلان أن يكمن في عدم مطلق المعرفة (لأنه يقال عن النفوس، لا عن الأجسام، إنها تخطئ وتضل)، ولا أيضا في الجهل المطبق؛ ذلك أن الجهل والخطأ شيان مختلفان؛ فالبطلان يتمثل إذن في عدم المعرفة الذي تنطوي عليه معرفة غير تامة للأشياء، أي في أفكار مختلطة وغير تامة.

حاشية

لقد قسرت في حاشية القضية 17 ما معنى أن الخطأ هو عدم المعرفة، ولكنني سأقدم مثالا غزير التوضيح. فالناس يخطئون عندما يعتقدون أنفسهم أحراراً، والسبب هو وعيهم لأفعالهم وجهلهم بالأسباب التي تدفعهم إليها. تتمثل إذن فكرة الحرية عندهم في كونهم لا يدركون أية علة لأفعالهم؛ ذلك أنهم يصرحون بأن الأعمال الإنسانية ناجمة عن الإرادة، إلا أن هذه الكلمات لا تطابقها أية فكرة، لأنهم يجهلون جميعا ما عسى أن تكون الإرادة وكيف يمكنها أن تحرك الجسم. أما أولئك الذين لهم أكثر ادعاء ويختلفون مقعداً أو مقرراً للنفوس، فإنهم يثيرون عادة الضحك أو الإشمئزاز. وهكذا فعندما ننظر إلى الشمس ونُخَيِّل إلينا أنها على مسافة مائتي قدم تقريبا، فإن الخطأ لا يكمن هنا في عملية التخيل ذاتها وإنما في كوننا نجهل، أثناء تخيلنا، المسافة الحقيقية للشمس وسبب هذا التخيل. ومع أننا نعلم حقا بعد ذلك أن الشمس بعيدة عنا أكثر من 600 مرة قطر الأرض إلا أننا لا نكف عن تخيلها قريبة منا، إذ نحن لا نتخيل الشمس بمثل هذا القرب جهلا بمسافتها الحقيقية، وإنما نتخيلها هكذا نظرا إلى انطواء بعض انفعالات جسمنا على ماهية الشمس، باعتبار أن الجسم ذاته متأثر بهذا القلق.

القضية 36

تلزم الأفكار غير التامة والمختلطة بعضها عن البعض بنفس
الضرورة التي تربط بين الأفكار التامة، أي الواضحة والتميزة.

البرهان

توجد جميع الأفكار في الله (القضية 15، الجزء 1)، وإذا ما اعتبرت في
علاقتها بالله فهي تكون صابقة (القضية 32) و (لازمة القضية 7) تامة؛
وبالتالي فإنه لا وجود لبنة لأفكار غير تامة ومختلطة، اللهم إلا إذا اعتبرناها
في علاقتها بالنفس الجزئية لشخص ما (راجع في هذا الموضوع القضيتان 24
و 28)؛ وبناء على ذلك فإن جميع الأفكار، التامة وغير التامة على السواء، يلزم
بعضها عن البعض (لازمة القضية 6) بنفس الضرورة.

القضية 37

إن ما يكون مشتركاً بين جميع الأشياء (راجع في هذا الموضوع
المأخوذة 2 أعلاه) ويوجد في الجزء والكل على حد السواء، لا يؤلف
ماهية أي شيء جزئي.

البرهان

إذا تفهيم ذلك فتصوروا، إن استطعتم، أنه يؤلف ماهية شيء جزئي، مثلاً
ماهية 'ب'. فهو لن يستطيع إذن (التعريف 2) أن يوجد ويتصور بدون 'ب'؛

لكن هذا مناقض للفرضية؛ فهو حينئذ لا ينتمي إلى ماهية "ب" ولا هو مكون
لماهية أي شيء جزئي آخر.

القضية 38

إن ما يكون مشتركا بين جميع الأشياء ويوجد في الجزء والكل
على حد سواء لا يمكنه أن يتصور إلا على نحو تام.

البرهان

لنفرض أن "أ" هو شيء مشترك بين جميع الأجسام ويوجد في
جزء من أجزاء جسم ما وفي كامل الجسم على حد سواء؛ فإنا أقول
إن "أ" لا يمكنه أن يتصور إلا على نحو تام؛ ذلك أن فكرة "أ" (لازمة
القضية 7) ستكون حتما فكرة تامة في الله، سواء من حيث إنه يملك
فكرة الجسم البشري أو من حيث إنه يملك أفكار تأثيرات هذا الجسم، وهي
أفكار تنطوي (القضايا 16 و 25 و 27) جزئيا على طبيعة كل من الجسم
البشري والأجسام الخارجية؛ بمعنى أن (القضيتان 12 و 13) فكرة "أ"
ستكون حتما فكرة تامة في الله باعتباره مكونا للنفس البشرية، أي باعتباره
يملك الأفكار التي تتضمنها النفس البشرية؛ إذن فالنفس (لازمة القضية 11)
تدرك "أ" على نحو تام بالضرورة، وذلك سواء كانت تدرك ذاتها أو تدرك
جسمها الخاص أو بعض الأجسام الخارجية، ولا يمكن لـ "أ" أن يدرك على
نحو آخر.

اللزامة

ينتج عن ذلك أنه توجد بعض الأفكار أو المعاني المشتركة بين جميع الناس، إذ أن (المأخوذة 2) كل الأجسام تتفق في أشياء معينة ينبغي (القضية السابقة) أن تدرك من قبل، الجميع بصورة تامة، أي بوضوح وتميز.

القضية 39

إذا وجدت خاصية مشتركة بين الجسم البشري وبعض الأجسام الخارجية التي تعود الأول للتأثر بها، وإذا كانت هذه الخاصية موجودة في كل جسم من الأجسام الخارجية، في جزء منه أو في كله على حد سواء، فإن فكرة هذه الخاصية ستوجد أيضا في النفس على نحو تام.

البرهان

لنفرض أن "أ" خاصية مشتركة بين الجسم البشري وبعض الأجسام الخارجية، وأن هذه الخاصية توجد في الجسم البشري وفي تلك الأجسام الخارجية ذاتها على حد سواء، وأخيرا أنها توجد في كل جسم من تلك الأجسام الخارجية، في جزء منه أو في كله على حد سواء، إن فكرة عامة "أ" ستوجد في الله (لازمة القضية 7)، باعتباره متضمنا لفكرة الجسم البشري وباعتباره متضمنا أيضا لأفكار الأجسام الخارجية المفترضة. لنفرض الآن أن الجسم البشري يتأثر بجسم خارجي بواسطة ما يشترك فيه معه، أي بواسطة "أ"؛ ففكرة هذا التأثر ستنتظري على الخاصية "أ" (القضية 16) وبالتالي (لازمة

القضية 7) ستكون فكرة هذا القائل فكرة تامة في الله من جهة كونه متأثراً بفكرة الجسم البشري؛ أي (القضية 13) بوصفه مكوناً لطبيعة النفس البشرية؛ وهكذا (لازمة القضية 11) فإن هذه الفكرة ستكون فكرة تامة في النفس البشرية.

اللازمة

يتروّب على ذلك أن النفس تكون أكثر استعداداً لإدراك أشياء كثيرة على نحو تامّ كلما كان لجسمها عدد أكبر من الخصائص المشتركة مع الأجسام الأخرى.

القضية 40

كل الأفكار التي تنتج في النفس عن الأفكار التامة فيها (in ipsa)، إنما هي أيضاً أفكار تامة.

البرهان

إنّ ذلك بديهي. إذ عندما نقول إنّ فكرة ما تلزم في النفس البشرية عن أفكار موجودة في هذه الأخيرة على نحو تامّ، فإنّ كلّ ما تعنيه (لازمة القضية 11) هو أنّه توجد فكرة في العقل الإلهي، وأنّ الله هو علّتها، لا باعتباره لامتناهياً، أو باعتباره متأثراً بأفكار عدد كبير جداً من الأشياء الجزئية، وإنّما باعتباره مكوناً لماهية النفس البشرية ليس إلا.

حاشية 1

لقد فسرت من خلال ما تقدم على المعاني (notionum) المسماة مشتركة (communes) والتي هي قواعد الاستدلال عندها. ولكن توجد مثل أخرى لبعض البديهيات أو المعاني المشتركة التي ينبغي تفسيرها وفق المنهج الذي توخينا؛ وقد نتبين بهذه الصورة أي المعاني يكون مفيداً أكثر من غيره وأياً يكاد لا يتسخدم في شيء ثم أيها يكون مشتركاً، وأياً لا يكون واضحاً متميزاً إلا لأولئك الذين تخلصوا من الأحكام المسبقة. وأخيراً أيها يقتدر إلى أساس صحيح. وقد نتبين أيضاً ما هو أصل المعاني المسماة ثانوية (secundas)، وكذلك البديهيات التي تقوم عليها، وحقائق أخرى من هذا القبيل أدركتها قديماً عن طريق التأمل، لكن لما كنت قد احتفظت بملاحظاتى لإيرادها في مصنف آخر، وأيضاً كي لا يمل القارئ من الإسهاب المفرط في هذا الموضوع، فلقد عزمت على إرجاء هذا العرض، إلا أنني، خشية أن أغفل شيئاً لا يستغنى عن معرفته، سأضيف بعض الكلمات عن الأسباب التي نشأت عنها الألفاظ المسماة متعالية (transcendentales) مثل الوجود والشيء وبعض الشيء. فهذه الألفاظ تنشأ عن كون الجسم البشري لا يقدر، بوصفه محدوداً، إلا على إنشاء عدد معين من الصور معاً ويوضح (لقد فسرت ما هي الصورة في حاشية القضية 17)؛ فإذا وقع تجاوز هذا العدد فإن تلك الصور ستأخذ في الاختلاط؛ وإذا وقع الإلزام في تجاوز عدد الصور المتميزة التي يقدر الجسم على تكوينها في ذاته معاً، فإن جميع الصور سيختلط بعضها ببعض تماماً. وما دام ذلك كذلك فمن البديهي بناء على لازمة القضية 17 وعلى القضية 18، أن الأجسام التي ستقدر النفس البشرية على تخيلها معاً على نحو متميز هي على قدر الصور التي يمكن تكوينها معاً في جسمها الخاص. لكن عندما تختلط الصور في الجسم تماماً، فإن النفس ستتخيل أيضاً جميع الأجسام باختلاطٍ وبونما

تميز، فتدرجها بوجه ما تحت صفة واحدة، أعني تحت صفة الوجود والشيء، إلخ.

وقد يترقب ذلك أيضا عن كون الصور ليس لها دائما نفس الشدة، أو عن علل أخرى معاملة لسنّا في حاجة إلى تفسيرها هنا، لأن الهدف الذي نصبو إليه يجعلنا نكتفي بالتأمل في علة واحدة؛ ذلك أن جميع العلل مؤداها أن تلك الألفاظ تدلّ على أفكار في غابة الّليس. وعن مثل هذه العلل نشأت أيضا المعاني المسماة كَلِّيّة (universales) مثل: إنسان، فرس، كلب، إلخ، إذ تتكون مثلا في الجسم البشري صور أشخاص كثيرين معا، بحيث يتجاوز عدد هذه الصور قوّة الخيال، ومع أن تجاوز هذه القوّة لا يكون حقّا تجاوزا كَلِّيّا، إلا أنه تجاوز كاف لمنع النفس من تخيل الاختلافات الفردية الطفيفة (كلّون كل واحد وقامته) والعدد المحدد للأفراد، فلا تتخيّل بوضوح غير ما يشترك فيه جميع الأفراد من جهة تشيّرهم في الجسم. ونفعلا يكون تأثير الجسم بالعقصر المشترك أشدّ، باعتبار أن هذا التأثير يحصل له من قبل كلّ فرد؛ فذاك هو ما تعبّر عنه النفس باسم الإنسان وما تثبته عن عدد لا محدود من الكائنات الفردية. لكن لا بدّ من ملاحظة أن تلك المعاني لا يكوّنها الجميع بنفس الطريقة؛ فهي تتنوّع عند كلّ واحد بحسب الشيء الذي تأثر به الجسم في الغالب أو الذي تتخيّله النفس وتذكّره بأكثر سهولة. فمثلا أولئك الذين استوعبوا انتباههم دائما قوام الإنسان سيعنون بلقطة إنسان حيواناً منقصب القامة؛ أمّا الذين تعوّلوا على اعتبار شيء آخر فإنهم سيكونون صورة مشتركة أخرى للإنسان، مثلا: الإنسان حيوان ضاحك، حيوان ثو قاضمتين وبلا ريش، حيوان عاقل؛ وهكذا فإن كلّ واحد سيكون، وفق هيئة جسمه، صورا كَلِّيّة للأشياء الأخرى. فلا عجب إذن إن كثرت المنازعات بين الفلاسفة الذين أرادوا تفسير الأشياء للطبيعية بصور الأشياء وحدها.

حاشية 2

انطلاقاً من كل ما قيل أعلاه يتبين بوضوح أنه لدينا العديد من الإدراكات وأننا نكون معاني كلية ناجمة:

(1) عن الأشياء الجزئية التي تقدمها لنا الحواس مبتورة مختلطة، ومضطربة أمام الذهن (انظر لازمة القضية 29)؛ ولهذا السبب تحولت أن أسني مثل هذه الإدراكات معرفة بالتجربة المبهمة (*ab experientia vaga*) ؛

(2) عن علامات، كان نتذكر مثلاً بعض الأشياء عند سماعنا أو قراءتنا لبعض الكلمات، فتكون عنها أفكاراً مماثلة لتلك التي تتخيل بواسطتها الأشياء (انظر حاشية القضية 18). وسأسمي فيما يلي كلاً من هذين النمطين من النظر النوع الأول من المعرفة، أو الظن (*opinionem*)، أو التخيل (*imaginationem*)؛

(3) أخيراً، عن كوننا نملك معاني مشتركة وأفكاراً تامة عن خاصيات الأشياء (راجع لازمة القضية 38، والقضية 39 مع لازمتها، والقضية 40)، وسأسمي نمط المعرفة هذا: العقل (*rationem*) أو النوع الثاني من المعرفة.

وفضلاً عن هذين النوعين من المعرفة، يوجد أيضاً نوع ثالث، كما سأتبين ذلك فيما يلي، وسأطلق عليه اسم: العلم الهندسي (*Scientiam Intuitivam*). ويرتقي هذا النوع من المعرفة عن الفكرة التامة للماهية الصورية لبعض الصفات الإلهية إلى المعرفة التامة لماهية الأشياء؛ وسأفسر كل ذلك بمثال واحد، فلنفرض مثلاً ثلاثة أعداد، نريد لها رابعاً تكون نسبته إلى الثالث كنسبة الثاني إلى الأول. فالتجار لن يتوصلوا في ضرب الثاني بالثالث وهي قسمة الحاصل على الأول، لأنهم لم ينسوا بعد ما حفظوه عن معلمهم بدون أي برهان، أو لأنهم قد جربوا هذه العملية كثيراً وطبقوها على أعداد بسيطة جداً، أو بمقتضى برهان القضية 19 من الباب VII

لإقليدس، أي بالنظر إلى الخاصية المشتركة للأعداد المنتهية. أما فيما يتعلق بالأعداد البسيطة جداً فلسنا في حاجة إلى أية طريقة من هذه الطرق. قلو افترضنا مثلاً الأعداد 1، 2، 3، فإنه لن يغيب عن أحد أن العدد الرابع المناسب هو 6، ويحصل ذلك بمنتهى الوضوح، إذ أن النسبة التي نتركها بلمحة واحدة بين العددين الأول والثاني هي ذاتها التي تجعلنا نستنتج العدد الرابع.

القضية 41

النوع الأول من المعرفة هو علة البطلان (*falsitatis*) الوحيدة؛ أما المعرفة من النوع الثاني والثالث فهي حتماً صادقة (*vera*).

البرهان

قلنا في الحاشية السابقة إن المعرفة من النوع الأول تتضمن كل الأفكار المختلطة وغير التامة، وبالتالي (القضية 35) فهذه المعرفة هي علة البطلان الوحيدة. وقلنا من جهة أخرى إن المعرفة من النوع الثاني والثالث تتضمن الأفكار التامة؛ وعليه فهذه المعرفة (القضية 34) هي حتماً صادقة.

القضية 42

المعرفة من النوع الثاني والثالث، لا المعرفة من النوع الأول، هي التي تعلمنا التمييز بين الحق (*verum*) والباطل (*falso*).

البرهان

هذه القضية بديهية بذاتها. فعلا، إنَّ من يستطيع التمييز بين الحق والباطل يملك لا محالة فكرة تامة عن الحق والباطل، أي (الحاشية 2 للقضية 40) أنَّه يعرف الحق والباطل عن طريق النوع الثاني أو الثالث من المعرفة.

القضية 43

إنَّ من لديه فكرة صحيحة، يعلم في نفس الوقت أنَّ لديه فكرة صحيحة، ولا يمكنه أن يشكَّ في صدق معرفته.

البرهان

الفكرة الصحيحة (idea vera) هي الفكرة التي تكون تامة في الله من حيث إنَّه يُعلَّلُ (explicatur) بطبيعة النفس البشرية (لازمة القضية 11). لنفرض إنَّ أنَّ الفكرة التامة "1" توجد في الله، بوصفه يُعلَّلُ بطبيعة النفس البشرية. فمن الضروري أن توجد في الله فكرة عن هذه الفكرة وأن تكون نسبتها إلى الله على غرار نسبة الفكرة "1" (القضية 20، ذات البرهان الكلي). ولكن المفروض أنَّ الفكرة "1" تقتسب إلى الله بوصفه يُعلَّلُ بطبيعة النفس البشرية؛ وعلى ذلك لا بدَّ من انتماء فكرة الفكرة "1" إلى الله بنفس الصورة، أي (لازمة القضية 11) أنَّ هذه الفكرة التامة للفكرة "1" ستوجد في ذات النفس التي تملك الفكرة التامة "1". إذن فمن تكون لديه فكرة تامة، أي (القضية 34) من يعرف شيئا ما حقَّ المعرفة، تكون لديه في نفس الوقت فكرة تامة عن معرفته، وبعبارة أخرى (كما هو بديهي بذاته) تكون لديه معرفة صحيحة.

حاشية

لقد فسرت في حاشية القضية 21 ما هي فكرة الفكرة، لكن لا بد من ملاحظة أن للقضية السابقة جانباً من الوضوح بذاتها؛ إذ لا يجهل من يملك فكرة صحيحة أن الفكرة الصحيحة تنطوي على أقصى قدر من اليقين، فإن تكون لديك فكرة صحيحة لا يعني شيئاً آخر غير أن معرفتك للشيء هي معرفة كاملة أو أنها على أحسن ما يرام. والحق أنه ليس في وسع أحد أن يشك في ذلك. اللهم إلا إذا كان يعتقد أن الفكرة شيء صامت كالصورة في الإطار وليست ضرباً من ضروب التفكير، أعني ليست فعل الفهم ذاته. وأني لأسأل: من ذا الذي يمكنه أن يعلم أنه يفهم (intelligere) شيئاً ما إن لم يسبق له أن فهم هذا الشيء؟ أي: من ذا الذي يمكنه أن يعلم أنه متيقن من شيء ما إن لم يسبق له أن تيقن من هذا الشيء؟ ثم ما هو الشيء الذي يمكنه أن يكون أشد وضوحاً وبداهة من الفكرة الصحيحة حتى يكون معياراً للحقيقة؟ فكما أن باتكشاف النور يتقشع الظلام، فالحقيقة أيضاً إنما هي معيار ذاتها ومعيار للخطأ.

وهكذا يبدو لي أنني قد أجبت على الأسئلة الآتية: إذا كانت الفكرة الصحيحة تختلف عن الباطلة من جهة كونها تتفق مع الموضوع الذي تعكسه ليس إلا، فالفكرة الصحيحة لا تحتوي إذن على واقعية أو كمال أكثر من الفكرة الباطلة (باعتبار أن ما يميز بين الفكرتين هو العلامة الخارجية لا غير). وبالتالي فالإنسان الذي يملك أفكاراً صحيحة لا يميزه شيء عن الإنسان الذي لا يملك سوى أفكار باطلة؟ ثم من أين للناس هذه الأفكار الباطلة؟ وأخيراً كيف يمكن أن نعلم علم اليقين أن لدينا أفكاراً تتفق مع موضوعاتها؟ لقد سبق أن أجبت، كما قلت، عن هذه الأسئلة، ففيما يتعلق بالتباين الموجود بين الفكرة الصحيحة والفكرة الباطلة، أثبتت لنا القضية 35 أن العلاقة بينهما كعلاقة الوجود بالوجود. وقد بينت من جهة أخرى، بكامل الوضوح، أسباب البطلان

انطلاقاً من القضية 19 إلى حدّ القضية 35 وحاشيتها. ومن هنا يتجلى أيضاً الاختلاف الموجود بين الإنسان الذي يملك أفكاراً صحيحة وذلك الذي لا يملك غير أفكار باطلة. أمّا السؤال الأخير، وهو: من أين للإنسان أن يعلم أن لديه فكرة موافقة لموضوعها، فهذا أنا قد بينت بما فيه الكفاية، وزيادة على الكفاية، أن ذلك ينتج فحسب عن كونه يملك فكرة موافقة لموضوعها، أي عن كون الحقيقة إنّما هي معيار ذاتها. زد على ذلك أن أنفسنا، بوصفها تدرك الأمور على وجه الحقيقة، هي جزء من عقل الله اللّانهائي (اللزّمة القضية 11)، وبالتالي فالأفكار الواضحة المتميّزة التي تملكها النفس إنّما هي صادقة بالضرورة، شأنها شأن أفكار الله الصادقة بالضرورة أيضاً.

القضية 44

من طبيعة العقل (rationis) أن ينظر إلى الأشياء على أنّها ضرورية، لا على أنّها جائزة.

البرهان

من طبيعة العقل أن يدرك الأشياء حقّاً (القضية 41)، أي (البحيية 6، الجزء 1) كما هي في ذاتها، أعني (القضية 29، الجزء 1) باعتبارها ضرورية، لا جائزة.

اللزّمة 1

يتلو ذلك أن الخيال وحده يجعلنا ننظر إلى الأشياء على أنّها جائزة سواء في علاقتها بالماضي أو في علاقتها بالمستقبل.

مأشوية

سأشرح هنا بإيجاز في أي طرف يتم ذلك. لقد بينا أعلاه (القضية 17 مع لزمته) أن النفس تتخيل دائما الأشياء على أنها حاضرة، رغم أنها غير موجودة، ما عدا في صورة وجود أسباب تمنع وجودها الحاضر.

وبينما علاوة على ذلك (القضية 18) أنه إذا تأثر الجسم البشري مرة بجسمين خارجيين معاً، فما إن تتخيل النفس بعد ذلك أحد هذين الجسمين حتى تتذكر الآخر، بمعنى أنها ستعتبرهما حاضرين معاً، ما عدا في صورة وجود أسباب تمنع وجودهما الحاضر، ومن جهة أخرى لا يشك أحد أننا نتخيل أيضاً الزمان، وذلك لكوننا نتخيل أجساماً تتحرك بأكثر ببطء أو سرعة بعضها من البعض، أو بسرعة متساوية. ولنفرض الآن أن طفلاً رأى بالأمس للمرة الأولى محمداً في الصباح وعلياً في الظهر وقيساً في المساء، وأنه رأى اليوم من جديد محمداً في الصباح؛ فبديهي، من خلال القضية 18، أنه حالما يرى نور الصباح سيتخيل الشمس عابرة نفس الجزء من السماء الذي عبرته بالأمس، بمعنى أنه سيتخيل النهار كاملاً، فيتخيل محمداً مع الصباح، وعلياً مع الظهر، وقيساً مع المساء. أي أنه سيتخيل وجود عليّ وقيس في علاقة بالزمن المستقبل؛ وعلى العكس، فهو إذا رأى قيساً في المساء سينسب علياً ومحمداً إلى الزمن الماضي، فيتخيلهما مع تخيله للماضي؛ وسيزيد تخيله هذا رسوخاً كلما تعددت رؤيته لهم حسب نفس الترتيب. وإذا حصلت له مرة رؤية هند عوضاً عن قيس، فهو في الصباح الموالي سيتخيل مع تخيله للمساء تارة قيساً وطوراً هنداً، لا الاثنين معاً، على افتراض أنه رأى في المساء أحدهما فقط، لا الاثنين معاً. فخياله سيكون إذن متأرجحاً، وسيتخيل، مع

تخيله للعساء المقليل، أحدهما قارة والآخر طوراً، أي أنه لن ينتظر إلى أيٍّ منهما على أنه مستقبل ثابت، وإنما على أنه مستقبل محتمل، وسيحصل نفس التردد في الخيال سواء اعتبرنا الأشياء المتخيلة في علاقتها بالزمن الماضي أو بالزمن الحاضر؛ وبالتالي فإن الأشياء المتسوية إلى الماضي أو الحاضر أو المستقبل سنتخيلها جميعاً ممكنة.

اللزمنية 2

من طبيعة العقل أن ينتظر إلى الأشياء بوجه ما من منظور الأزل
(sub quadam aeternitatis specie).

البرهان

فعلاً، من طبيعة العقل أن ينتظر إلى الأشياء على أنها ضرورية، لا على أنها جائزة (القضية السابقة). وهو يدرك وجوب هذه الأشياء على وجه الحقيقة (القضية 41)، أي كما هي في ذاتها (البديهية 6، الجزء 1). ولكن (القضية 16، الجزء 1) وجوب هذه الأشياء لا يختلف عن وجوب طبيعة الله الأزلية. فمن طبيعة العقل إذن أن ينتظر إلى الأشياء على أنها تملك هذا النوع من الأزل. زد على ذلك أن مبادئ العقل هي معانٍ (القضية 38) تُفسّر ما هو مشترك بين جميع الأشياء، ولا تُفسّر (القضية 37) ماهية أي شيء جزئي، وبالتالي أنه لا بد لهذه المعاني أن تُصوّر بون أية علاقة بالزمن ومن جهة امتلاكها لنوع معين من الأزل.

القضية 45

كل فكرة جسم من الأجسام، أي كل فكرة شيء جزئي موجود بالفعل، إنما هي تنطوي بالضرورة على ماهية الله الأزلية الأمتنامية.

البرهان

تنطوي بالضرورة فكرة شيء جزئي موجود بالفعل على كل من ماهية هذا الشيء وجوده (لازمة القضية 8). ولا يمكن للأشياء الجزئية أن تتصور بدون الله (القضية 15، الجزء 1)، بل (القضية 6) لما كانت علّة هذه الأشياء هي الله منظوراً إليه من جهة الصفة التي لا تعدو هذه الأشياء ذاتها أن تكون أحوالاً لها، فإن أفكار هذه الأشياء تنطوي بالضرورة (البنائية 4، الجزء 1) على تصور هذه الصفة، أي (التعريف 6، الجزء 1) على ماهية الله الأزلية الأمتنامية.

ملاحظات

لا أعني هنا بالوجود الديمومة (durationem)، أي الوجود كما نتصوره على نحو مجرد وكنوع معين من الكم. إنني أتحدث عن طبيعة الوجود ذاتها، تلك التي تُحمل على الأشياء الجزئية. نظراً إلى لزوم عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الأحوال عن الوجود الأزلي للإله (انظر القضية 16، الجزء 1)، قلت إنني أتحدث عن طبيعة الأشياء الجزئية ذاتها، بما هي أشياء موجودة في

الله! إذ رغم أن ما يحدّد وجود كلّ واحد من هذه الأشياء على نمط معين هو شيء جزئي آخر، إلا أن القوة التي يمقتضاهما يستمرّ كلّ شيء في الوجود (in existendo Perseverat) تنتج عن الوجوب الأزلي لطبيعة الله. راجع ما يتعلق بهذه النقطة في لازمة القضية 24 من الجزء الأول.

القضية 46

إن معرفة ماهية الله الأزلية اللامتناهية، التي تنطوي عليها كلّ فكرة، معرفة تامة وكاملة.

البرهان

برهان القضية السابقة كلي، وسواء اعتبرنا شيئاً ما كجزء أو ككلّ فإن فكرته، سواء كانت فكرة الكلّ أو للجزء، تنطوي (القضية السابقة) على ماهية الله الأزلية اللامتناهية. وعلى ذلك فإن ما يقيم معرفة بماهية الله الأزلية اللامتناهية إنما هو مشترك بين جميع الأشياء، كما أنّه موجود في الجزء والكلّ على حدّ سواء؛ وبالتالي (القضية 38) فإن هذه المعرفة تكون معرفة تامة.

القضية 47

للنفس البشرية معرفة تامة بماهية الله الأزلية اللامتناهية.

البرهان

للنفس البشرية أفكار (القضية 22) تدرك بها ذاتها (القضية 23) وتدرك جسمها الخاص (القضية 19) و (اللزامة 1 للقضية 16، والقضية 17) أجساماً خارجية موجودة بالفعل؛ وبالتالي (القضيتان 45 و 46) فلديها معرفة تامة بماهية الله الأزلية اللامتناهية.

حاشية

ومن هنا نرى أن ماهية الله اللامتناهية وأزليته معلومتان من قبل الجميع. ومن جهة أخرى، لما كان كل شيء يوجد في الله وبه يتصور، فإنه يترتب على ذلك أنه يمكننا، انطلاقاً من هذه المعرفة، استخلاص عدد كبير جداً من النتائج التي يمكن معرفتها على نحو تام، وبالتالي صوغ ذلك الضرب الثالث من المعرفة الذي تحدثنا عنه في الحاشية الثانية للقضية 40، والذي سنفتح في الجزء الخامس مجالا للحديث عن سموه وفائدته، ومن جهة أخرى، إذا كانت معرفة الناس للإله ليست واضحة وضوح المعاني المشتركة، فمرد ذلك أنهم لا يستطيعون تخيل الله كما يتخيلون الأجسام، فقرنوا بين اسم الله وصور الأشياء التي تعوّوا رؤيتها، ولما تجددهم يقدرون على تجنب ذلك، نظراً إلى تأثيرهم المتواصل بالأجسام الخارجية، وبالتالي لا يتمثل معظم الأخطاء في غير أننا لا تطبق الأسماء على الأشياء بدقة. فعندما يقول بعضهم إن الخطوط التي ترسم من مركز الدائرة إلى محيطها غير متساوية، فلا شك أنه يعني بالدائرة شيئاً آخر غير ما يعنيه علماء الرياضيات. وفي نفس السياق، عندما يخطئ الناس في عملية حسابية، فإن الأعداد التي تكون في فكرهم هي غير الأعداد التي على الورق. لذلك فمن المؤكد أنهم لا يخطئون البتة إذا ما نظرنا

إلى فكرهم، إلا أنهم يخطئون في نظرنا لأننا نعتقد أن الأعداد التي في فكرهم هي ذاتها التي على الورق، ولو لم يكن الأمر كذلك ما اعتقدنا أنهم مخطئون، تماما كالشخص الذي سمعته منذ عهد قريب يصرخ قائلا إن منزله قد حلق فوق سحابة جاره، فلم أعتقد أنه على خطأ، لأن مقصوده قد بدا لي جليا. ومن هنا تنشأ أغلب الخصومات، أعني أن الناس لا يعيرون بدقة عن أفكارهم أو أنهم يسيئون فهم أفكار غيرهم. وفي الواقع، عندما يتناقض الناس أشد تناقض، فهم يفكرون في نفس الشيء أو يفكرون في أشياء مختلفة، فيكون ما يظنونه عند غيرهم من قبيل الخطأ أو الهذر على خلاف ما ذهب غي ظنهم.

القضية 48

ليس في النفس أية إرادة مطلقة أو حرة، بل يتحتم على النفس أن تريد هذا أو ذاك بمقتضى سبب يحدده سبب آخر، وهذا السبب يحدده بدوره سبب آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية.

المسألة

النفس حال معين ومحدد من أحوال الفكر (القضية 11)، وبالتالي (اللائمة 2 للقضية 17، الجزء الأول) فإنه يتعذر عليها أن تكون علة حرة، بمعنى أنه يتعذر أن يكون لديها قدرة مطلقة على أن تريد أو لا تريد؛ بل ينبغي أن يحدد إرادتها لهذا الشيء أو ذاك سبب ما (القضية 28، الجزء 1)، وهذا السبب يحدده أيضا سبب آخر، وهذا السبب يحدده بدوره سبب آخر، إلخ.

مقدمة

يُبرهن بنفس الطريقة على أنه لا يوجد في النفس أية ملكة مطلقة للفهم والرغبة والحب إلخ. ويترتب على ذلك أن هذه الملكات وما ماثلها إما هي محض أوهام وإما أنها مجرد كائنات ما وراثية، أي مجرد كليات تعودنا صوغها انطلاقاً من الأشياء الجزئية. وهكذا فإن نسبة الذهن والإرادة إلى فكرة جزئية أو إلى إرادة جزئية هي كنسبة "الحجرية" إلى هذا الحجر أو ذاك، أو كنسبة الإنسان إلى محمد وعلي. أما السبب الذي جعل الناس يعتقدون أنفسهم أحراراً فلقد أوضحناه في تذييل الجزء الأول. ولكن قبل المواصله تجدر الملاحظة هنا أنني أعني بالإرادة ملكة الإثبات والتفني، لا الرغبة؛ إنني أعني، كما قلت، الملكة التي تسمح بإثبات أو نفى ما هو حق أو باطل، لا الرغبة التي تجعل النفس تشتهي الأشياء أو تنفر منها.

ويعد إثبات أن هذه الملكات هي معان كلية لا تتميز عن الأشياء الجزئية التي تساعد على إنشائها، يجدر البحث فيما إذا كانت الإرادات الجزئية ذاتها شيئاً آخر غير أفكار الأشياء ذاتها. يجدر البحث، كما قلت، فيما إذا كان يوجد في النفس إثبات أو نفى آخر غير ذلك الذي تتضمنه الفكرة بما هي فكرة؛ انظروا، فيما يتعلق بهذه النقطة، القضية الموالية، وأيضاً التعريف 3 من الجزء 2، حتى لا تجعلوا من الفكر جملة من الرسوم (picturas)؛ ذلك أنني لا أعني بالأفكار صوراً مثل التي تتكون في قعر العين أو، إن شئنا، وسط الدماغ، بل هي تصورات من تصورات الفكر.

القضية 49

ليس في النفس أية إرادة (volitio)، أعني أي إثبات أو نفى، عدا ما تنطوي عليه الفكرة بما هي فكرة.

البرهان

ليس في النفس (القضية السابقة) أية ملكة مطلقة للإرادة وعدم الإرادة، وإنما لديها إرادات جزئية لا غير، أي هذا الإثبات أو ذلك، وهذا النقي أو ذاك. فلتصور إذن بعض الإرادات الجزئية، مثلا ضرب من ضروب التفكير تثبت النفس من خلاله أن زوايا المثلث الثلاث مساوية لزائيتين قائمتين. إن هذا الإثبات ينطوي على تصور - أي على فكرة - المثلث، أعني أنه يتعذر تصوّره بدون فكرة المثلث؛ إذ سيان أن نقول: يجب أن تنطوي "أ" على تصور "ب"، أو أن نقول: يتعلّر تصور "أ" بدون "ب"، ثم إنه لا يمكن أيضا لهذا الإثبات (البدئية 3) أن يوجد بدون فكرة المثلث. وعليه فهذا الإثبات لا يمكنه أن يوجد ولا أن يتصور بدون فكرة المثلث، وعلاوة على ذلك، يجب على فكرة المثلث هذه أن تنطوي على هذا الإثبات ذاته، ألا وهو أن زوايا المثلث الثلاث مساوية لزائيتين قائمتين. لذلك، إن عكسنا الآية، فإن فكرة المثلث لا يمكنها أن توجد ولا أن تتصور بدون هذا الإثبات، وبالتالي (التعريف 2) ينتمي هذا الإثبات إلى ماهية فكرة المثلث، وهو ليس شيئا آخر غير هذه الفكرة. وما قلناه عن هذه الإرادة (التي خطر لنا أن اخترناها) يمكن قوله أيضا عن أية إرادة أخرى، أعني أنها ليست شيئا آخر غير الفكرة.

الضرورة

الإرادة والعقل شيء واحد لا غير.

البرهان

ليس العقل والإرادة شيئا آخر غير الأفكار والإرادات الجزئية (القضية 48

مع حاشيتها). وبما أن الإرادة الجزئية والفكرة الجزئية شيء واحد لا غير (القضية السابقة) فالإرادة والعقل شيء واحد لا غير.

حاشية

وبهذه الصورة تكون قد قضينا على العلة المنسوبة عادة إلى الخطأ. ولقد سبق أن بينّا، فضلا عن ذلك، أن البطلاق لا يعنى أن يكون مجرد عدم تطوي عليه الأفكار المتورة المختلطة. لذلك فإن الفكرة الباطلة، بما هي باطلة، لا تتطوي على اليقين. وعلى هذا فعندما نقول عن شخص ما إنه يرتاح إلى الكذب ولا يواجهه بالشك، فنحن لا نقول مع ذلك إنه على يقين، بل إنه لا يشك، أو إنه يرتاح إلى الأفكار الباطلة نظراً إلى انتفاء الأسباب التي قد تجعل مخيلته متذبذبة. انظر في هذا الشأن حاشية القضية 44؛ فمهما كان تمسك الإنسان بالأفكار الباطلة شديداً، إلا أننا لن نقول أبداً إنه على يقين. ذلك أن المقصود باليقين عندنا هو شيء إيجابي (راجع القضية 43 وحاشيتها)، لا عدم الشك (dubitacionis privationem). ونعني بعدم اليقين (certitudinis privationem) البطلاق. ولكن بقي أن أقدم بعض التنبهات لمزيد تفسير القضية السابقة، وأن أجيب على الاعتراضات التي قد توجه إلى المذهب الذي هو مذهبنا؛ ورأيت أخيراً، رفعا لكل تشكك، أن أشير إلى بعض المزايا العملية لهذا المذهب؛ إنني أقول: بعض المزايا، لأن المزايا الرئيسية ستترك بصورة أفضل من خلال ما سنقوله في الجزء الخامس.

أبداً إذن بالنقطة الأولى، وأرجو القراء أن يميزوا بعناية بين الفكرة (Ideam) من جهة، وأعني بها تصوراً من تصورات النفس، وصور الأشياء (Imagines rerum) التي نتخيلها، من جهة ثانية. وينبغي أيضاً أن يميزوا بدقة

بين الأفكار والكلمات التي تشير بها إلى الأشياء. ونظرا إلى كون العديد من الناس قد خلطوا خطأ تاما بين الصور والكلمات والأفكار، أو لم يميزوا بعضها عن بعض بكامل العناية، أو أخيراً لم يولوا هذا التمييز الحذر اللازم، فلقد كانوا على جهل تام بنظرية الإرادة التي لا غنى عن معرفتها، سواء للنظر العقلي أو من أجل التنظيم المحكم للحياة. وقملاً، إن أولئك الذين يربطون الأفكار إلى صور تنشأ فيها عقد الالتقاء بالأجسام يعتقدون أن أفكار الأشياء التي يتعزّز عليها تكوين أية صورة مماثلة لها ليست أفكاراً، بل هي مجرد أوهام نخلقها بمحض إرادتنا الحرة؛ وعلى ذلك فهم ينظرون إلى الأفكار على أنها رسوم صامتة على لوحة، ولا يسمح لهم ذهنهم الملبد بالأحكام المسبقة بإدراك أن الفكرة تنطوي، من حيث هي فكرة، على الإثبات أو النفي، أما أولئك الذين يخلطون بين الكلمات والفكرة أو بين الكلمات والإثبات الذي تنطوي عليه الفكرة، فإنهم يعتقدون أنه يوسعهم إرادة ما يتنافى مع شعورهم، بينما لا يعمو إيجابهم أو نفيهم للشيء المنافي لشعورهم أن يكون مجرد كلام. إلا أنه من السهل أن نتخلّى عن هذه الأحكام المسبقة، شريطة أن ننقبه إلى طبيعة الفكر التي لا تنطوي بأي وجه من الوجوه على مفهوم الامتداد، وأن نفهم من هذا المنطلق بوضوح أن الفكرة (إذ هي حال من أحوال الفكر) لا تتمثل في صورة شيء ما ولا في كلمات ما، ذلك أن كل ما تتألف منه ماهية الكلمات والصور هي الحركات الجسمية التي لا تنطوي بأي وجه من الوجوه على مفهوم الفكر.

يمكن الاكتفاء بهذه التنبيهات المختصرة؛ لأنّقل إذن إلى الاعتراضات المشار إليها أعلاه. فالاعتراض الأول يرى أنه من المحقّق أن الإرادة تمتدّ أبعد من الزمن وأنها بالتالي مختلفة عنه. أما ما يفسّر اعتقاد بعضهم أن الإرادة تمتدّ أبعد من الزمن، فهو قولهم إن التجربة تخبرنا بأننا لسنا في حاجة إلى ملكة التصديق (assentiendi)، أي للإثبات والنفي، أعظم من التي

لينا كي نصدق بعدد لا محدود من الاشياء التي لا ندركها، بيد أننا قد نكون في حاجة إلى ملكة فهم أعظم. إذن تتميز الإرادة عن الذهن من جهة كونه محدودا، في حين أنها غير محدودة. والاعتراض الثاني الذي قد يوجه إلينا فهو أن أوضح ما تلقّنه التجربة هو قدرتنا على تعليق الحكم بحيث لا نصدق بالاشياء التي ندركها؛ وهذا ما يثبت كونا لا نقول عن أي شخص إنه مخطئ من جهة إدراكه لشيء ما، وإنما فحسب من جهة كونه يصدق أو يرفض التصديق. قال الشخص الذي يتصور (fingit) مثلا فرسا مجنحا إنما هو لا يسلم مع ذلك بوجود فرس مجنح، أعني أنه ليس مع ذلك مخطئا، اللهم إلا إذا سلم في نفس الوقت بوجود فرس مجنح. يبدو إذن أن التجربة لا تلقّنا شيئا أوضح من كون الإرادة، أعني ملكة التصديق إنما هي إرادة حرة و متميزة عن ملكة الفهم. وقد يوجه إلينا اعتراض ثالث، وهو أنه لا يحتوي أي إثبات على أكثر واقعية من إثبات آخر؛ بمعنى أن القدرة التي نحتاج إليها لإثبات أن الحق حق ليست أعظم على ما يبدو من القدرة التي نحتاج إليها لإثبات أن الباطل حق؛ بينما ندرك، على العكس، أن فكرة ما قد تتضمن أكثر واقعية، أي أكثر كمالا، من فكرة أخرى؛ فيقدر ما تفوق الاشياء بعضها البعض، تكون أفكارها أيضا أكمل بعضها من بعض؛ فما هو ذا تباين آخر بين الإرادة والذهن، والاعتراض الرابع الذي قد يوجه إلينا من إن كان الإنسان لا يتصرف بإرادة حرة، فماذا سيحدث لو وجد نفسه في حالة توازن مثل حمار يوزيدان؟ هل سيهلك جوعا وعطشا؟ لو سلمت بذلك فمعناه أنني أتصور حمارا أو تمثال إنسان جامد؛ وإن نقيت ذلك فمعناه أن هذا الإنسان يتحكم في نفسه وأن لديه بالتالي القدرة على السبر وعلى أن يفعل ما يريد.

قد توجد اعتراضات أخرى، إلا أنني لست مطالبا هنا بإدراج أحلام كل إنسان، لذلك لن أعنى إلا بالإجابة على الاعتراضات الأربعة السابقة، وسأختصر القول قدر الإمكان.

ففيما يتعلق بالاعتراض الأول، إنني أسلم بأن الإرادة تمتد أبعد من الذهن إذا كان المقصود بالذهن الأفكار الواضحة والمتميزة لا غير؛ ولكنني لا أسلم بأن الإرادة تمتد أبعد من الإدراكات، أي من ملكة التصور (concupiendi facultatem)، وفي الحقيقة إنني لا أرى لماذا نقول عن قوة الإرادة إنها غير محدودة ولا نقول ذلك عن القوة الحاسة (sentiendi facultas)، إذ كما أننا نستطيع، بنفس قوة الإرادة، إثبات عدد لا محدود من الأشياء (الواحد تلو الآخر، بالتأكيد، لأننا لا نستطيع إثبات عدد لا محدود من الأشياء معاً)، فنحن نستطيع أيضاً، بنفس القوة الحاسة إحساس - أعني إدراك - عدد لا محدود من الأجسام (الواحد تلو الآخر طبعاً). وإذا قيل إنه يوجد عدد لا محدود من الأشياء التي لا نستطيع إدراكها فإن ردي سيكون: إننا لا نستطيع إدراك هذه الأشياء عن طريق أي تفكير، ومن ثم عن طريق أية قوة إرادية. لكن، كما سيليح بعضهم، لو كان الله يريد أن يجعلنا ندرك هذه الأشياء، لكان من الأجدر حقاً أن يمنحنا قوة إدراك أعظم، لا قوة إرادة أعظم من التي منحها لنا؛ وبعبارة أخرى، لو كانت رغبة الله أن يجعلنا ندرك عدداً لا محدوداً من الكائنات الأخرى، لوجب بطون شك أن يمنحنا ذهناً أعظم من الذي منحنا إيانا، كي يشمل ذلك الكمّ اللامحدود من الكائنات، لا أن يمنحنا فكرة أعم للوجود. ولقد بينا أن الإرادة كيان كلي (esse universale)، بمعنى أنها فكرة نفساً بها كل الإرادات الجزئية، أي ما هو مشترك بينها جميعاً. ولما ذهب ببعضهم الظن أن هذه الفكرة المشتركة أو الكلية لجميع الإرادات هي ملكة، فلا غرو إطلاقاً أن يقال إن هذه الملكة تمتد إلى ما لا نهاية، متجاوزة حدود الذهن. إذ يقال الكلي عن فرد وعن أفراد كثيرين وعن عدد لا محدود من الأفراد على حد سواء.

وأجيب عن الاعتراض الثاني بإنكار أن لدينا قدرة حرة على تعليق الحكم؛ إذ عندما نقول إن شخصاً ما يطلق حكمه فكل ما نقصده هو أنه يرى

أنه لا يدرك بعض الأشياء إدراكاً تاماً، فتعلق الحكم هو إذن في الواقع إدراكه لا إرادة حرة. ولزيد الفهم لنفرض أن طفلاً يتخيل فرساً مجتاًحاً ولا يتخيل شيئاً غير ذلك، فيما أن هذا التخيل ينطوي على وجود الفرس (لازمة القضية 17)، كما أن الطفل لا يدرك شيئاً ينفي وجود الفرس، فإن هذا الطفل سيعتبر الفرس حتماً موجوداً، وإن يستطيع الشك في وجوده، مع أنه ليس على يقين من ذلك. إننا نختبر ذلك كل يوم، ولا أظن أن أحداً يعتقد أن لديه، وهو يحلم، قدرة حرة على تعليق حكمه عن الشيء الذي يحلم به وأن يتصرف بنحو يجعله لا يحلم بما يحلم؛ إلا أنه قد يحدث لنا، أثناء النوم، أن نطق حكماً، مثلاً عندما نطم أننا نحلم. إنني أسلم الآن بأنه لا أحد يخطئ بوصفه مدركاً، أي أن تخيلات النفس، إذا ما اعتبرت في ذاتها، لا تنطوي على أي خطأ (انظر حاشية القضية 17)؛ ولكنني لا أسلم بأن الإنسان لا يثبت شيئاً بوصفه مدركاً؛ إذ ما معنى أننا ندرك فرساً مجتاًحاً، إن لم يكن المقصود بذلك أننا نثبت للفرس جناحين؟ فلو كانت النفس لا تدرك شيئاً آخر غير الفرس المجتّح لاعتبرته كما لو كان ماثلاً أمامها ولما رأت داعية للشك في وجوده ولا قوة تدفعها إلى عدم التصديق، إلا في صورة ما إذا اقترن تخيل الفرس المجتّح بفكرة تنفي وجود هذا الفرس، أو إذا أدركت النفس أن فكرة الفرس المجتّح فكرة غير تامة، وإذاًك فإمّا أنها ستنتفي حتماً وجود هذا الفرس، أو أنها ستشك حتماً في وجوده.

وبناء على ذلك أعتقد أنني قد أجبت مسبقاً عن الاعتراض الثالث: فالإرادة شيء كلي ينطبق على جميع الأفكار ويدل فقط على ما هو مشترك بينها جميعاً؛ وبعبارة أخرى، إنها الإثبات الذي لا بد من وجود ماهيته التامة - المتصورة هكذا على نحو مجرد - في كل فكرة، وهي من هذا المنظور فقط في جميع الأفكار بنفس النحو؛ لكنها ليست كذلك باعتبارها مؤلفة لماهية الفكرة، إذ تختلف، في هذا السياق، الإثباتات الجزئية بعضها عن البعض بقدر اختلاف الأفكار ذاتها، فمثلاً يختلف الإثبات الذي تنطوي عليه فكرة الدائرة

عن الإثبات الذي تنطوي عليه فكرة المثلث بقدر اختلاف فكرة الدائرة عن فكرة المثلث. ثم إنني أكذب إطلاقاً أننا بحاجة إلى نفس قوة التفكير كي تثبت أن الحق حق، وأن الحق باطل؛ ذلك أن نسبية هذين الإثباتين أحدهما إلى الآخر إنما هي، من منظور الفكر، كنسبية الوجود إلى اللاوجود، إذ ليس في الأفكار شيء إيجابى مؤلف للبطلان (راجع القضية 35 مع حاشيتها، وحاشية القضية 47). لذا تجدر الإشارة هنا بالذات إلى كوننا سرعان ما نخطئ عندما نخلط بين المعاني الكلية والمعاني الجزئية، بين الموجودات العقلية والمجردات من جهة والواقع من جهة أخرى.

وأما بخصوص الاعتراض الرابع، فإنني أسلم تماماً بأن الإنسان الموجود في مثل ذلك الوضع من التوازن (أي أنه لا يدرك شيئاً آخر غير الجوع والعطش، بينما يكون الطعام والشراب على مسافة واحدة منه) سيهلك جوعاً وعطشاً. قد أسأل: أليس من الأجدر أن نعتبر مثل هذا الإنسان حماراً، لا إنساناً؟ أقول إنني أجهل ذلك، تماماً كما أجهل كيف ينبغي أن تكون نظرتنا إلى الإنسان الذي يشفق نفسه، وإلى الأطفال والبلهاء والمجانين. لم يبق إلا أن أبين كم تقيدها معرفة هذا المذهب في الحياة، ويبرز ذلك بسهولة مما تقدم:

(1) إنه مفيد من جهة كونه يخبرنا أننا نتصرف بمشيئة الله وحدها، وأنها من نوع الطبيعة الإلهية، سيما عندما نقوم بأعمال أكمل ونعرف الله أكثر فأكثر. وفضلاً عن كون هذا المذهب يبعث الاطمئنان في النفس فهو يمتاز أيضاً بكونه يعلمنا فيما تتمثل سعادتنا (أو غيبتنا القصوى)؛ ألا وهي في معرفة الله وحدها، وهذا من شأنه أن يحرّضنا على القيام بالأعمال التي عليها الحب والتقوى. وعلى ذلك ندرك بوضوح كم يبتعد عن التقدير الصحيح للفضيلة أولئك الذين يترقبون من الله جزاء عظيم على فضيلتهم ومآثرهم، وأيضاً على أشدّ خضوعهم، كما لو لم تكن خدمة الله والفضيلة نفسها هما السعادة وهما الحرية القصوى.

(2) إنه مفيد من جهة كونه يعلم كيف يجب أن نتصرف إزاء حدثان الدهر، أي إزاء الأمور التي لا قدرة لنا عليها، وبعبارة أخرى إزاء الأشياء التي لا تنتج عن طبيعتنا! أعني: أن نترقب ونتحمل بنفس معتدلة كلا وجهي النصيب، إذ تلزم جميع الأشياء عن قرار الله الأزلي بنفس الضرورة التي يلزم بها عن ماهية المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لزائتين قائمتين.

(3) هذا المذهب مفيد للحياة الإجتماعية من جهة كونه يعلم ألا نكره أحدا، ألا نملك أحدا، ألا نهزأ بأحد، ألا نقضب على أحد وألا نحسد أحدا، ويعلم هذا المذهب أيضا أنه ينبغي على كل واحد أن يرضى بما لديه وأن يساعد غيره، لا بشفقة أنثوية ولا بتحيز أو وفق معتقد باطل، وإنما بتوجيه من العقل وحده، أي وفق ما تتطلبه الظروف والأوضاع، كما سأتبين ذلك في الجزء الرابع

(4) وهذا المذهب عظيم الفائدة أيضا بالنسبة إلى المجتمع عامة، بما هو يدلّ على الشروط التي تقتضيها سياسة المواطنين وقيادتهم، وذلك ليس ليصبحوا عبيدا وإنما ليحققوا أفضل أعمالهم بحرية.

وهكذا فقد أنهيت ما عزمتم على بحثه في هذه الحاشية، وإني أضع حدا هنا لهذا الباب الثاني، الذي أعتقد أنني فسرت فيه طبيعة النفس البشرية وخصائصها بإسهاب وبالوضوح الكافي الذي تسمح به صعوبة الموضوع، وأعتقد أيضا أنني قدّمتم عرضا قد يستخلص منه العديد من النتائج الثمينة والمفيدة للغاية، والتي لا متبوعة عن معرفتها. كما سأتيت ذلك في مجال لاحق.

الجزء الثالث

في أصل الانفعالات وطبيعتها

إنَّ معظم الذين كتبوا عن الانفعالات وعن السلوك البشري يبدو كأنهم يعالجون أموراً خارجة عن الطبيعة، لا أموراً تسيّر وفقاً لقوانين الطبيعة العامة؛ بل يبدو أنهم يتصورون الإنسان في الطبيعة كما لو كان بؤلة داخل بؤلة. وفعلاً، إنَّهم يعتقدون أنَّ الإنسان يخلُ بنظام الطبيعة أكثر ممَّا ينساق له، وأنَّ له سلطاناً مطلقاً على أفعاله الخاصة ولا يخضع إلاً لنفسه. وعلى هذا قرأهم يبحثون عن سبب عجز الإنسان وتقلُّبه، لا في قوَّة الطبيعة الكلية، وإنَّما في عيب من هيوب الطبيعة البشرية؛ لذلك تجدُّهم ييكونها ويهزقلون بها ويمقتولها أو - في الغالب - يحققون عليها. ويُعدُّ من صنف الآلهة ذلك الذي يقدر على لوم النفس البشرية العاجزة بأكثر فصاحة وبراعة.

لا جرم، إنَّ نوايغ الإنسانية (الذين تعترف لكَهم ومهارتهم بالفضل العظيم) لم يتخلَّوا عن تأليف العديد من الأمور الجميلة المتعلِّقة بتوجيه الحياة توجيهها سرياً وعن تقديم نصائح

كلها حصة للبشر. أما عن تحديد طبيعة الانفعالات وقوتها وما تستطيع النفس من جهتها للتحكم فيها، فهذا لم يتطرق إليه أحد فيما أعلم. وهي الحقيقة إن ليكارت، الذي ذاع صيته كثيرا، قد حاول - رغم تسليمه بسلطان النفس المطلق على أفعالها - أن يفسر الانفعالات البشرية بظلال الأولى وأن يبين في الوقت نفسه بأي وجه يمكن أن يكون للنفس سلطان مطلق على الانفعالات. بيد أنه لم يبين، في رأبي، سوى توغل فكره العظيم، كما سلّيت ذلك في أولاته.

أما الآن، فأريد الرجوع إلى أولئك الذين يفضلون كره الانفعالات والأعمال الإنسانية والاستهزاء بها على معرفتها. إلى أولئك سيبدو بالتأكيد غريبا أن أشرع في بحث محبوب الناس وعمايتهم على طريقة علماء الهندسة، وأن أوجب في البرهنة بيقين الاستدلال على ما لم ينفكوا يعلنون عن مناقضته للعقل وطلانه وحلله وقطاعته. ولكن ها هو ذا دليلي: لا شيء مما يحدث في الطبيعة يمكن أن ينسب إلى عيب كامن فيها؛ إذ الطبيعة هي هي على الدوام، وفضيلاتها وقوتها على الفعل واحدة، وهي ذاتها في كل مكان، أي أن قوانين الطبيعة وقواعدها التي تحدث بمقتضاها الأشياء، تنتقل من شكل إلى آخر هي نفسها دائما وفي كل مكان. وفيما لذلك ينبغي أن يكون المنهج السليم لمعرفة طبيعة الأشياء، مهما كانت هذه الأشياء، نفس المنهج، أعني منهجا ينطلق دائما من قوانين الطبيعة وقواعدها الكلية. وهكذا فإنّ انفعالات الكراهية والغضب والجسد وما إليها، إذا ما اعتبرت في ذاتها، تسمى وفقا لنفس الضرورة ونفس الفضيلة الطبيعية التي تسيطر عليها الأشياء الجزئية الأخرى. وبناء على ذلك فإنّ لهذه الانفعالات عللا محددة تسمح بمعرفتها بوضوح، ولها خصائص معينة تجبر معرفتها، شأنها شأن أي موضوع آخر نتمتع بمجرد تأمله. لذلك سعالج طبيعة الانفعالات وقوتها وما للنفس من سلطان عليها وفقا لنفس المنهج الذي توخّيته سابقا في الجزئين المتعلقين بالإله وبالنفس، وسأنتظر إلى الأفعال والشهوات الإنسانية كما لو كان الأمر يتطرق بخطوط وسطوح ومجسمات.

تصنيفات

I - أَسْمَى عِلَّةً تَامَةً (Causam adaequatam) العِلَّةُ الَّتِي يُمْكِنُ، مِنْ خِلَالِهَا، إِدْرَاكُ مَعْلُولِهَا بِوَضُوحٍ وَتَمَيُّزٍ؛ وَأَسْمَى عِلَّةً غَيْرَ تَامَةٍ (Inadaequatam)، أَوْ جُزْئِيَّةً (partialem)، تِلْكَ الَّتِي لَا نَسْتَطِيعُ مَعْرِفَةَ مَعْلُولِهَا بِهَا وَحْدَهَا.

II - أَقُولُ إِنَّهُ نَفْعَلُ عِنْدَمَا يَحْدُثُ فِي دَاخِلِنَا أَوْ خَارِجِنَا شَيْءٌ نَكُونُ حُلَّتَهُ التَّامَةَ، أَيْ (التَّعْرِيفُ السَّابِقُ) عِنْدَمَا يَنْتِجُ عَنْ طَبِيعَتِنَا، فِي دَاخِلِنَا أَوْ خَارِجِنَا، شَيْءٌ يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ بِوَضُوحٍ وَتَمَيُّزٍ مِنْ خِلَالِ ذَاتِهِ وَحْدَهَا. وَعَلَى الْعَكْسِ، أَقُولُ إِنَّهُ نَنْفَعُلُ عِنْدَمَا يَحْدُثُ فِي دَاخِلِنَا أَوْ يَنْتِجُ عَنْ طَبِيعَتِنَا شَيْءٌ لَسْنَا سَوَى عِلَّتِهِ الْجُزْئِيَّةِ.

III - (أَعْنِي بِالْإِنْفِعَالَاتِ (affectus) تَأَثُّرَاتِ الْجِسْمِ (Corporis affectiones) الَّتِي تَزْدَادُ بِهَا قُوَّةُ الْفِعْلِ فِيهِ أَوْ تَنْقُصُ، وَتُعَاوَنُ أَوْ تُعَاكِلُ، وَكَذَلِكَ أَفْكَارُ هَذِهِ التَّأَثُّرَاتِ.

عِنْدَمَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَكُونَ الْعِلَّةُ التَّامَةُ لِبَعْضِ هَذِهِ الْإِنْفِعَالَاتِ، فَإِنَّ مَا أَعْنِي أَذَلِكَ بِالْإِنْفِعَالِ هُوَ الْفِعْلُ (actionem)؛ وَأَعْنِي بِهِ فِي الْحَالَاتِ الْآخَرَى الْهَوَى (passionem).

مصادرات

I - يُمْكِنُ لِلْجِسْمِ الْبَشَرِيِّ أَنْ يَتَأَثَّرَ بِطَرِيقٍ شَتَّى تَزِيدُ فِي قُوَّةِ فِعْلِهِ أَوْ تَنْقُصُ مِنْهَا، وَأَيْضًا بِطَرِيقٍ أُخْرَى لَا تَجْعَلُ مِنْ قُوَّةِ فِعْلِهِ قُوَّةً أَعْظَمَ وَلَا أَصْفَرَ.

تَقُومُ هَذِهِ الْمَصَابِرَةُ أَوْ الْبِدِيهِيَّةُ عَلَى الْمَصَابِرَةِ I وَعَلَى الْمُلْخُونَتَيْنِ 5 وَ 7 الْآلِيَتَيْنِ يَمُدُّ الْقَضِيَّةَ 13 مِنَ الْجُزْءِ II.

II - يمكن أن يطرأ على الجسم البشري العديد من التحولات وأن يستبقي مع ذلك انطباعات أو آثار الأشياء (راجع في هذا الموضوع المصادرة 5، الجزء II) وبالتالي صور الأشياء ذاتها (راجع تعريفها في حاشية القضية 17، الجزء II).

القضية 1

تكون النفس فاعلة في بعض الأمور ومنفصلة في أمور أخرى، أعني: تكون النفس فاعلة بالضرورة في بعض الأمور بوصفها تملك أفكارا تامة، وتكون منفصلة بالضرورة في أمور أخرى بوصفها تملك أفكارا غير تامة.

البوهان

إن أفكار كل نفس من النفوس الإنسانية بعضها تام وبعضها الآخر مبتور ومختلط (حاشيتا القضية 44، الجزء II). لكن الأفكار التامة في نفس شخص من الأشخاص تكون تامة في الله بوصفه يؤلف ماهية هذه النفس (لازمة القضية 2، الجزء II)، والأفكار التي تكون في النفس غير تامة إنما هي تامة في الله (نفس اللازمة)، لا من حيث أنه يؤلف ماهية هذه النفس فصعب، بل أيضا من حيث أنه يتضمن في ذاته في نفس الوقت أنفس الأشياء الأخرى، وبالإضافة إلى ذلك، يجب أن ينتج حتما عن وجود فكرة ما معلول ما (القضية 36، الجزء I)، كما أن الله هو العلة التامة لهذا المعلول (التعريف 1)، لا من حيث هو لا متناه، وإنما باعتباره متناها بالفكرة المنكورة (القضية 9، الجزء II)؛ فأنفسنا إذن (التعريف 2)، من حيث أن لديها أفكارا تامة، فاعلة بالضرورة. كانت هذه النقطة الأولى.

ومن جهة أخرى، إنَّ كلَّ ما ينتج حتماً عن الفكرة التي تكون تامة في الله، لا من حيث أنَّه يتضمَّن نفس إنسانٍ معيَّن فحسب، بل من حيث أنَّه يتضمَّن في الوقت ذاته نفوس أشياء أخرى، إنَّما نفس هذا الإنسان ليست علَّة تامة له، بل هي علَّة الجزئية لا غير (نفس اللازمة، القضية 11، الجزء II)؛ وبناءً على ذلك (التعريف 2) فإنَّ النفس، من حيث أنَّ لديها أفكاراً غير تامة، منفصلة بالضرورة. كانت هذه النقطة الثانية، فانفسنا إذن، إلخ.

اللازمة

يترتب على ذلك أنَّه بقدر ما يكون للنفس من أفكار غير تامة فهي تكون خاضعة لانفعالات أكثر، وعلى العكس، بقدر ما يكون لديها من أفكار تامة فهي تكون قاطعة.

القضية 2

لا الجسم يستطيع أن يدفع النفس إلى التفكير، ولا النفس تستطيع أن تدفع الجسم إلى الحركة أو السكون أو إلى أيِّ حال آخر (إن وجد حال آخر).

البرهان

إنَّ علَّة جميع أحوال التفكير هي الله من حيث أنَّه شيء مفكِّر، لا من حيث أنَّه يعلَّل بصفة أخرى (القضية 6، الجزء II). وعلى ذلك فإنَّ ما يدفع النفس إلى التفكير هو حال من أحوال الفكر، وليس الامتداد، أي (التعريف 1، الجزء II) أنَّه ليس جسماً؛ كانت هذه النقطة الأولى.

ومن جهة أخرى، لا بدّ أن تتأثّر حركة الجسم وسكونه عن جسم آخر يكون مدفوعاً بدورته إلى الحركة والسكون من قبل جسم آخر! ونقول، بوجه الإطلاق، إنّ كلّ ما يطرأ على الجسم فهو ناجم عن الله بوصفه متأثراً بحال من أحوال الامتداد، لا بحال من أحوال الفكر (نفس القضية 6، الجزء II)؛ بمعنى أنّه لا يمكنه أن يتأثّر عن النفس التي هي (القضية 2، الجزء II) حال من أحوال الفكر؛ كانت هذه النقطة الثانية. إذن فلا الجسم، إلخ.

حاشية

يُذكرُ ذلكَ بِأكثر وضوح من خلال ما قيل في حاشية القضية 7 من الجزء الثاني، والتي مفادها أنّ النفس والجسم شيء واحد لا غير، يُتصوّر تارة من جهة صفة الفكر وطورا من جهة صفة الامتداد. ويترتب على ذلك أنّ نظام الأشياء، أي ترابطها، يكون هو ذاته سواء تصوّرنا الطبيعة من جهة هذه الصفة أو تلك، كما يترتب، من هذا المنطلق، أنّ نظام أفعال جسمنا وانفعالاته موافق بالطبع لنظام أفعال النفس وانفعالاتها. إنّ ذلك بديهي أيضا من خلال طريقة استدلالنا على القضية 12 من الجزء الثاني.

ورغم أنّ طبيعة الأشياء لا تسمح بالشك في هذا الموضوع، إلّا أنّه يصعب في اعتقادي حمل الناس على تأمل هذه النقطة بفكر غير منحاز، اللهم إلّا إذا أثبت هذه الحقيقة إثباتا يقوم على التجربة؛ سيما أنّهم على يقين بشديد من أنّ الجسم يتحرك تارة ويسكن أطوارا بأمر من النفس وحدها، ويأتي أفعالا أخرى عديدة تتوقف على إرادة النفس وحدها وعلى مهارتها في التفكير. وفي الحقيقة لم يبيّن أحد بعد ما يقدر عليه الجسم، أي أنّ التجربة لم تكشف لأحد بعد ما يستطيع الجسم أدائه وما لا يستطيعه بقوانين الطبيعة وحدها - من حيث هي جسمانية فحسب - وبدون تكليف من النفس. فعلا، ليس لأحد من المعرفة الدقيقة بتركيب الجسم ما يمكنه من تفسير جميع وظائفه؛ ولست

بحاجة إلى أن أشير هنا إلى ما يلاحظ في البهائم من بصيرة تفوق بصيرة البشر بكثير، وإلى ما يقوم به غالباً السائرون أثناء النوم (somnia) من أفعال لا يجرؤون على القيام بها في اليقظة؛ وهذا يكفي لإثبات أن الجسم قادر بقوانين طبيعته وحدها على أشياء كثيرة تحار لها النفس، وبغضلا عن ذلك، لا أحد يعلم كيف تحرك النفس الجسم وما هي وسائلها، وكم درجات الحركة التي تستطيع أن تبعثها فيه، وكم سرعة يمكنها أن تحركه، ومطبه فحندما يقول النفس إن أصل أفعال الجسم هذه أو تلك هي النفس التي لها سلطان على الجسم، فهم لا يفقهون ما يقولون، وكل ما في الأمر أنهم يعترفون، بالفاظ مموهة، بجهلهم للسبب الحقيقي للأفعال التي يتحدثون عنها دون أن تتملكهم الدهشة.

ولكن قد يقال: سواء كنا نعلم أو نجهل الوسائل التي تحرك بها النفس الجسم، فإن التجربة تكشف لنا مع ذلك أنه لو لم تكن النفس البشرية قادرة على التفكير لكان الجسم هامداً. ونعلم أيضاً، بالتجربة، أنه يتوقف على النفس وحدها أن تتحدث وتسكت وأمر أخرى كثيرة يُعتقد أنها تابعة لقرار من قرارات النفس.

ولكن، فيما يتعلق بالحجة الأولى، إنني أسأل أولئك الذين يستندون إلى التجربة ما إذا كانت هذه الأخيرة لا تعلمنا أيضاً أنه إذا كان الجسم من جهته هامداً فإن النفس ستكون في الوقت ذاته غير قادرة على التفكير؟ ذلك أنه عندما يكون الجسم أثناء النوم في حالة سكون فإن النفس تبقى نائمة معه ولا تقدر على التفكير مثلما هي اليقظة.

ويعلم جميعهم بالتجربة أيضاً، على ما أعتقد، أنه ليس للنفس دائماً نفس القدرة على التفكير في نفس الموضوع، وأنه بقدر ما يكون للجسم من قابلية لإثارة صورة موضوع في النفس، تكون هذه الأخيرة قادرة على تأمل هذا الموضوع. وقد يقال إنه يتعذر، انطلاقاً من قوانين الطبيعة وحدها - ومن حيث هي جسمانية فحسب - تحليل البيانات والرسوم والأشياء التي من نفس القبيل

والتي هي من إبداعات الفن الإنساني لا غير، كما أنه يتعذر على الجسم الإنساني تشييد معبد إن لم يكن مدفوعاً إلى ذلك وموجهاً من قبل النفس، ولكن سبق أن بينت أننا لا نعرف ما هي قدرة الجسم، أو ما عسى أن تستخلصه من تأمل طبيعته وحدها؛ كما بينت أن التجربة تكشف لنا غالباً أن أشياء كثيرة جداً قد تحدث بعقضي قواطين الطبيعة وحدها، مع أننا ما كنا نعتقد أبداً أن حدوثها ممكن بغير توجيه من النفس؛ كالأفعال التي يقوم بها مثلاً السائرون أثناء النوم والتي يستقربونها عند اليقظة، أضيف إلى هذا المثال أن بنية الجسم الإنساني تفوق صنعة كل ما قد تصنعه يد الإنسان؛ هذا فضلاً عما بينت أملاه من أنه ينتج عن الطبيعة، منظورا إليها من جهة كل صفة من الصفات، عدد لا محدود من الأشياء.

أما فيما يتعلق بالصحة الثانية، فلا شك أنه لو كان موسع الإنسان أن يسكت أو يتكلم على حد السواء، لكانت الأمور الإنسانية على أحسن ما يرام؛ إلا أن التجربة قد أثبتت، وزيادة على الكفاية، أنه لا شيء بقدرة البشر أقل من التحكم في لسانهم، وأنهم لا يقدرون على شيء أقل من التحكم في شهواتهم. لذلك يعتقد معظم الناس أننا لا نتصرف بحرية إلا إزاء الأشياء التي نميل إليها باعتدال، لأنه سهل كبح اشتهاؤنا لها بتذكر شيء آخر ألقنا استنكاره؛ بينما لا نكون أحراراً إطلاقاً إزاء الأشياء التي نميل إليها بشوق شديد لا نستطيع أن تسكنه نكوى شيء آخر. وفي الحقيقة، لو لم تخبرهم التجربة أننا غالباً ما نندم على أفعالنا، وأننا، عندما نمتلكنا عواطف متضاربة، غالباً ما نرى الأفضل ونأتي الأزل، لما صدقهم شيء عن الاعتقاد بأن أفعالنا كلها أفعال حرة. وهكذا فإن الصبي يظن نفسه حراً عندما يرغب في الحليب، والشاب الحائق عندما يريد الانتقام، والجبان عندما يلوذ بالفرار، ويظن السكران أيضاً أنه يقول بمحض إرادته الحرة ما يود، عند خروجه من حالة السكر، لو كان كتمه؛ كما يظن الطفل، والرجل الهادي، والمرأة المهذار، وكثير من الأشخاص من نفس الطينة، أنهم يتحكمون بمحض إرادتهم الحرة، في حين أنهم لا يتمالكون أنفسهم عن الحديث.

فالتجربة لا تثبت إذن بأقل وضوح من العقل أن الناس يظنون أنفسهم أحرارا لجوّد كونهم يعون أفعالهم ويجهلون الأسباب المتحكّمة فيهم. وتبين التجربة، بالإضافة إلى ذلك، أن أوامر النفس لا تعدو أن تكون إلا الشهوات ذاتها، وأنها بالتالي متغيرة وفقا لحالات الجسم المتغيرة، وفعلا، يدور كل امرئ جميع أموره وفقا لهواه، كما يكون أولئك الذين تتحكّم فيهم أهواء متضاربة على غير دراية بما يريدون؛ أمّا الذين لا يكون لديهم سوى فقد يدفعهم أدنى سبب في هذا الاتجاه أو ذاك.

وعلى هذا الاعتبار، نتبين بوضوح أن أوامر النفس وشهواتها وتحدّد الجسم إنما هي جميعها أشياء متزامنة بطبيعتها، بل هي شيء واحد لا غير، نسمّيه أمرا (Decretum) عندما ننظر إليه ونفسّره من خلال صفة الفكر، وتحدّد (Determinationem) عندما ننظر إليه من خلال صفة الإمتداد ونستقيمه من قوانين الحركة والسكون؛ وهو ما سيّتين بأكثر وضوح من خلال ما يلحق.

فعلا، إنّي أريد لفت الانتباه بوجه خاص إلى ما يلي: إننا لا نستطيع القيام بأيّ شيء بمقتضى أمر من أوامر النفس إن لم تكن لدينا ذكرى عن هذا الشيء. فنحن لا نستطيع مثلا أن نلتفت بكلمة إلا إذا كنّا نتذكّرها. ولكن، من جهة أخرى، ليس للنفس قدرة حرة على تذكر شيء ما أو نسيانه. ولذلك يُعتقد أن كلّ ما تقدر عليه النفس هو أننا نستطيع، بأمر منها، قول الشيء الذي نتذكّره أو السكوت عنه. بيد أننا عندما نحلم أننا نتكلّم فنحن نظنّ أننا نتكلّم بأمر من النفس وحدها، غير أننا لا نتكلّم، أو، إن كنّا نتكلّم، فذلك يحدث بحركة عفوية من الجسم. ونحن نحلم أيضا أننا نخفي عن الناس بعض الأمور، وذلك بأمر من النفس لا يختلف عن ذلك الذي يجعلنا في حالة اليقظة نخفي عنهم ما نعلم. وأخيرا، إننا نحلم أننا نفعل، بأمر من النفس، ما لا نجرؤ على فعله أثناء اليقظة. وبالتالي أودّ معرفة ما إذا كان يوجد في النفس نوعان من الأوامر: الخيالية والحركة فإن كنّا لا نريد

الشَّطَط، فلا مناص من التسليم بأن الأمر الذي يصدر عن النفس ونظنه
أمراً حراً، إنما هو لا يختلف عن الخيال ذاته أو عن الذاكرة، كما أنه لا
يعدو أن يكون غير الإثبات الذي تنطوي عليه حتماً الفكرة بما هي
فكرة (راجع القضية 49، الجزء II). وهكذا فإن أوامر النفس هذه تنشأ في
النفس بنفس الضرورة التي تنشأ بها أفكار الأشياء الموجودة بالفعل، فلولاك
الذين يعتقدون إذن أنهم يتكلمون أو يسمعون أو يقرعون بأيّ عمل من الأعمال
يمقتضى أمر حراً صادر عن النفس إنما يحلمون وهم في حالة يقظة.

القضية 3

تتولد أفعال النفس عن الأفكار التامة فحسب؛ أما الانفعالات
فهي تابعة للأفكار غير التامة فحسب.

البيان

ليس ما يؤلف ماهية النفس أولاً غير فكرة جسم موجود بالفعل
(القضيتان 11 و 13، الجزء II)، وتتركب هذه الفكرة من أفكار أخرى كثيرة،
بعضها تام (لازمة القضية 38، الجزء II) وبعضها الآخر غير تام (لازمة
القضية 29، الجزء II). وعلى هذا فكل ما يتولد عن طبيعة النفس، بحيث تكون
النفس علّة مباشرة تسمح بمعرفته، إنما هو ينتج بالضرورة عن فكرة تامة أو
غير تامة. بيد أن النفس تكون حتماً منفصلة (القضية 1) من جهة ما لديها من
أفكار غير تامة. تتولد إذن أفعال النفس عن الأفكار التامة فحسب؛ ولذلك فإن
النفس تتفعل بوصفها تملك أفكاراً غير تامة فحسب.

حاشية

تتبع إذن أن الأهواء (passiones) لا تتعلق بالنفس إلا باعتبارها منضمّة لشيء ينطوي على النقي (negationem)، أي باعتبارها جزءاً من الطبيعة يتعدّد إدراكه بذاته ويقطع النظر عن الأجزاء الأخرى إدراكاً واضحاً متميّزاً، وإنّي أستطيع، بالاعتماد على نفس البرهان، أن أثبت أن علاقة الأهواء بالأشياء الجزئية كملاقتها بالنفس، وأنه لا يمكن إدراكها بنحو آخر؛ ولكن غايتي هنا هي البحث في النفس البشرية لا غير.

القضية 4

لا شيء يمكنه أن يتقوّض إلا بسبب خارجي.

البرهان

هذه القضية يديهية بذاتها، لأن تعريف شيء من الأشياء يثبت، ولا ينفي، ماهية هذا الشيء؛ وبعبارة أخرى، إنه يضع ماهية هذا الشيء ولا يزيلها. وعندئذ فطالما اكتفينا باعتبار الشيء في ذاته وبعض الأطراف عن الأسباب الخارجية فإننا لن نعثر فيه على شيء قادر على تقويضه.

القضية 5

تكون طبائع الأشياء متناقضة، أعني أنه لا يمكن لهذه الأشياء أن

توجد في موضوع واحد، عندما يكون بوسع بعضها تقويض بعضها الآخر.

البرهان

قلو كان بوسعها حقًا أن تتوافق بعضها مع بعض، أو أن توجد في نفس الوقت في الموضوع نفسه، لجائز حينئذ أن يوجد في هذا الموضوع شيء قادر على تقويضه، وهذا (القضية السابقة) محال. إذن تكون طبائع الأشياء، إلخ.

القضية 6 .

يسمى (*conatur*) كل شيء، بقدر ما له من كيان، إلى الاستمرار في كيانته (*in suo esse perseverare*).

البرهان

فعلا، الأشياء الجزئية أحوالٌ تعبر من خلالها صفاتُ الله عن ذاتها بطريقة معينة ومحددة (لازمة القضية 25، الجزء I)، أي (القضية 34، الجزء I) إنها أشياء تعبر بطريقة معينة ومحددة عن قدرة الله التي بها يوجد ويفعل؛ ولا يحتوي أي شيء على ما قد يقوّضه، أي على ما قد ينزع منه الوجود (القضية 4)، بل هو، على العكس من ذلك، يقاوم كل ما من شأنه أن ينزع منه وجوده (القضية السابقة)؛ وهكذا فإن كل شيء يسمى، بقدر ما يستطيع، وبقدر ما له من كيان، إلى الاستمرار في كيانته.

القضية 7

لا يعدو أن يكون الجهد (*Conatus*) الذي يبذله كل شيء من أجل الاستمرار في كيانه غير ماهية ذلك الشيء الفعلية.

البرهان

ينتج أمر ما بالضرورة عن الماهية الفعلية لشيء من الأشياء (القضية 36، الجزء I)؛ ولا تقدر الأشياء على غير ما ينتج بالضرورة عن طبيعتها المحددة (القضية 29، الجزء I)؛ لذلك فإن قوة شيء من الأشياء، أو الجهد الذي يبذله هذا الشيء - بمفرده أو بمعنى أشياء أخرى - في القيام بأمر ما أو في السعي إلى القيام به، أعني (القضية 6، الجزء III) القوة، أو الجهد الذي يسعى هذا الشيء من خلاله إلى الاستمرار في وجوده، إنما هو لا يعدو إلا أن يكون ماهية الشيء الموجودة أي الفعلية.

القضية 8

لا ينطوي الجهد الذي يبذله كل شيء من أجل الاستمرار في كيانه على أي زمن محدود (*finitum*)، وإنما على زمن غير محدود (*indefinitum*).

البرهان

فعلا، لو كان ينطوي على زمن محدود ومحدد للبعوضة الشيء، لكان يلزم

عن القوة التي يوجد الشيء بمقتضاها، منظورا إليها بمفردها، أنه يوجد، بل لا بد له أن يتقوّض؛ بيد أن ذلك (القضية 4) محال؛ إذن فالجهد الذي يوجد الشيء بمقتضاه لا ينطوي على أي زمن محدود، بل على العكس من ذلك - ونظرا (القضية 4) إلى كون الشيء الذي لا يقوّضه أي سبب خارجي يبقى موجودا بنفس القوة التي يوجد بها حالياً - ينطوي هذا الجهد على زمن غير محدود.

القضية 9

تسمى النفس الناطقة، من حيث أن لديها أفكارا واضحة متميزة، وأيضا من حيث أن لديها أفكارا مختلطة، إلى الاستمرار في وجودها لمدة غير محدّدة، وهي تعي سعيها ذلك.

البرهان

تتألف ماهية النفس من أفكار تامة وأخرى غير تامة (مثلما بيّنا في القضية 3)؛ وبالتالي (القضية 7) فهي تبذل جهداً من أجل الاستمرار في وجودها من حيث أن لديها هذه الأفكار أو تلك، وذلك (القضية 8) لمدة غير محدّدة. ولما كانت النفس من جهة أخرى (القضية 23، الجزء II) تعي ذاتها حتماً بواسطة أفكار انفعالات الجسم، فهي (القضية 7) إذن تعي جهودها ذلك.

ملاحظات

إذا تعلّق هذا الجهد بالنفس وحدها سمّي إرادة (Voluntas)، وإذا تعلّق

بالنفس والجسم معا سمي شهوة (Appetitus)؛ فالشهوة ليست إذن غير ماهية الإنسان ذاتها، التي ينتج عنها حتما ما يصلح لحفظها، بحيث يتحتم على الإنسان القيام به. وعلاوة على ذلك فإنه لا يوجد أي فرق بين الشهوة (Appetitus) والرغبة (Cupiditatem) عدا أن الرغبة تتعلق عموما بأفراد الإنسان من حيث إنهم يعون شهواتهم، ولذلك يمكن تعريفها كما يلي:

"الرغبة هي الشهوة المصحوبة بوعي ذاتها".

لقد غدا من الثابت إذن، من خلال كل ما تقدم، أننا لا نسعى إلى شيء ولا نريده ولا نشتيه ولا نرغب فيه لكوننا نعتقد شيئا طيبا بل نحن، على العكس من ذلك، نعتبره شيئا طيبا لكوننا نسعى إليه ونريده ونشتيه ونرغب فيه.

القضية 10

لا يمكن للفكرة التي تنفي وجود جسمنا أن تكون موجودة في النفس، بل هي مناقضة لها.

البوهان

لا يمكن للشيء الذي يستطيع تحطيم جسمنا أن يكون موجودا فيه (القضية 5)، ولا يمكن لفكرة هذا الشيء أن تكون موجودة في الله من حيث أن لديه فكرة جسمنا (لازمة القضية 9، الجزء II)؛ بمعنى (القضيتان 11 و 13، الجزء II) أنه لا يمكن لفكرة هذا الشيء أن تكون موجودة في النفس، بل على العكس، لما كان (القضيتان 11 و 13، الجزء II) ما يؤلف أولا ماهية النفس إنما هو فكرة الجسم الموجودة بالفعل، فإن الشيء الأول والرئيسي في النفس هو النزوع (القضية 7) إلى إثبات وجود جسمها، وهكذا فالفكرة التي تنفي وجود جسمنا إنما هي مناقضة للنفس، إلخ.

القضية 11

كلّ ما يزيد من قدرة الجسم على الفعل أو ينقص منها، ويساعدها أو يعوقها، إنّما فكرته تزيد من قدرة النفس على التفكير أو تنقص منها، وتساعدها أو تعوقها.

المبوهة

هذه القضية بديهية بالنظر إلى القضية 7 من الجزء II، أو كذلك بالنظر إلى القضية 14 من الجزء II.

حاشية

لقد تبينّا إذن أنّ النفس تخضع، عندما تكون متفعلة لتغيرات كبيرة، وأنّها تنتقل تارة إلى كمال أعظم وطورا إلى كمال أقلّ، وتفسّر لنا هذه الانفعالات انفعاليّ الفرح والحزن، وفيما يلي، أعني إذن بالفرح (Laetitia) الانفعال الذي تنتقل به النفس إلى كمال أعظم، وبالحزن (Tristitia) الانفعال الذي تنتقل به إلى كمال أقلّ. ثمّ إنّني أطلق على انفعال الفرح، عندما يتعلق بالنفس والجسم معاً، لفظ الدغدغة (Titillatio) أو البهجة (Hilaritas)، وعلى انفعال الحزن لفظ الألم (Dolor) أو الكآبة (Melancholia)، بيد أنّه لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الدغدغة والألم يتعلّقان بالإنسان عندما تتأخّر بعض أجزائه أكثر من غيرها، والبهجة والكآبة عندما تتأخّر كلّ الأجزاء على حدّ السواء، أمّا الوُضعية، فلقد فسّرت ماهيتها في حاشية القضية 9، وإنّي لا أسلم بأيّ انفعال أصلي عدا هذه الانفعالات

الثلاثة: وسأبين لاحقا أن الانفعالات الأخرى تتولد عنها الثلاثة. إلا أنه يُستحسن، قبل المواصلة، أن أشرح بفكر أكثر إسهاب القضية 10 من هذا الجزء، حتى نفهم بأكثر وضوح في أية حالة تكون فكرة ما مناقضة لفكرة أخرى.

لقد بيّنا في حاشية القضية 17 من الجزء II أن الفكرة المؤلفة لماهية النفس تنطوي على وجود الجسم طالما كان هذا الجسم موجودا. ثم إنه ينتج عما أوضحناه في لازمة القضية 8 من الجزء II وفي حاشيتها، أن الوجود الحالي لأنفسنا إنما يلزم فقط عن كون النفس تنطوي على الوجود الفعلي للجسم. ولقد بيّنا أخيرا أن قوة النفس التي بها تتخيل الأشياء وتتذكرها إنما تلزم هي أيضا (القضيتان 17 و 18، الجزء II، مع حاشيتهما) من كون النفس تنطوي على الوجود الفعلي للجسم. ويتربّب على ذلك أن الوجود الحالي للنفس وقوة خيالها يزولان حالما تكفّ النفس عن إثبات الوجود الحالي للجسم. ولكن السبب الذي يجعل النفس تكفّ عن إثبات وجود الجسم هذا لا يمكنه أن يكون النفس ذاتها (القضية 4)، ولا هو كون الجسم قد انتهى وجوده: ذلك أن (القضية 6، الجزء II) السبب الذي يجعل النفس تثبت وجود الجسم ليس أنه بدأ في الوجود؛ وعلى ذلك فليس ما يجعل النفس تنقطع عن إثبات وجود الجسم أنه لم يعد موجودا؛ بل (القضية 8، الجزء II) ينتج ذلك عن فكرة أخرى تنفي الوجود الحالي للجسم، وبالتالي الوجود الحالي للنفس، وهي تبعا لذلك، فكرة مناقضة للفكرة المؤلفة لماهية النفس.

القضية 12

تسمى النفس، بقدر ما تستطيع، إلى تخيل ما ينمي قدرة الجسم على الفعل أو يساعدها.

السبب

طالما كان الجسم البشري متأثراً بطريقة تنطوي على طبيعة جسم خارجي، فإنّ النفس البشرية ستنظر إلى هذا الجسم على أنّه حاضِر (القضية 17، الجزء II)، وعلى ذلك (القضية 7، الجزء II) فطالما كانت النفس البشرية تنظر إلى جسم خارجي على أنّه حاضِر، أي طالما كانت تتخيّل (نفس القضية 17، الحاشية) فإنّ الجسم البشري سيكون متأثراً بطريقة تنطوي على طبيعة ذلك الجسم الخارجِي. وبناءً على ذلك فطالما كانت النفس تتخيّل ما ينمي قدرة جسمنا على الفعل أو يساعدها، فإنّ الجسم سيكون متأثراً بطرق تنمي قدرته على الفعل أو تساعدها (المصايرة 1)، وتبعاً لذلك (القضية 14) فإنّ قدرة النفس على التفكير ستزداد أو تُساعد. وبالتالي (القضية 6 أو 9) فإنّ النفس تسعى، بقدر ما تستطيع، إلى تخيّل شيء كهذا.

القضية 13

عندما تتخيّل النفس ما يُضعف قدرة الجسم على الفعل أو يعوقها فهي تسعى، بقدر ما تستطيع، إلى تذكّر أشياء تستبعد وجود ما تتخيّله.

السبب

طالما كانت النفس تتخيّل مثل هذا الشيء، فإنّ قدرة النفس والجسم ستضعف أو تعاق (كما أثبتنا في القضية السابقة)؛ إلّا أنّها ستبقى تتخيّل هذا الشيء إلى أن تتخيّل شيئاً آخر يستبعد وجوده الحاضِر (القضية 17،

الجزء II)؛ بمعنى (كما سبق أن بينا) أن قدرة النفس والجسم ستضعف أو تُعاق إلى أن تتخيل النفس شيئاً آخر يستبعد وجود ذلك الذي تتخيله؛ وعلى هذا فهي ستسمى (القضية 9، الجزء III)، بقدر ما تستطيع، إلى تخيل هذا الشيء الآخر أو إلى تذكره.

لَا وَهْمَةَ

يتوَّجَّب على ذلك أن النفس تنقر من تخيل كلِّ ما يضعف أو يعوق قدرتها الخاصة وفترة الجسم على الفعل.

حَاشِيَةٌ

ومن هذا المنطلق نترك بوضوح معنى الحبِّ والكراهية، فالحبُّ (Amor) ليس إلاَّ اللذة المصحوبة بفكرة علّة خارجية؛ والكراهية (Odium) ليست إلاَّ الألم المصحوب بفكرة علّة خارجية.

ثم إننا نرى أن من يحبُّ يسعى بالضرورة إلى تملك موضوع حبه واستبقائه، بينما يسعى من يكره إلى إقصاء موضوع كرهه والقضاء عليه، لكن سأتوسّع لاحقاً في بحث كلِّ ذلك.

القضية 14

إذا تأثرت النفس مرّةً باتفعالين اثنين في نفس الوقت، فهي ما إن تتأثر فيما بعد بأحدهما حتّى تتأثر أيضاً بالآخر.

السبوهان

إذا تأثر الجسم البشري مرة أولى وفي نفس الوقت بجسمين اثنين معا، فحالما تتخيل النفس فيما بعد أحدهما ستتذكر فوراً الآخر (القضية 18، الجزء 11)، ولكن تخيلات النفس تشير إلى انفعالات جسمنا، لا إلى طبيعة الأجسام الخارجية (للأزمة 2 للقضية 16، الجزء 11)؛ وعليه فإذا تأثر الجسم مرة، وبالتالي إذا تأثرت النفس، بانفعالين اثنين في نفس الوقت، فحالما يتأثران فيما بعد بأحدهما سيتأثران أيضاً بالآخر.

القضية 15

يمكن لأي شيء من الأشياء أن يكون، عرضاً، سبباً في الفرح أو الحزن أو الرغبة.

السبوهان

لنقرض النفس متأثرة في ذات الوقت بانفعالين اثنين، أحدهما لا ينمي قدرتها على الفعل ولا يضعفها، والثاني إما أنه ينميها وإما أنه يضعفها (راجع الماصدة 1). فمن البنيهي، انطلاقاً من القضية السابقة، أنه إذا ما تأثرت النفس فيما بعد بالانفعال الأول بفعل حلة منتجة له حقاً - وهو انفعال (حسب الفرضية) لا ينمي بذاته قدرة النفس على التفكير ولا يضعفها - فهي ستتأثر فوراً بالانفعال الثاني الذي ينمي قدرة النفس على التفكير أو يضعفها، أعني (حاشية القضية 11) أنها ستشعر بالفرح أو الحزن؛ وبناء على ذلك فإن الشيء المتصيب في الانفعال الأول سيكون، لا بذاته، وإنما عرضاً، سبباً في الفرح أو

الحزن، ويمكن أن نتبين بسهولة وينفس الطريقة أن هذا الشيء قد يكون،
مَوْضِعًا، سببًا في الرغبة:

لازمة

إن مجرد اعتبارنا لشيء من الأشياء بينما نكون في حالة من الفرح أو
الحزن - مع أن هذا الشيء ليس العلة الفاعلة لهذه الحالة - قد يجعلنا تحبه أو
نكرهه.

البرهان

إن ذلك يكفي حقا كي (القضية 14) نشعر النفس، عند تخيلها لهذا الشيء
فيما بعد، بارتفاع الفرح أو الحزن، أي (حاشية القضية 11) كي تنمو قسرة
النفس والجسم أو تضعف، إلخ، وبالتالي (القضية 12) كي ترغب النفس في
تخلي ذلك الشيء أو (لازمة القضية 13) تأتي ذلك، أعني (حاشية القضية 13)
كي تحبه أو تكرهه.

حاشية

نفهم من هذا المنطلق كيف يحدث أن نحب بعض الأشياء أو أن تكرهها
دون أي سبب معلوم، وإنما بالتعاطف (sympathia) فحسب (كما يقال) أو
بالتقور (antipathia). وينبغي أن نضيف إلى ذلك أيضا تلك الأشياء التي
تفرحتنا أو تحزنتنا لمجرد وجود وجه شبه بينها وبين أشياء تحدث فينا عادة
نفس المشاعر، كما سابين ذلك في القضية الموالية. إنني أعلم جيدا أن المؤلفين

الذين كانوا أول من أدرج عبارتي التعاطف والنفور إنما كانوا يريدون الإشارة بذلك إلى بعض الكيفيات الخفية للأشياء؛ لكنني اعتقد أنه بوسعنا أيضاً أن نشير بهاتين الكلمتين إلى كيفيات معلومة أو جلية.

القضية 16

يكفي أن نتخيل وجود تشابه بين شيءٍ من الأشياء وموضوع يولد عادةً في النفس الشعور بالفرح أو الحزن - وعلى الرغم من أن وجه التشابه بينهما ليس علة فاعلة لهذين الانفعاليين - حتى نحسّ هذا الشيء أو نكرهه.

البرهان

لقد هناحبنا شعور بالفرح أو الحزن لما اعتبرنا في الموضوع ذاته (حسب الفرضية) وجه الشبه بينه وبين الشيء؛ وبناءً على ذلك (القضية 14) فعندما تنطبع في النفس صورة وجه الشبه، فهي ستشعر حالاً بأحد ذينك الانفعاليين، وهكذا سيكون الشيء الذي ندرك فيه وجه الشبه سبباً بالعرض (القضية 15) في الفرح أو الحزن؛ وبالتالي (بناءً على الفكرة السابقة) سنحبّ هذا الشيء أو نكرهه، رغم أن وجه الشبه الذي بيته وبين الموضوع ليس هو العلة الفاعلة لهذين الانفعاليين.

القضية 17

إذا تخيلنا وجود تشابه بين شيءٍ يولد فينا عادةً الشعور بالحزن

وشيء آخر يولد فينا عادة الشعور بالفرح بنفس المقدار، فإننا سنكره هذا الشيء ونحبّه في نفس الوقت.

البوهان

فعلا، إنّ هذا الشيء هو بذاته (حسب الفرضية) سبب في الحزن؛ (حاشية القضية 13) لَمَّا كُنَّا نَحْيِيهِ بحزن فنحن سنكرهه؛ وعلاوة على ذلك، لَمَّا كان يوجد بعض الشبه بين هذا الشيء وشيء آخر يولد فينا عادة الشعور بالفرح بنفس المقدار، فإننا سنندفع في حبّه بنفس المقدار من الفرح (القضية السابقة)؛ وإذا ك سنكره ونحبّه في آن واحد.

حاشية

تُسمّى حالة النفس هذه، التي تتولّد من انفعالين متناقضين، تقلّب النفس؛ (animi fluctuatio)؛ ونسبة هذه الحالة إلى الانفعال كنسبة الشك إلى الخيال (انظر حاشية القضية 44، الجزء II)؛ ولا يعدو الفرق بين تقلّب النفس والشك إلّا أن يكون فرقاً في الدرجة لا غير.

ولكن لا بدّ من ملاحظة أنّه، إن كنت في القضية السابقة قد استنتجت تقلّبات النفس من أسباب تُنتج بذاتها أحد الانفعالين، وتنتج الآخر عَرَضاً، فإنّي قد قمت بذلك لأنّ القضايا السابقة كانت تجعل الإستنتاج بهذه الصورة أمراً سهلاً؛ ولكنني لا أنكر أنّه غالباً ما تنشأ تقلّبات النفس عن موضوع يكون علّة فاعلة لكلا الانفعالين؛ إذ يتركّب الجسم البشري (المضاربة I، الجزء II) من عدد كبير جداً من الأفراد تختلف طبيعة بعضهم عن بعض، وبناء على ذلك فإنّه (انظر البديهية I التي تأتي بعد المأخوذة 3 الموالية للقضية 13، الجزء II) يمكنه أن يتأثر بجسم واحد بطرق كثيرة ومتنوّمة جداً؛ ومن جهة أخرى، لَمَّا

كان بوسع نفس الشيء أن يتأثر بطرق شتى، فإنه بوسع أيضاً أن يؤثر في جزء واحد من الجسم بطرق عديدة ومتنوعة. وهكذا ندرك بسهولة أنه يمكن لموضوع واحد أن يكون علة لانتفاعلات متعددة ومتناقضة.

القضية 18

تحدث صورة شيء ماضٍ أو مستقبل في الإنسان نفس الشعور بالفرح أو الحزن الذي تحدثه صورة شيء حاضِر.

البسوسمان

طالما كان الإنسان متأثراً بصورة شيء ما، فهو سينظر إلى هذا الشيء على أنه حاضِر، حتى لو كان غير موجود (القضية 17، الجزء II، مع لازمتها)، وإن يتخيله كشيء ماضٍ أو مستقبل إلا إذا ما اقترنت صورته بصورة الزمن الماضي أو المستقبل (انظر حاشية القضية 44، الجزء II)؛ وتكون صورة شيء ما، إذا ما اعتُبرت في ذاتها، هي هي، سواء أضيفت إلى الزمن المستقبل أو الماضي أو إلى الزمن الحاضر؛ أعني (لازمة القضية 16، الجزء IIE) أن حالة الجسم، أو إنفعاله، هي هي، سواء كانت الصورة صورة شيء ماضٍ أو مستقبل أو صورة شيء حاضِر؛ ومن ثم فإن الشعور بالفرح والحزن سيكون هو هو، سواء كانت الصورة صورة شيء ماضٍ أو مستقبل أو صورة شيء حاضِر.

حاشية 1

أتحدث هنا عن شيء ماضٍ أو مستقبل باعتبار أن هذا الشيء قد أثر فينا

أو سيؤثر، وعلى سبيل المثال باعتبار أننا رأيناه أو سذراه، وأنه جدد قوتنا أو سيجدد، وأنه الحق بنا ضررا أو سيبحق، إلخ. ومن جهة تخيلنا له هكذا فنحن نثبت وجوده، بمعنى أن الجسم لا يحسن بأي أنفعال يستبعد وجود الشيء، وبالتالي (القضية 17، الجزء II) فإن الجسم يتأثر بصورة هذا الشيء كما لو كان حاضرا. بيد أنه لما كان يحدث في أغلب الأحيان لأولئك الذين لهم تجارب كثيرة، وطالما أنهم ينظرون إلى شيء ما على أنه آت أو على أنه قد مضى، أن يبقوا في حالة تردد وأن يشكوا في مال ذلك الشيء (انظر حاشية القضية 44، الجزء II)، فإنه يترتب على ذلك أن الانفعالات المتولدة عن مثل هذه الصور ليست ثابتة حقًا، بل يطرأ عليها الإضطراب بفعل صور أشياء مخالفة، إلى أن يتم التحقق من مال الشيء.

حاشية 2

إن ما تقدم سيسمح لنا بإدراك معنى الأمل والخشية والأمن واليأس والإنشراح والحسرة. فالأمل (Spes) لا يعدو أن يكون فرحاً غير مستمر يتولد عن صورة شيء مستقبل أو ماضٍ نضك في عاقبته، أما الخشية (Metus) فهي، على العكس، حزن غير دائم يتولد أيضاً عن صورة شيء مشكوك فيه. وإذا ما جرتنا الآن هذه الانفعالات من الشك، فإن الأمل يستحول إلى أمن، (Securitas) والخشية إلى يأس (Desperatio)، أعني إلى فرح أو حزن متولد عن صورة شيء أحدث فينا الخشية أو الأمل، ثم إن الإنشراح (Gaudium) فرح متولد عن صورة شيء ماضٍ كنا نضك في عاقبته. والحسرة (Conscientiae morsus)، أخيراً، حزن مناقض للإنشراح.

القضية 19

من تخيل هلاك ما يحب، كان حزيناً، ومن تخيله محفوظاً، كان مسروراً.

البرهان

تجد النفس، بقدر ما هي وسعها، في تخيل ما يتمي قدرة الجسم على الفعل أو يساعدها (القضية 12)، أي (حاشية القضية 13) في تخيل ما تحبه. ولما كان ما يثبت وجود الشيء عوفاً للمخيلة، بينما ما ينفيه عائق لها (القضية 17، الجزء II) فإن صور الأشياء التي تثبت وجود الشيء المعشوق تساعد مجهود النفس الذي تبذله من أجل تخيل هذا الشيء، أي (حاشية القضية 11) أنها تُفرج النفس؛ وعلى العكس، إن الأشياء التي تنفي وجود الشيء المعشوق تعوق ذلك الجهد الذي تبذله النفس، أي (نفس الحاشية) أنها تحزنها. وبالتالي فمن تخيل هلاك ما يحب كان حزيناً، إلخ.

القضية 20

من تخيل هلاك ما يكره، كان مسروراً.

البرهان

تجد النفس (القضية 13) في تخيل ما يستبعد وجود الأشياء التي تضعف من قدرة الجسم على الفعل أو تعوقها؛ أي (حاشية نفس القضية) أنها تجد

في تخيل ما يستبعد وجود الأشياء التي تكرهها؛ وبناء على هذا فإن صورة الشيء الذي يستبعد وجود ما تكرهه النفس تكون عوناً لمجهود النفس ذاك، أي (حاشية القضية 11) أنها تفرحها. وبالتالي فمن تخيل هلاك ما يكره كان ممروراً.

القضية 21

من تخيل أن ما يحب يشعر بالفرح أو الحزن، شعر هو الآخر بالفرح أو الحزن؛ ويكون كل من هذين الانفعاليين أعظم أو أقل عند العاشق بحسب ما يكون عليه عند المعشوق.

البسوطان

إن صور الأشياء (كما بينا ذلك في القضية 19) التي تثبت وجود الشيء المعشوق تعاون النفس فيما تبذله من جهد لتخيل هذا الشيء. ولكن الفرح يثبت وجود الشيء الفرح، وذلك بقدر ما يكون الشعور بالفرح أعظم، لأن الفرح (حاشية القضية 11) انتقل إلى كمال أعظم؛ وعليه تكون صورة فرح الشيء المعشوق عوناً للجهد الذي تبذله نفس العاشق، أي (حاشية القضية 11) أنها تفرح العاشق، وذلك بقدر ما يكون هذا الشعور أعظم في الشيء المعشوق. كانت هذه النقطة الأولى.

وفضلاً عن ذلك، عندما يكون شيء ما حزيناً فهو يهلك بوجه من الوجوه، وذلك بقدر ما يكون تغثره بالحزن أشد (نفس حاشية القضية 11)؛ وبالتالي (القضية 19) فإن الذي يتخيل أن ما يحب يشعر بالحزن سيتأثر هو الآخر بهذا الشعور، وذلك بقدر ما يكون هذا الشعور أعظم في الشيء المحبوب.

القضية 22

إذا تخيلنا أن شخصا ما يفرح الشيء الذي نحبه، شعرنا نحوه بالحب. وعلى العكس، إذا تخيلنا أنه يحزنه، شعرنا نحوه بالكراهة.

البرهان

إن من يفرح الشيء الذي نحبه أو يحزنه، يفرحنا أيضا أو يحزنتنا، ذلك أننا نتخيل الشيء الذي نحبه متأكدا بذلك الفرح أو الحزن (القضية السابقة). ولما كنا نفترض أن ذلك الفرح أو الحزن يقترب بفكرة علة خارجية، فكلما (حاشية القضية 13)، تخيلنا أن شخصا ما يفرح الشيء الذي نحبه أو يحزنه، شعرنا نحوه هذا الشخص بالحب أو الكراهية.

حاشية

تبين لنا القضية 21 ما معنى الشفقة (commiseratio) ويمكن تعريفها بأنها الحزن الناتج عن الشر الحاصل للغير. أما الفرح الناتج عن الخير الحاصل للغير فأتى لا أعرف ما هو الاسم الذي ينبغي أن نطلقه عليه. ثم إننا سنسمي إحطاء (Favor) حينما لمن أحسن إلى غيره، واستياء (Indignatio) كرهنا لمن أساء إلى غيره. وأخيرا يجب أن نلاحظ أننا لا نشفق فقط على الشيء الذي أحببناه (كما بينا ذلك في القضية 21) بل أيضا على الشيء الذي لم نشعر نحوه بأي نوع من الإنفعال، شريطة أن نرى فيه شيئا مماثلا لنا (كما سنبين ذلك فيما يلي). وبقاء على ذلك فإننا ستحفظي أيضا من أحسن إلى أمثالنا وسنسخط على من أساء إليهم.

القضية 23

من تخيل ما يكره متأثراً بالحزن، كان مسروراً؛ وعلى العكس، إنّه يكون حزينا إذا تخيله متأثراً بالفرح؛ ويكون كل من هذين الإنفعالين أعظم أو أقلّ كلما كان الإنفعال المقابل أعظم أو أقلّ في الشيء المكروه.

البرهان

عندما يتأثر شيء كرهه (odiosa) بانفعال الحزن، فهو يهلك بوجه ما، ويكون هلاكه أكثر بقدر ما يكون متأثراً بحزن أشدّ (حاشية القضية 11). وعلى ذلك (القضية 20) فمن تخيل ما يكره متأثراً بالحزن، يشعر بالإنفعال المقابل الذي هو الفرح؛ ويكون فرجه أشدّ كلّما تخيل الشيء الكرهه متأثراً بحزن أشدّ؛ كانت هذه النقطة الأولى. أمّا الآن، فالفرح يثبت وجود الشيء الفرح (نفس حاشية القضية 11) وذلك بقدر ما يتصور هذا الفرح فرحاً أعظم، فإذا تخيل شخص ما أنّ الشيء الذي يكره متأثر بالحزن، فإنّ تخيله هذا (القضية 13) سيكون عائقاً لجده، أي (حاشية القضية 11) أنّه سيشعر بالحزن.

حاشية

لا يمكن لهذا الفرح أن يكون قطّ فرحاً ثابتاً ولا يتخلّله صراع باطني؛ ذلك أنّه (كما سبيّن ذلك في القضية 27) إذا تخيلنا أنّ شيئاً مماثلاً لنا متأثر بانفعال الحزن، فإنّه لا بدّ بوجه ما، أن نحزن لذلك؛ والعكس

بالعكس إن تخيلناه متأثراً بالفرح- فكن موضوع اهتمامنا هنا هو الكراهية
فحسب.

القضية 24

إذا تخيلنا أن شخصا ما يُفرح شيئا نكرهه، شعرنا نحو هذا
الشخص بالكراهية. وعلى العكس، إذا تخيلنا أنه يحزنه، شعرنا
نحوه بالحب.

البرهان

لا يختلف برهان هذه القضية عن برهان القضية 22 السابقة.

حاشية

ترجع انفعالات الكره هذه وأمثالها إلى الحسد (Invidia) الذي لا يعدو أن
يكون الكراهية ذاتها باعتبارها تهية الإنسان لكي يبتهج لما
يصيب غيره من سوء ويحزن لما يلحقه من خير.

القضية 25

إننا نجد في أن تثبت لأنفسنا وللشيء المحبوب كل ما نتخيل أنه
يفرحنا أو يفرحه؛ وعلى العكس، في أن ننفي كل ما نتخيل أنه
يحزننا أو يحزنه.

البرهان

إنَّ ما نتخيَّل أنَّه يفرح الشيء المحبوب أو يُحزنه يفرحنا أيضا أو يحزننا (القضية 21). ولما كانت النَّفس (القضية 12) تسعى، بقدر ما تستطيع، إلى تخيُّل الأشياء التي تفرحنا، أي (القضية 17، الجزء II، وحاشيتها) أن تنظر إليها على أنها حاضرة، وتسعى، على العكس من ذلك (القضية 13)، إلى نفي وجود الأشياء التي تحزننا، فإننا نجد إذن في أن تثبت لأنفسنا وللشيء المحبوب كل ما نتخيَّل أنَّه يفرحنا أو يفرحه، والعكس بالعكس.

القضية 26

إنَّنا نجد في أن ننسب إلى الشيء الذي نكرهه كل ما نتخيَّل أنَّه يحزنه، وعلى العكس، في أن ننفي عنه كل ما نتخيَّل أنَّه يفرحه.

البرهان

تلتزم هذه القضية عن القضية 23، مثلما تلتزم القضية السابقة عن القضية 21.

حاشية

نرى بهذه الصورة أنَّه قد يحدث بسهولة للإنسان أن يقيم وزنا لنفسه أو للشيء المحبوب أكثر مما يستحقان، وعلى العكس، أن لا يقرَّ الشيء المكروه حقَّ قدره، ويُسَيِّ هذا التخيُّل. إذا تعلَّق بالشخص الذي يقيم لنفسه أكثر وزنا مما يستحق، زهواً (Superbia)، وهو ضرب من الهذيان، إذ

يحلم الإنسان، وعينه ملقوحتان، أنه يقدر على كل ما يدركه بخياله وحده، ومن ثم فهو ينظر إليه على أنه شيء واقعي ويعجب بقدرته تلك، بينما تجده لا يستطيع تخيل ما ينفي وجود ذلك الشيء وما يحد من قدرة قلبه الخاصة. فالزهو إذن فرح ناجم عن كون الإنسان يقيم لنفسه أكثر وزناً مما يستحق. أما الفرح الناجم عن كون الإنسان يقيم لغيره أكثر وزناً مما يستحق فهو يسمى إغواط التقدير (Existimatio)؛ وأخيراً يسمى الفرح الناجم عن كون الإنسان لا يقدر غيره حق قدره استخفافاً (Despectus).

القضية 27

إذا تخيلنا أن شيئاً مماثلًا لنا لا نشعر حياله بأي نوع من الإنفعال قد تأثر بانفعال ما، فإننا سنتأثر لأجل ذلك بانفعال مماثل.

البرهان

إن صور الأشياء (Rerum imagines) هي انفعالات الجسم البشري التي تصور لنا أفكارها الأجسام الخارجية على أنها حاضرة (حاشية القضية 17، الجزء II)، أي (القضية 16، الجزء II) التي تتطوي أفكارها على طبيعة جسمنا وفي نفس الوقت على الطبيعة الحاضرة لجسم خارجي. وعلى ذلك فإذا كانت طبيعة جسم خارجي مماثلة لطبيعة جسمنا، فإن فكرة الجسم الخارجي الذي نتخيله ستتطوي على انفعال من انفعالات جسمنا مماثل لانفعال الجسم الخارجي؛ وبالتالي فإذا تخيلنا أن شخصاً مماثلًا لنا متأثر بانفعال ما، فإن تخيلنا هذا سينطوي على انفعال

من انفعالات جسمنا مماثل لذلك الانفعال، وإذا كان يكفي أن نتخيل أن شيئاً مماثلاً لنا يشعر بانفعال ما حتى نشعر بانفعال مماثل لانفعاله. أمّا إذا كنّا، على العكس من ذلك، نكوه شيئاً مماثلاً لنا، فإننا سنشعر (القضية 23)، بقدر كرهنا له، بانفعال معاكس لانفعاله، لا بانفعال مماثل.

حاشية

إذا تعلّق هذا التماثل بين الانفعالات بانفعال الحزن، سُمّي شفقة (راجع حاشية القضية 22)؛ أمّا إذا تعلّق برغبة ما فهو يغور متافسمة (AEmulatio)، والمنافسة لا تعمود إلا أن تكون الرغبة هي شيء من الأشياء، تتولّد فينا لكوننا نتخيل أن كائنات أخرى مماثلة لنا ترغب في نفس الشيء.

لازمة 1

إذا تخيلنا أن شخصاً لا نشعر نحوه بأيّ انفعال قد أقرح شيئاً مماثلاً لنا، شعرنا نحوه بالحبّ، وعلى العكس، إذا تخيلنا أنه قد أحزنه، شعرنا نحوه بالكراهية.

البهرهان

يُبرهن على ذلك بالقضية السابقة، مثلما وقعت البرهنة على القضية 22 بالقضية 21.

الافتراضية 2

إذا وُلدَ فينا شيء ما الشعور بالشفقة، فإننا لا نستطيع أن نكرهه، نظراً إلى ما يُولده فينا بؤسه من حزن.

البرهان

فعلاً، لو كنّا نستطيع أن نكرهه، فإنّ ذلك (القضية 23) ستفرض لهزئته، وهذا مناقض للغرضية.

الافتراضية 3

إذا وُلدَ فينا شيء ما الشفقة، فإننا سنجدّ بقدر ما نستطيع في تخليصه من البؤس الذي هو فيه.

البرهان

إنّ ما يحزن الشيء الذي يُولد فينا الشفقة يُحزنتنا بنفس النحو (القضية السابقة)؛ وبالتالي فإننا سنسعى إلى تنكّر كلّ ما ينفي وجوده أو يحطّمه (القضية 13)، أي (حاشية القضية 9) أننا سنرتقب في تحطيمه أو سنُدفع إلى تحطيمه؛ وهكذا فإننا سنجدّ في تخليص الشيء الذي يُولد فينا الشفقة من البؤس الذي هو فيه.

حاشية

هذه الرغبة، أو هذا الميل إلى القيام بالخير، وهو ميلٌ متولدٌ عن شفقةنا على الشيء الذي نريد له الخير، هو ما يُسمى بالعطف (Benevolentia)؛ وهكذا فإن العطف لا يعدو أن يكون رغبة ناجمة عن الشفقة. وغیرما يتعلّق بالحب والكراهية نحو من يُحسن أو يُسيء إلى الشيء الذي نتخيله مماثلاً لنا، فانظروا حاشية القضية 22.

القضية 28

كلّ ما نتخيل أنّه يقود إلى الفرح فإننا نجدّه في الحصول عليه، وكلّ ما نتخيل أنّه مناقض له أو يقود إلى الحزن فإننا نجدّه في إقصائه أو تحطيمه.

البرهان

إنّنا نجدّه بقدر ما في وسعنا، في تخيل الشيء الذي يخيّل إلينا أنّه يقود إلى الفرح (القضية 12)، أعني (القضية 17، الجزء II) أنّنا نجدّه بقدر ما نستطيع، في النّظر إليه على أنّه حاضر، أي على أنّه موجود بالفعل، لكن يوجد بالطبع بين قوّة النفس أو الجهد الذي نبذله في التفكير وقوّة الجسم أو الجهد الذي يبذله في الفعل تكافؤ وتزامن (كما يلزم ذلك بوضوح من لازمة القضية 7 ولازمة القضية 11، من الجزء II)، إذن فنحن نبذل قصارى جهدنا كي يوجد ذلك الشيء، أعني (الأمران سيّان حسب حاشية القضية 9) أنّنا نميل إليه ونرغب فيه؛ كانت هذه النقطة الأولى. والآن، إذا تخيلنا أنّ ما نخلقه داعياً إلى

الحن، أي (حاشية القضية 13) مانكره، قد هلك، فإننا سنبتهج بذلك (القضية 20)؛ وهكذا فإننا سنسعى إلى تحطيمه (وفقا للجزء الأول من هذا البرهان)، أي (القضية 13) إلى إبعاده عنا، حتى لا يكون حاضرا في منظورنا؛ كانت هذه النقطة الثانية، إذن فكل ما يمكن أن يقود إلى الفرح، إلخ.

القضية 29

إننا سنجد أيضا في القيام بكل ما نتخيل أن الناس* يسرون به، وسنتفر من القيام بما نتخيل أنه يستلزم نفورهم.

المبرهان

إذا تخيلنا أن الناس يحبون شيئا ما أو يكرهونه، فإننا لأجل ذلك سنحب أو نكره (القضية 27)، أي (حاشية القضية 13) أن حضور هذا الشيء سيسرنا أو يحزننا؛ وهكذا (القضية السابقة) فإننا سنسعى إلى القيام بكل ما نتخيل أن الناس يحبونه أو يسرون به، إلخ.

حاشية

يطلق على هذا المجهود الذي نبذله في القيام بشيء ما أو في الإمساك عنه، من أجل إعجاب الناس لا غير، اسم الطموح (Ambitio)، لا سيما إذا

* ملحوظة: المقصود هنا وفي القضايا اللاحقة بالناس أولئك الذين لا تشمر حيالهم بأي نوع من الانفعال (الملحوظة للمؤلف).

كَمَا نَسَمِي إِلَى إعجاب العامة لدرجة أننا نقوم ببعض الأشياء أو نمتنع عنها على حسابنا الخاص أو على حساب غيرنا؛ وإلا فإنه يطلق عليه عادة اسم الإنسانية (Humanitas). ثم إنني أسمي مديحا (Laudem) الفرح الذي نشعر به عند تخيلنا للفعل الذي يقوم به الغير رغبة في إرضائنا، وتوبيخا (Vituperiam) الحزن الذي نشعر به عندما نشمئز من فعل غيرنا.

القضية 30

إذا قام أحد بشيء ما وتخيّل أنّه قد أفرح بذلك غيره، فهو سيشعر بفرح تصحبه فكرة ذاته كعلة، أي أنّه سينظر إلى نفسه بفرح. وعلى العكس، إذا قام بشيء ما وتخيّل أنّه قد أحزن بذلك غيره، فهو سينظر إلى نفسه بحزن.

البوهان

إنّ من يتخيّل أنّه يُفرح الآخرين أو يُحزنهم يشعر بسبب ذلك (القضية 27) بالفرح أو الحزن. ولما كان الإنسان (القضيتان 17 و 23، الجزء II) يعي ذاته من خلال الانفعالات التي تنبغه إلى الفعل، فإنّ من يقوم بشيء ويتخيّل أنّه يُفرح بذلك غيره سيشعر بالفرح وسيُعِي ذاته كعلة، أي أنّه سينظر إلى نفسه بفرح، والعكس بالعكس.

حاشية

ما دام الحبّ فرحا تصحبه فكرة علة خارجية (حاشية القضية 13)

والكراهية حزناً تصحبه أيضاً فكرة علة خارجية، فإنّ هذا الفرح وهذا الحزن سيكونان إذن ضرباً من الحب والكراهية. لكن لما كان الحب والكراهية يتعلّقان بأشياء خارجية، فإنّنا سنشير هنا إلى هذين الانفعاليين بإسمين آخرين، وسنسَمِّي مَجْدًا (Gloriam) الفرح الذي تصحبه فكرة علة باطنية، وخَجَلًا (Pudorem) الحزن المقابل له، وذلك عندما يتولّد الفرح والحزن من اعتقاد المرء أنّه قد وقع مدحه أو توبيخه؛ ومن جهة أخرى، سنسَمِّي رَضًى (Acquiescentiam in se ipso) الفرح الذي تصحبه فكرة علة باطنية، ونَدَمًا (Paenitentiam) الحزن المقابل لهذا الفرح.

وبما أنّه قد يحدث (لازمة القضية 17، الجزء II) للفرح الذي يخيّل إلى امرئ ما أنّه قد ولّده في الآخرين أن يكون مجرد وهم، و (القضية 25) أن يجد كلّ واحد في تخيّل نفسه على نحوٍ يفرحه، فإنّه لا يُستبعد قطّ أن يكون نوّ المجذ مزموماً وأن يخيّل إليه أنّ الجميع يستلطفونه في حين أنّه لا يُطاق من أحد.

القضية 31

إذا تخيلنا أنّ شخصاً ما يحبّ أو يكره أو يرغب في الشيء الذي نحبّه أو نكره أو نرغب فيه، فإنّ حبّاً، إلخ، سيصبح من أجل ذلك أكثر رسوخاً. أمّا إذا تخيلنا أنّه ينفّر ممّا نحبّ، أو العكس، فإنّنا سنشعر بالإنفعال الذي يُسمّى تقلّب النفس (animi fluctuationem).

البعضا

إذا تخيلنا أنّ شخصاً ما يحبّ شيئاً ما، فإنّنا لأجل ذلك سنحبّ هذا

الشيء (القضية 27). ولكننا نفترض هنا أننا نحب هذا الشيء بقطع النظر عن ذلك، وإذا كان هذا الحب سيجد دعماً من قبل طلة جديدة، وبالتالي فإننا بموجب ذلك سنحب الشيء الذي نحبّه بأكثر ثبات. وإذا تخيلنا الآن أن شخصاً ما ينفر من شيء ما، فإننا سننفر من هذا الشيء (نفس القضية). أما إذا افترضنا أننا في تلك اللحظة نحب هذا الشيء فإننا سننظر نحوه في نفس الوقت بالحب والنفور، أي (حاشية القضية 17) أننا سنشعر بالإنفعال المسمى تقلب النفس.

الضرورة

ينتج عن ذلك وعن القضية 28 أن كلّ أمرٍ يجدّ، بقدر ما في وسعه، في أن يحبّ الجميع ما يحبّ، وأن يكرهوا ما يكره، ومن هنا جاء قول الشاعر:

"نحن عشاق، وبيدنا الأمل والتشية معاً، فهو من حديد ذلك من أحبّ
بتوخيص من غيره."

حاشية

هذا المجهود الذي نبذله من أجل أن يوافقنا كلّ إنسان على ما نحبّ وما نكره هو، في الواقع، الطمّوح (انظر حاشية القضية 29)؛ وبهذه الصورة ترى أن كلّ إنسان يرغب بالطبع أن يعيش الآخرون وفقاً لمزاجه الخاص؛ ولما كان لجميع الناس نفس الرغبة، فإنهم يعرقلون بعضهم البعض، فيفضي بهم الأمر إلى الكرامية المتبادلة، نظراً إلى سعيهم جميعاً إلى أن يكونوا محلّ حبّ الجميع وثنائهم.

القضية 32

إذا تخيلنا أن شخصا ما ينعم بشيء لا يمكن أن يكون بحوزة أكثر من واحد، فإننا سنبدل قصارى جهدنا كي نخرجه من حوزته.

البشرهـان

يكفي أن نتخيل أن شخصا ما ينعم بشيء ما (القضية 27 مع حاشيتها الأولى) حتى نحسّ هذه الشيء ونرغب في الاستمتاع به. وبما أننا (حسب الفرضية) نتخيل أن ما يُعرفنا هو ذلك الشخص الذي ينعم بالشيء، فإننا سنبدل قصارى جهدنا (القضية 28) كي نخرجه من حوزته.

حاشية

وهكذا نرى أن للبشر عموما استعدادا طبيعيا كي يشفقوا على البؤساء ويحسبوا السعداء، وأن بغضهم لهؤلاء يكون (القضية السابقة) شديداً بقدر ما يكون حبهم أشدّ للشيء الذي يتخيلونه بحوزة غيرهم. وقرئ، علاوة على ذلك، أن الخاصية التي في الطبيعة الإنسانية تجعلهم يشفقون على غيرهم هي نفسها التي تجعلهم يحسدون ويطمحون. وأخيراً، لو شئنا أن نسال التجربة لتبيننا أنها تخبرنا بكل ذلك، ولا سيما إذا اعتبرنا طقولاتنا الأولى. فالتجربة تثبت فعلاً أن الأطفال، نظراً إلى أن جسمهم هو باستمرار في شبه حالة من التوازن، يضحكون أو يبكون لمجرد كونهم يرون أشخاصاً آخرين يضحكون أو يبكون، كما أنهم يرغبون فوراً في تقليد ما يفعله الآخرون أمامهم، وهم أخيراً يرغبون في كل ما يتخيلون أنه يجلب المتعة لغيرهم. ذلك أن صور الأشياء، كما

سبق أن قلنا، هي انفعالات الجسم البشري ذاتها، أي الطرق التي يتأثر بها الجسم البشري بالأسباب الخارجية والتي تهيئه لفعل هذا أو ذاك.

القضية 33

عندما نحب شيئاً مماثلاً لنا، فنحن نبذل قصارى جهدنا كي نجعله يحبنا بدوره.

البرهان

إذا كنا نحب شيئاً ما أكثر من غيره فإننا سنقبل كل ما يوسعنا كي نتخيله (القضية 12). وبالتالي، إذا كان الشيء مماثلاً لنا فإننا سنسعى إلى إفراجه أكثر من غيره (القضية 29)، ويعبأه أخرى سنبدل قصارى جهدنا كي يشعر الشيء المحبوب بفرح تصحبه فكرة ذاتنا نحن، أي (حاشية القضية 13) كي يحبنا بدوره.

القضية 34

بقدر ما يكون الشعور، الذي نتخيل أن الشيء المحبوب يكتفه لنا، شعوراً عظيماً، فإن فخرنا بذلك يكون أعظم.

البرهان

إننا نبذل قصارى جهدنا (القضية السابقة) كي نجعل الشيء المحبوب يحبنا بدوره؛ أي (حاشية القضية 13) أن يشعر الشيء المحبوب بفرح تصحبه

فكرة ذاتنا نحن، وعتدنا فبقدر ما يكون الفرح، الذي نتخيل أننا السبب في شعور الشيء به، فرحاً شديداً، فإنَّ جهدنا يزداد حجماً، أي (القضية 11 مع حاشيتها) أنَّ شعورنا بالفرح يكون أعظم، ولكنَّ لما كان فرحنا ناجماً من كوننا قد أفرحنا بعض أمثالنا فإنَّنا سنتنظر إلى أنفسنا بفرح (القضية 30)؛ وعليه فبقدر ما يكون الشعور الذي نتخيل أنَّ الشيء المحبوب يكتنه لنا شعوراً عظيماً، فإنَّ الفرح الذي نشعر به عند اعتبارنا لأنفسنا يكون أعظم، أي أنَّ فخراً بذلك يكون أعظم.

القضية 35

إذا تخيل شخص ما أنَّ شخصاً آخر قد اكتسب مودة الشيء المحبوب وأنَّ عرى الصداقة بينهما قد أصبحت مماثلة لتلك التي كانت تربطه بهذا الشيء لما كان ملكاً له وحده، أو أنها أوثق منها، فهو سيشعر نحو الشيء المحبوب ذاته بالكراهية، وسيحسد الشخص الآخر.

المبرهان

بقدر ما يتخيل هذا الشخص أنَّ الفرد الذي يكتنه له الشيء المحبوب ودُّ عظيم، فإنَّ فخره بذلك سيكون أعظم (القضية السابقة)، أي أنَّه سيكون مبتهجا (حاشية القضية 30)؛ فهو سيسعى إذن (القضية 28)، بقدر ما يستطيع، إلى تخيل الشيء المحبوب متعلقاً به شديد التعلق؛ وسيزداد سعيه هذا أو ميله إذا تخيل أنَّ شخصاً آخر يريد لنفسه الشيء ذاته (القضية 31). لكنَّ إذا ما افترضنا أنَّ هذا السعي أو الميل تعوقه صورة الشيء المحبوب ذاته، مصحوبة بصورة الشخص الذي يقتون به الشيء المحبوب، فإنَّ

الشخص الأول (حاشية القضية 11) سيشعر إذن من أجل ذلك بحزنٍ تصحبه في نفس الوقت فكرةُ الشيء المحبوب بوصفها علةً، وصورة الشخص الآخر (أي (حاشية القضية 13) أنه سيشعر في نفس الوقت بالكراهية نحو الشيء المحبوب ونحو هذا الشخص الآخر (لازمة القضية 15)، كما أنه سيحسد هذا الأخير (القضية 23) لكونه يستمتع بالشيء المحبوب.

حاشية

يطلق على هذه الكراهية للشيء المحبوب، إذا ما قارناها الحسد، اسم الغيرة (Zelotypia)؛ وهكذا فإن الغيرة ليست غير تقلب النفس الناتج عن تزامن الحب والكراهية واقترانهما يفكرة شخص آخر نكن له الحسد، ثم إن شدة هذه الكراهية للشيء المحبوب تكون بقدر الفرح الذي تعود الإنسان للغير للشعور به بسبب الحب الذي كان هذا الشيء يبادل له إياه، وأيضا بقدر الشعور الذي يحس به تجاه الشخص الذي يتخيل أنه قد اكتسب مودة الشيء المحبوب، ذلك أنه لو كان يكره هذا الشخص، فهو لأجل ذلك (القضية 24) سيكره الشيء المحبوب، لأنه يتخيل أن هذا الأخير يفرح الشخص المكروه، وأيضا (لازمة القضية 15) لأنه موعم على الربط بين صورة الشيء المحبوب وصورة الشخص المكروه، ولعل هذا ما يحدث عادة في حب الرجل للمرأة، لأن من يتخيل حبيبته واهبة نفسها لغيره يكون حزينا، لا بسبب ما يعوق رغبته الخاصة فحسب، بل أيضا لكونه لا يجد بدا من ربط صورة الحبيبة بالأعضاء التناسلية للشخص الآخر وبإفرازاته، وهو لأجل ذلك سيمقت حبيبته؛ زد على ذلك أن الغير لا تقابله حبيبته بنفس الحفاوة التي عودته بها، وهو سبب آخر يزيد في حزنه، كما سأتبين ذلك فيما يلي.

القضية 36

من تلنكر شيئاً سبق أن تمتّع به ذات مرة فهو سيرغب في امتلاكه
في نفس ظروف تمتّعه به أول مرة.

البهرهان

كلّ ما رآه الإنسان أثناء تمتّعه بشيء ما سيكون (القضية 15)، عرضاً،
سبباً في الفرح! وهو بالتالي (القضية 28) سيرغب في الفوز بكلّ ما رآه
وبالشئ الممتع معاً، أي أنّه سيرغب في امتلاك الشئ في نفس ظروف تمتّعه
به أول مرة.

لازمنة

وعليه فإذا تقطّن العاشق إلى غياب بعض هذه الظروف فإنّه سيفتمّ.

البهرهان

فعلاً، عندما يتقطّن العاشق إلى غياب بعض الظروف، فهو يتخيّل أنّ
شيئاً ما يستبعد وجود الشئ المعشوق، ولما كان، بدافع الحب، يرغب في هذا
الشئ أو هذا الظرف (القضية السابقة)، فهو (القضية 19) سيحزن إنّه
يوصفه يتخيّله غائباً.

حاشية

يُسمى هذا الحزن، من حيث علاقته بغياب الشيء المشوق، إحباطاً (Desiderium).

القضية 37

تكون شدة الرغبة الفاجئة عن الحزن أو الفرح، وعن الكراهية أو الحب، بقدر شدة الانفعال.

السبب

يحد الحزن من قدرة الإنسان على الفعل أو يعوقها (حاشية القضية 13). أي (القضية 7) أنه يحد من المجهود الذي يبذله الإنسان من أجل الإستمرار في وجوده أو يعوقه؛ وهكذا (القضية 5) فإن الحزن مناقض لهذا المجهود؛ وليست الفاية من وراء كل ما يبذله الإنسان الحزن من جهد غير إقصاء الحزن. ولكن (حسب تعريف الحزن) بقدر ما يكون الحزن شديداً، تكون قوة الفعل التي لا بد أن يواجه بها الإنسان هذا الحزن قوة عظيمة؛ وبناء على ذلك فبقدر ما يكون الحزن شديداً، تكون قوة الفعل التي بها يسعى الإنسان بدوره إلى إقصاء الحزن قوة عظيمة، أي (حاشية القضية 9) تكون الرغبة أو الشهوة التي يسعى بها إلى إقصاء الحزن رغبة أو شهوة عظيمة. ثم، لما كان الفرح (نفس حاشية القضية 11) يزيد في قدرة الإنسان على الفعل أو يكون لها عوناً، فإنه يسهل أن تبرهن بنفس الطريقة على أن الإنسان الذي يشعر بالفرح لا يرغب في غير المحافظة على هذا الشعور، وأن رغبته تكون شديدة بقدر ما

يكون فرحه أشد. وأخيرا، بما أن الكراهية والحب هما الشعور بالحزن والفرح لا غير، فإنه يتلو بوضوح أن شدة المجهود، أو الشهوة، أو الرغبة المتولدة عن الكراهية أو الحب، تكون بقدر شدة الكراهية أو الحب.

القضية 38

إذا بدأ شخص ما يشعر بالكراهية نحو الشيء المحبوب، بحيث يزول الحب تماما، فإن كرهه له سيكون، بدافع مكافئ، أشد مما لو لم يشعر نحوه بالحب إطلاقا، وستكون شدته بقدر ما كان حبه في السابق أعظم.

البرهان

فعلا، إذا بدأ شخص ما يشعر بالكراهية نحو الشيء المحبوب، فإن الشهوات التي سيكتبها تكون أكثر عددا مما لو لم يعشق هذا الشيء من قبل؛ ذلك أن الحب هو الفرح (حاشية القضية 13) الذي يبذل الإنسان قصارى جهده (القضية 28) كي يحافظ عليه؛ ويكون ذلك (نفس الحاشية) بالنظر إلى الشيء المحبوب على أنه حاضر وبإدخال الفرح عليه (القضية 21) قدر المستطاع. ويكون جهده هذا (القضية السابقة) أعظم بقدر ما يكون حبه أعظم؛ وكذا الشأن بالنسبة إلى الجهد الذي يبذله من أجل أن يحبه الشيء المحبوب بنوره (القضية 33). ولكن هذه المساعي قد يعوقها الكره للشيء المحبوب (لازمة القضية 13، والقضية 23)، وعليه فإن العاشق (حاشية القضية 11) سيحزن أيضا لهذا السبب وسيكون حزنه أشد بقدر ما كان حبه أعظم؛ بمعنى أنه، علاوة على الحزن الذي كان علة للكراهية، فإن حزننا آخر سينجم عن كونه كان عاشقا للشيء، وبالتالي ستكون نظرتنا إلى الشيء المحبوب أكثر

حزناً، أي (حاشية القضية 13) أنه سيشعر نحوه بكراهية أشد مما لو لم يسبق له أن أحبه، وستكون شدة هذه الكراهية بقدر ما كان حبه أعظم.

القضية 39

من كره شخصاً، سعى إلى الإساءة إليه، إلا إذا خشي أن يصيبه من جراء ذلك مكروه؛ وعلى العكس، من أحب شخصاً، سعى بمقتضى نفس القانون، إلى الإحسان إليه.

المبرهان

أن نكره شخصاً هو (حاشية القضية 13) أن نتخيل أنه سبب في الحزن؛ وبالتالي (القضية 28) فمن كان يكره شخصاً فهو سيسعى إلى إبعاده وتحطيمه. لكن إن كان يخشى أن ينجر عن ذلك ما يزيد في حزنه أو (الأمران سيان) ما يصيبه بمكروه أعظم، وإن كان يعتقد أنه بإمكانه أن يتجنب ذلك بالعدول عن الشر الذي يضمه لمن يكره، فهو سيلغى في العدول (نفس القضية 28) عن الإساءة إليه؛ وهو سيجد في ذلك (القضية 37) أكثر مما كان يجد في الإساءة إليه، بحيث تكون القلبة لسماء هذا، كما أردنا إثباته. ويتم البرهان على الجزء الثاني بنفس النحو. إذن من كان يكره شخصاً، إلخ.

حاشية

أعني هنا بالخير (bonum) كل نوع من أنواع الفرح، وأيضا كل ما يقود إلى الفرح، ولا سيما ما يشبع الرغبة، مهما كانت هذه الرغبة. وأعني بالشر

(malum) كل نوع من أنواع الحزن، ولا سيما ما يحبط الرغبة، وفعلاء لقد سبق أن بينّا أعلاه (حاشية القضية 9) أننا لا نرغب في أي شيء لكوننا نعتقد شيئاً طيباً، بل، على العكس، نحن نسمي الشيء الذي نرغب فيه شيئاً طيباً؛ ونسمي بالتالي الشيء الذي يُفُوتنا شيئاً سيئاً. وهكذا يحكم كل امرئ على الأشياء وفقاً لانفعاله الخاص، مقدراً أيها جيد وأيها رديء، أيها أفضل وأيها أسوأ. فالبخيل مثلاً يرى أن وفرة المال هي أفضل شيء، وأن الفقر أقبح شيء. أما الإنسان الطمّوح فهو لا يرغب في شيء أكثر من المجد، ولا يفضي شيئاً أكثر من العار، ولا شيء يُفرح الحسود أكثر من شقاء الآخرين، ولا شيء يشقيه أكثر من سعادتهم. وعلى نحو ذلك يحكم كل إنسان، وفقاً لانفعاله الخاص، أن بعض الأشياء حسن أو قبيح، نافع أو غير نافع.

ثم إن ذلك الانفعال الذي يجعل الإنسان لا يريد ما يريد، أو يريد ما لا يريد، هو ما يُسمى بالتخوّف (Timor) فالتخوّف إذن ليس غير الخشمية من جهة كونها تجعل الإنسان يرضى بشراً أقلّ تجنباً لشرّ يرى أنه لا متاح منه (القضية 28). فإذا كان الشر الذي يتخوّف منه هو العار (Pudor)، سمّي التخوّف عندئذ حياءً (Verecundia). وأخيراً، إذا كانت الرغبة في تجنّب شرّ لاحق يعوقها التخوّف من شرّ آخر، بحيث يصبح المرء لا يدري ماذا ينبغي أن يختار، فإنّه يطلق آنذاك على الخشمية اسم الذّهول (Consternatio)، سيما إذا كان الشران موضوع التخوّف شرين عظيمين للغاية.

القضية 44

إنّ من يتخيّل أنّ شخصاً آخر يكرمه، ويعتقد أنّه لم يقترب ما يبّر هذا الكره، سيكرمه بدوره.

البرهان

إنَّ من يتخيَّل أنَّ شخصا يشعر بالكراهية سيشعر هو الآخر بالكراهية (القضية 27)، أي (حاشية القضية 13) بحزنٍ تصحبه فكرةٌ علَّةٍ خارجية. لكنَّه (حسب الفرضية) لا يتخيَّل أيَّة علَّة لهذا الحزن، ما عدا الشخص الذي يكرهه؛ وعلى هذا الاعتبار فهو سيشعر، نظرا إلى تخيُّله أنَّ شخصا يكرهه، بحزنٍ تصحبه فكرةٌ هذا الشخص، أي (نفس الحاشية) أنَّه سيكرهه.

حاشية

إذا تخيَّل أنَّه قد اقترَف ما يُبرِّر الكراهية، فهو (القضية 30 وحاشيتها) سيشعر بالعار؛ لكن (القضية 25) ينذر أنَّ يحدث ذلك، ثمَّ إنَّ هذه الكراهية المتبادلة قد تنتج أيضا مما يتبع الكراهية من جهد مبذول في سبيل الإساءة إلى الشخص المكره (القضية 34). فمن تخيَّل إنَّ أنَّ شخصا ما يكرهه فهو سينظر إليه على أنَّه علَّةٌ للشرِّ أو الحزن؛ وبهذه الصورة فهو سيشعر بالحزن أو الخشية المتفرقة بفكرة الشخص الذي يكرهه له الكره منظورا إليه كعلَّة، أي أنَّه، كما سبق ذكره، سيشعر هو الآخر بالكراهية.

الاستدلال

إنَّ من يتخيَّل أنَّ معشوقه يكرهه له الكراهية، سيبقى مترددا بين الحبِّ والكراهية؛ إذ هو يجد نفسه مدفوعا (القضية السابقة)، نظرا إلى تخيُّله أنَّ الشخص الآخر يكرهه، إلى أن يبادله الكره؛ ولكنَّه (حسب الفرضية) مع ذلك يحبُّه؛ فهو سيبقى إنَّ مترددا بين الحبِّ والكراهية.

الآزمنة 2

إذا تخيل شخص ما أن شخصا آخر قد أساء إليه بدافع الكراهية، وإذا لم يسبق له أن شعر نحوه بأي نوع من الانفعال، فهو سيسعى في الحال إلى معاملته بالمثل.

البسرهان

إن من يتخيل أن شخصا ما يكن له الكره، سيكرهه بدوره (القضية السابقة) و (القضية 26) سيحاول أن يتذكر كل ما من شأنه أن يحزنه، بل (القضية 39) سيسعى جادا في جعله يحسن بالحنن. ولكن (حسب الفرضية) ما يتخيله قبل كل شيء هو نوع الإساءة التي لقيها هو نفسه، وبالتالي فهو سيعي في الإبان إلى معاملة الشخص الآخر بالمثل.

حاشية

يطلق على الجهد الذي تبذله في الإساءة إلى من نكره اسم الغضب (Ira)، ويطلق على الجهد الذي تبذله في مقابلة الشر بالشر اسم الثأر (Vindicta).

القضية 41

إن من يتخيل أن شخصا آخر يحبه ويعتقد أنه لم يفعل شيئا يفسر حبه هذا (وهو ما قد يحدث حسب لازمة القضية 15 والقضية 16)، سيحبه بدوره.

البـرـهـان

يُبرهن على هذه القضية على نحو برهان القضية السابقة التي ادعو أيضا إلى مراجعة حاشيتها.

حاشية

إذا اعتقدَ أنه قد قام حقًا بما يجلب له المحبة فهو سيعتَزّ بذلك (القضية 30 مع حاشيتها)، وهذه الحالة هي (القضية 25) أكثر الحالات تواترا؛ ولقد سبق أن قلنا إنَّ العكس هو الذي يحدث عندما يتخيّل شخص ما أنَّ شخصا آخر يكرهه (حاشية القضية السابقة). أمّا ذلك الحبّ المتبادل وما يلزم عنه من جهد في سبيل الإحسان إلى الشخص الذي يُحيّنا ويجدّ (نفس القضية 39) في الإحسان إلينا، فهو يُسمّى إِمْتِنَانًا أو عِرْشَانِ الجَمِيل (Gratia seu Gratitude)؛ يبدو إذن أنَّ البشر أميل إلى الانتقام، منهم إلى القيام بالمعروف.

الزعم

إنَّ من يكره شخصا ويتخيّل أنَّ هذا الشخص يقابل كرهه بالحبّ، سيكون مترددا بين الكراهية والحبّ، ويبرهن على ذلك على نحو برهان اللازمة الأولى للقضية السابقة.

حاشية

إذا كان الرَّجَحَانِ للكراهية، فهو سيسعى إلى الإساءة إلى الشخص الذي

يُصَبِّه؛ وَيُسَمَّى هذا الاتِّفَعَالُ قَسْوَةً (Crudelitas)، خاصة إذا بدا لنا أنَّ العاشق لم يقترِفَ ما يبرِّرُ الكراهية.

القضية 42

من أحسن إلى شخص بدافع الحبِّ أو أملًا في المجد، سيُفْتَمَّ إذا بدا له أنَّ إحسانه قد قُوِّلَ بالجحود.

البروهان

من أحبَّ شيئًا مماثلاً له، سعى جاهداً في جعله يبادلُه الحبَّ (القضية 33). فالذي يحسن إنَّه إلى شخص ما بدافع الحبِّ إنَّما هو يحسن إليه طمعاً في أن يبادلَه نفس الشَّعْور، أي أملاً في المجد (القضية 34) أو الفرح (حاشية القضية 30)؛ فهو سيُجْبَذُ إنَّه قصارى جهده (القضية 12) من أجل تخيل علَّة المجد هذه أو النَّظَر إليها على أنَّها موجودة بالفعل. ولكنَّه (حسب الفرضية) يتخيَّل شيئاً آخر يستبعد وجود هذه العلَّة، وعلى ذلك (القضية 19) فهو سيُفْتَمَّ.

القضية 43

تزداد الكراهية إذا ما قوبلت بالكراهية، وعلى العكس، فهي تزول إذا ما قوبلت بالحبِّ.

البرهان

إنَّ من يتخيل أنَّ الشخص الذي يكرهه يبادلُه الكراهية سيشعر بكراهية جديدة (القضية 40)، بينما (حسب الفرضية) لا تزال الأولى متواصلة. ولكنَّ إذا تخيل، على العكس من ذلك، أنَّ هذا الشخص يشعر نحوه بالحبِّ فهو، بهذه الصورة، سيتنظر إلى نفسه باهتمام (القضية 30) ويسعى، بنفس الصورة (القضية 29)، إلى قتل إعجابه؛ أعني أنَّه سيجهد نفسه دائماً بنفس الصورة، كيلا يكره هذا الشخص وكيلا يحزنه؛ ويكون هذا الجهد (القضية 37) بقدر الانفعال المؤلِّد له؛ وهكذا فإذا كان هذا الجهد أعظم من ذلك الذي تولِّده الكراهية والذي يرمي إلى غمِّ الشخص المكروه، فهو سيتفوق عليه وسيزيل الحقد من القلب.

القضية 44

عندما ينتصر الحبُّ على الكراهية انتصاراً تاماً، فهي تتحوَّل إلى حبٍّ؛ ولهذا السبب يصبح الحبُّ أعظم ممَّا لو لم تسبقه الكراهية.

البرهان

لا يختلف البرهان عن برهان القضية 38، فعلاً، إنَّ من يشرع في حبِّ الشيء المكروه أو في حبِّ ما تعود القنظر إليه يحزن سيبتهج لكونه يشعر بالحب، ويضاف إلى هذا الاهتمام الذي يتطوي عليه الحبُّ (راجع تعريفه في حاشية القضية 13) الاهتمام الناتج عن ازدياد المجهود المبذول في سبيل إقصاء الحزن الذي تتطوي عليه الكراهية (كما بيَّنا في

القضية 37)، وهو مجهول نصيحه - كعلة - فكرة الشخص الذي كان موضوع الكراهية.

حاشية

ومع أن الأمر كذلك، إلا أنه لن يسمى أحدٌ إلى كره شخص ما أو إلى الاختتام من أجل الفوز بابتهاج أعظم؛ أي أنه لن يجلب أحد لنفسه الضرر طمعا في جبر الضرر، ولن يتمنى المريض طمعا في الشفاء؛ إذ يدأب كل امرئ باستمرار على المحافظة على كيانه وعلى إقصاء المزن قدر الإمكان. أمّا إذا كان بوسعنا أن نتصور أن شخصا ما يرغب في كره شخص آخر كي يشعر نحوه فيما بعد بحبٍ أعظم، فمعنى ذلك أن الشخص الأول سيرغب في كره الشخص الثاني باستمرار، ذلك أنه كلما كانت الكراهية أعظم، كان الحب أعظم؛ وهكذا فهو سيتمنى دائما أن تشتد كراهيته أكثر فأكثر؛ ولنفس السبب سيسعى الإنسان إلى أن يشتد مرضه كي ينعم بفرح أعظم عند استعادة صحته؛ وهو بالتالي سيسعى إلى البقاء مريضا على الدوام. وهذا (القضية 6) محال.

القضية 45

إذا أحب شخص شيئا مماثله وتخيّل أن شخصا آخر من بين أمثاله يشعر بالكراهية نحو هذا الشيء فإنه سيكره هذا الشخص.

البرهان

فعلا، إنَّ الشيءَ المحبوبَ يكرهه، هو أيضا، الشخصَ الذي يكرهه (القضية 40)، وهكذا فإنَّ العاشقَ الذي يتخيَّل أنَّ شخصا ما يكره الشيءَ المحبوبَ سيتخيَّل بالتالي أنَّ الشيءَ المحبوبَ يشمر بالكراهية، أي (حاشية القضية 13) بالحزن، وتبعاً لذلك (القضية 21) فهو سيحزن وسيكون حزنه مصحوباً بفكرة الشخص الذي يكره الشيءَ المحبوبَ منظورا إليها كعلَّة، أي (حاشية القضية 13) أنَّه سيكره هذا الشخص.

القضية 46

إذا أفرح شخصاً ما أو أحزنه شخصٌ آخر ينتمي إلى فئة أو أمة أخرى، وإذا كان الفرح أو الحزن مصحوباً بفكرة الشخص الآخر من جهة ما هي علَّة ومن جهة انضوائها تحت الاسم الكلي للفئة أو الأمة، فإنَّ الشخصَ الأوَّل لن يحبَّ الشخصَ الثاني فقط أو يكرهه، بل سيحبُّ أيضا أولئك الذين ينتمون إلى نفس الفئة أو الأمة أو يكرههم.

البرهان

يُستخلص البرهان ببداهة من القضية 16 .

القضية 47

إنَّ الفرح الناجم عن كوننا نتخيل أنَّ الشيء الذي نكرهه قد هلك
أو أصابه مكروه، لا ينشأ من نوع من الحزن في النفس.

البرهان

إنَّ ذلك يديه من خلال القضية 27، لأننا نحزن بسبب تخيلنا أنَّ شيئاً
مماثلنا يشعر بالحزن.

حاشية

يمكن البرهنة أيضاً على هذه القضية بالاعتماد على لازمة القضية 17 من
الجزء الثاني؛ إذ كلما تذكرنا شيئاً، ورغم أنَّ هذا الشيء غير موجود بالفعل،
فإننا سنتنظر إليه مع ذلك على أنَّه حاضِر، وسيُتأثر به الجسم بنفس الوجه.
وبالتالي فكلما كانت ذكرى هذا الشيء راسخة، فإنه يتحمَّ على الإنسان أن
ينظر إليه بحزن؛ وطالما بقيت صورة الشيء، فإنَّ الدافع إلى الحزن قد يعوقه
حقاً تذكر الأشياء التي تستبعد وجود الشيء المتخيل، إلاَّ أنَّه لا يزول تماماً؛
وبناء على ذلك، لا يكون الإنسان فرحاً إلاَّ في صورة ما إذا ضعف ذلك
الدافع؛ ومن هنا يترتَّب أنَّ ذلك الفرح الناجم عن الشرِّ اللَّاحق بالشيء المكروه
يتجدَّد بقدر تذكرنا لهذا الشيء؛ إذ، كما سبق القول، عندما تُثار صورة هذا
الشيء، وباعتبار أنَّها تنطوي على وجود الشيء ذاته، فهي تدفع الإنسان إلى
اعتبار هذا الشيء بنفس الحزن الذي تعود أن يعتريه لما كان الشيء موجوداً.
إلاَّ أنَّه لما كان قد أضيف إلى صورة هذا الشيء صوراً أخرى تستبعد وجوده،

فإن دافع الحب سيعاق لتوّه وسيفرح الإنسان من جديد، وسيحدث ذلك كلما تكررت العملية. فلهذا السبب ترى الناس ينشرون كلما تذكروا مكروها حصل لهم في الماضي، ويتسلّون برواية المخاطر التي نجوا منها؛ إذ عندما يتخيلون خطراً فإنهم ينظرون إليه على أنه خطر محقق، فيخشونه لا محالة؛ إلا أن دافع الخوف تضعفه من جديد فكرة النجاة التي قرنها بفكرة الخطر الذي نجوا منه، وتلك الفكرة هي ما يعيد إليهم الشعور بالأمن؛ وإذًا فإن القرحة تعود إليهم من جديد.

القضية 48

إنّ الحب والكراهية، اللذان نشعر بهما مثلاً نحو محمد، يزولان إذا ما اقترن الحزن الذي تنطوي عليه الكراهية، والفرح الذي ينطوي عليه الحب، بفكرة علّة أخرى؛ ويضعف الحب والكراهية إذا تخيلنا أن محمدًا ليس بمفرده علّة الحزن أو الفرح اللذين ينطوي عليهما ذاك الانفعالان.

البسوفان

إنّ ذلك بديهى من خلال تعريف الحب والكراهية الوارد في حاشية القضية 13، فعلا، يسمّى الفرح حباً لمحمد والحزن كرهاً له، وذلك لسبب واحد، وهو أنّه يُنظر إلى محمد على أنّه علّة كلّ الانفعالات، وعندما فإذا ما أُزيل هذا السبب كلياً أو جزئياً فإنّ شعورنا نحو محمد سينزل أيضاً كلياً أو جزئياً.

القضية 49

لا بدّ، عند تكافؤ الأسباب، أن يكون الحبّ والكراهية للشيء الذي تتخيه حرّاً أعظم منه الشيء المحتوم.

المبرهان

لا بدّ للشيء الذي تتخيه حرّاً (التعريف 7، الجزء 1) أن يُترك بذاته ويقطع النّظر عن الأشياء الأخرى، وعليه فإذا تخيلنا أنّ هذا الشيء هو سبب في الفرح أو الحزن، فإنّنا لأجل ذلك (حاشية القضية 13) سننصّه أو نكرهه، وذلك (القضية السابقة) بأكثر ما يمكن من الحبّ أو الكراهية اللّفين بولدهما انفعال ما. ولكن إذا تخيلنا أنّ الشيء المتسبّب في هذا الانفعال شيء محتوم (نفس التعريف 7، الجزء 1)، فإنّنا سنتخيّل، لا أنّه العلّة الوحيدة، وإنّما أنّه علّة إلى جانب علل أخرى، وبهذه الصورة (القضية السابقة) سيضعف حبّنا أو كرهنا له.

حاشية

يترتّب على ذلك أنّ التّناس يحبّون أو يكرهون بعضهم بعضاً أكثر من حبّهم أو كرههم للأشياء الأخرى، لأنّهم يعتبرون أنفسهم أحراراً! هذا فضلاً عن محاكاة الانفعالات! انظر القضايا 27 - 34 - 40 - 43.

القضية 50

يمكن لأي شيء من الأشياء أن يكون، عرضاً، سبباً في الأمل أو الخشية.

البوهان

يُبرهن على هذه القضية على نحو برهان القضية 15؛ راجع معها الحاشية 2 للقضية 18.

حاشية

تُسمى الأشياء التي تكون، عرضاً، سبباً في الأمل أو الخشية نُذراً قال أو شؤم، وتكون هذه النذر، من حيث أنها سبب الأمل أو الخشية (لتعريف الأمل والخشية، راجع حاشية القضية 18)، سبباً في الفرح أو الحزن؛ وبناءً على ذلك (لازمة القضية 15) لمنح نحبها أو نكرها، فنسعى (القضية 28) إلى استخدامهما كوسائل تقود إلى ما نأمله، أو إلى استبعادها كحواجز أو كأسباب للخشية، وعلاوة على ذلك يترتب على القضية 25 أننا على استعداد طبيعي للتصديق البسيط بما نأمله، بينما لا نصدق إلا بصعوبة بما نخشاه، فلا نقدر الأشياء حق قدرها؛ وذلك هو أصل الخرافات التي يخضع لها البشر أينما وجبوا. ولا أرى داعياً هنا لإثبات تقلبات النفس المتولدة عن الأمل والخشية، إذ يلزم عن مجرد تعريف هذين الانفعالين أنه لا يوجد أمل بدون خشية ولا خشية بدون أمل (كما سنفسر ذلك بإكثّر إسهاب في محله)، فضلاً عن كوننا نحب شيئاً ما أو نكرهه باعتبار أننا نأمله أو نخشاه. وهكذا

فإنَّ كلَّ ما نكرناه عن الحبِّ والكراهية يمكن تطبيقه بسهولة على الأمل والخشية.

القضية 51

يمكن لأشخاص مختلفين أن يتأثروا بنفس الشيء بطرق مختلفة، ويمكن لنفس الشخص أن يتأثر بنفس الشيء بطرق مختلفة في أوقات مختلفة.

البرهان

يتأثر الجسم البشري (المصادرة 3، الجزء II) بالأجسام الخارجية بعدد كبير جداً من الأوجه. يمكن إذن لشخصين اثنين أن يتأثرا في نفس الوقت بطرق مختلفة، وبالتالي (البدئية 1 التي تتلو المأخوذة 3 التابعة للقضية 13، الجزء II) يمكن لهما أن يتأثرا بنفس الشيء بطرق مختلفة. ثم (نفس المصادرة) إنه يمكن للجسم البشري أن يتأثر تارة بطريقة وطورا بطريقة أخرى؛ وتبعاً لذلك (نفس البدئية) فهو يمكنه أن يتأثر بنفس الشيء بطرق مختلفة في أوقات مختلفة.

ملاحظة

نرى إذن أنه يمكن لشخص ما أن يحب ما يكره شخص آخر، ولا يخشى ما يخشاه الآخر، كما يمكن لنفس الإنسان أن يحب الآن ما كان يكره سابقاً، وأن يقدم على ما كان يخيفه، وهلم جراً. وعلاوة على ذلك، لما كان كل إنسان يحكم وفقاً لشعوره الخاص أي الأشياء حسن وأيها قبيح، أيها

الأفضل وأيهما الأسوأ (حاشية القضية 39) فإنه ينتج عنه أن الاختلاف بين البشر قد يكون من حيث الحكم ومن حيث الانفعال على حد سواء*؛ وعلى ذلك فعندما تقارن البشر بعضهم ببعض فإننا نميز بينهم بالنظر إلى اختلاف انفعالاتهم لا غير، فننتع بعضهم بالبسالة، وبعضهم بالجبن، وأخيرا بعضهم الآخر بنعت آخر. فمثلا أسمى باسالا (intrepidum) ذلك الذي يستهين بالشر الذي تعوّدت أن أخشاه؛ وإذا أخذت بعين الاعتبار، فضلا عن ذلك، أن رغبته في الإساءة إلى من يكره والإحسان إلى من يحب لا يعوقها الخوف من الشر الذي يصيطنني عادة، فأنتي أسمى جسورا (audacem)، وسيبدو لي هيويا (timidus) ذلك من يخشى الشر الذي تعوّدت أن تستهين به؛ وإذا اعتبرت، بالإضافة إلى ذلك، أن رغبته يعوقها الخوف من شر لا يقدر على إحباطه، فأنتي أسمى هيبانا (pusillanimum)؛ وعلى نحو ذلك يكون حكم الجميع.

وأخيرا، فنظرا إلى طبيعة الإنسان هذه وإلى ثقل أحكامه، فنظرا أيضا إلى كون الإنسان يحكم غالبا على الأشياء من خلال شعوره فحسب، وأن الأشياء التي يظن أنه يقوم بها بقية الفرح أو الحزن - فيعمل لأجل ذلك (القضية 28) على الفوز بها أو على إقصائها - هي في الغالب من صنع الخيال وحده (فضلا عن أسباب التريب الأخرى التي يبتتها في الجزء الثاني)، فلهذه الأسباب كلها نتصور بسهولة أن الإنسان يستطيع أن يكون علة لفرحه أو حزنه على حد سواء، أعني أن يشعر بفرح أو حزن تصحبه فكرة ذاته بوصفها علة؛ وهكذا تدرك بسهولة ما هو التقدم (Paenitentia) وما هو الرضى بالنفس (Acquiescentia in se ipso)، فالقدم هو الحزن الذي تصحبه فكرة الذات نفسها من جهة ما هي علة، وهذان الانفعالات شديداً جداً، لأن البشر يظنون أنفسهم أحرارا (انظر القضية 49).

* ملحوظة: لقد بيّنت في حاشية القضية 13 من الجزء الثاني أن ذلك قد يحدث رغم أن النفس البشرية جزء من العقل الإلهي (الملحوظة للمؤلف).

القضية 52

إذا سبق أن رأينا شيئاً ما مع أشياء أخرى، أو إذا تخيلنا أن هذا الشيء لا يملك ما يميزه عن أشياء أخرى كثيرة، فهو لن يسترعي نظرنا بقدر الشيء الذي نتخيله فريداً عن نوعه.

المسألة

عندما نتخيل شيئاً رأيناه مع أشياء أخرى، فإننا نتذكر قورا هذه الأشياء أيضاً (القضية 18، الجزء II، انظر أيضاً الحاشية)، فننتقل بهذا النحو من اعتبارنا لشيء ما إلى اعتبار شيء آخر. وكذا الشأن بالنسبة إلى الشيء الذي نتخيل أنه لا يملك ما يميزه عن أشياء أخرى كثيرة: إذ نحن نفترض أنه لا شيء فيه يسترعي نظرنا إلا وقد سبق أن رأيناه في أشياء أخرى. ولكن، على افتراض أننا نتخيل شيئاً مالكا لصفة فريدة من نوعها ما سبق أن رأيناه من قبل، فإننا سنقول إذاك إن النفس، بينما تكون متنبهة إلى هذا الشيء، ليس لديها ما يشغلها عنه، وبالتالي فلن يسترعي نظرها غير هذا الشيء. إذن فالشيء الذي، إلخ.

حاشية

يُسمى انفعال النفس هذا، أو هذا التخيل لشيء فريد من نوعه، من حيث أنه موجود بمرده في النفس، إعجاباً (Admiratio)؛ أما إذا استثاره شيء نخشاه، فهو يُسمى ذهولاً (Consternatio)، لأن الدهشة (Admiratio) إزاء الشر تجعل الإنسان لا ينظر إلى غير هذا الشر، لدرجة أنه يصبح غير قادر على التفكير في أشياء أخرى قد تجنبه الشر المذكور. لكن إذا كان موضوع

إعجابنا هو حصافة (prudentia) الإنسان وحزمه (industria) أو شيء آخر من هذا القبيل، فضلا عن كوننا نعتبر أن هذا الإنسان يفوقنا بكثير، فإن إعجابنا يسمى آنذاك إجلالا (Veneratio)؛ وهو يسعى على العكس من ذلك فاستهجانا (Horror) إذا كانت دهشتنا من غضب إنسان وحسده، إلخ. ثم إذا كان إعجابنا بحصافة وحزم إنسان نحبه، فإن حيننا سيكون بمقتضى ذلك (القضية 12) أعظم، وسنسمي هذا الحب المقتن بالاعجاب أو الإجلال ورعا (Devotionem). وعلى هذا المنوال يمكن أن نتصور أيضا الكراهية والامل والأمن وانفعالات أخرى تقتن بالدهشة، بحيث يصبح بمقدورنا استخلاص أكثر انفعالات من تلك التي تعربنا الإشارة إليها بالألفاظ المألوفة. وهكذا يبدو أن أسماء الانفعالات قد وقع ابتداعها وفق العرف والعادة، لا بعد التعميحص والتتقيب.

والإعجاب يقابله الاحتقار (Contemptus) الذي تكون علة عموما هي الآتية: إننا نرى شخصا يعجب بشيء ما ويحبه ويخشاه إلخ، أو كذلك يبدو لنا شيء ما من الوهلة الأولى شبيها بالأشياء التي نُعجب بها ونحبها ونخشاهما إلخ، فنُعجب حتما (القضية 15 مع لازمتها، والقضية 27) بهذا الشيء ونحبه ونخشاه. لكن إذا كنا، بمقتضى حضور هذا الشيء أو استرعائه لانتباهنا، مرضيين على تجريده من كل أسباب الإعجاب والحب والخشية إلخ، فسيتحتم على النفس آنذاك، بموجب حضور الشيء ذاته، أن تفكر فيما لا يوجد في الشيء، لا فيما يوجد فيه، بينما جرت العادة، عند حضور شيء ما، أن نفكر فيما يوجد فيه. ومثلما ينشأ الورع عن الإعجاب بالشيء الذي نحبه، ينشأ الاستهزاء (Irrisio) عن احتقارنا للشيء الذي نكرهه أو نخشاه، والاستهانة (Dedignatio) عن احتقار الحماقة، والإجلال عن الإعجاب بالحصافة. وأخيرا يمكن أن نتصور الحب والامل والمجد وانفعالات أخرى تقتن بالاحتقار، وأن نستخلص منها أيضا انفعالات جديدة لم نألف لها ألفاظا تميزها عن الأولى.

القضية 53

عندما تعتبر النفس ذاتها وقدرتها على الفعل، فإنها تكون فرحة، ويكون فرحها أشدّ بقدر تخيلها لذاتها ولقدرتها على الفعل بكثير وضوح.

البرهان

لا يعرف الإنسان نفسه إلا من خلال انفعالات جسمه وأفكارها (القضيتان 19 و 23، الجزء II)، وعلى ذلك فعندما تستطيع النفس اعتبار ذاتها، فإنها تنتقل إلى كمال أعظم، أي (حاشية القضية 11) أنها تشعر بالفرح، ويكون فرحها أعظم بقدر تخيلها لذاتها ولقدرتها على الفعل بكثير وضوح.

الاستدلال

يشهد هذا الفرع أكثر كلما ازداد تخيل الإنسان لامتداح الآخرين له؛ إذ بقدر ما يزداد تخيله لامتداح الآخرين له يكون الفرع الذي يتخيل أنه قد ولده قبيحاً أشدّ، وذلك بمعنى فكرة ذاته (حاشية القضية 29)؛ وبالتالي (القضية 27) سيشعر هو ذاته بفرح أشدّ تصحبه فكرة ذاته.

القضية 54

لا تجدّ النفس إلا في تخيل الأشياء التي تثبت قوّة فعلها الشخصية.

البيروهسان

جُهد النَّفس وقوَّتُها هما عين ماهيتُها (القضية 7)؛ ولكنَّ ماهية النَّفس (كما هو معلوم بذاته) تثبت فقط ما هي النَّفس وما تقدر عليه، لا ما ليس هي وما لا تقدر عليه؛ وبالتالي فهي لا تجدُ إلا في تخيل الأشياء التي تثبت أو تؤكد قوَّة فعلها الشخصية.

القضية 55

عندما تتخيل النَّفس مجزأ، فإنَّ ذلك يحزنها.

البيروهسان

لا تثبت ماهية النَّفس غير ما هي النَّفس وما تقدر عليه، أعني أنَّه من طبيعة النَّفس ألا تتخيل غير ما يثبت قدرتها على الفعل (القضية السابقة)؛ وبناءً عليه، فعندما نقول إنَّ النَّفس، أثناء اعتبارها لذاتها، تتخيل مجزأ، فإنَّ كلَّ ما نعنيه هو أنَّ الجهد الذي تبذله النَّفس من أجل تخيل الشيء الذي يثبت قدرتها على الفعل يكون مُعاقاً، أي (حاشية القضية 11) أنَّ النَّفس تكون حزينة.

اللزامة

ويزداد الحزن أكثر فأكثُر إذا تخيلنا أنَّ غيرنا يوبخنا، وهو ما يُبرهن عليه على نحو لازمة القضية 53.

حاشية

يُسمى هذا الحزن الذي تصحبه فكرة ضعفنا خذلانا (Humilitas) وعلى العكس، يسمى الفرح الناجم عن اعتبارنا لذاتنا حباً الذات (Philautia) أو رضى بالذات (Acquiescentia in se ipso). ولما كان هذا الفرح يتجدد كلما اعتبر المرء فضائله الذاتية أو قدرته على الفعل، فإن كل شخص سيسعى إلى سرد أفعاله وأعماله وإلى التباهي بقواه الجسمية والنفسية معاً، وهذا من شأنه أن يجعل الناس لا يحتملون بعضهم بعضاً.

ويترتب على ذلك أيضاً أن الناس يحسون بعضهم بعضاً بطبيعتهم (انظر حاشية القضية 24 وحاشية القضية 32)، أي أنهم يبتهجون لضعف أمثالهم ويحزنون لفضيلتهم. إذ كلما تخيلنا أعمالنا الشخصية، شعرنا بالفرح (القضية 53)، ويكون فرحنا أعظم بقدر ما تكون أعمالنا معبرة عن كمال أعظم وبقدر ما تتفعلها بأكثر وضوح، أي (بناء على ما قيل في حاشية القضية 40، الجزء II) بقدر ما نستطيع أن نميزها عن الأعمال الأخرى وأن نعتبرها أشياء فريدة من نوعها. لذلك فإننا سنبتهج إلى أقصى حد إذا أنعمنا النظر في ذواتنا ووجدنا فيها ما تنفيه عن غيرنا؛ أما إذا نسبنا ما أثبتناه لأنفسنا إلى الفكرة الكلية للإنسان أو للكائن الحي فإننا لن نبتهج بمثل ذلك القدر. وعلى العكس من ذلك، إننا سنحزن إذا تخيلنا أن أعمالنا ضعيفة بالمقارنة مع أعمال غيرنا. بيد أننا سنسعى إلى إقصاء هذا الحزن (القضية 28)، وذلك إما بتأويل أعمال أمثالنا تأويلاً خاطئاً أو بتجميل أعمالنا الخاصة قدر الإمكان. يبدو إذن أن البشر يميلون بطبيعتهم إلى الكراهية والحسد، فضلاً عما تضيفه التربية؛ ذلك أن الأولياء يحرصون عادةً على إغنائهم على التحلي بالفضيلة باستثارة ميلهم إلى المجد والحسد، إلا أنه قد يتبقى اعتراض، إذ

غالباً ما نعجب بفضائل الناس ونجلّهم؛ وحتى أتجاوز هذا الاعتراض، أضيف
اللزّمة الآتية.

اللزّمة

إنّنا لا نحسد أحداً على فضيلته إلّا إذا كان نظيرنا (aequali).

البيرونيان

الحسد هو الكراهية عينها (حاشية القضية 24)، أي أنّه حزنٌ (حاشية
القضية 13)، أعني (حاشية القضية 11) انفعالٌ يعوق مجهود الإنسان أو قدرته
على الفعل. ولكنّ الإنسان (حاشية القضية 9) لا يجدُ في القيام بشيء من
الأشياء ولا يرغب فيه إلّا إذا كان هذا الشيء يلزم عن طبيعته ذاتها؛ وعلى ذلك
لن يرغب الإنسان أن تُنسب إليه أية قدرة على الفعل أو (الأمران سيّان) أية
فضيلة، إذا كانت هذه القدرة أو الفضيلة خاصة بطبيعة شخص آخر وغريبة
عن طبيعته هو؛ وهكذا فإنّ رغبته لا يمكن أن يعوقها عائق، أي (حاشية
القضية 11) أنّه لا يمكن أن يحزن لِمَا يراه من فضيلة في كائن مختلف عنه،
وبالتالي فهو لا يمكنه أن يحسده، بل سيحسد نظيره الذي تماثل طبيعته
طبيعته.

حاشية

لنّ قلنا أملاه، في حاشية القضية 52، إنّنا نجلّ شخصاً ما لأنّنا نعجب
بخصافته وشجاعته إلخ، فذلك (كما تبين القضية السابقة) لكوننا غتخيل أنّه
يملك هذه الفضائل بوجه خاص وأنّ هذه الفضائل ليست من سمات طبيعتنا؛

وعلى هذا فنحن لا نحسده على ذلك، مثلما لا نحسد الأشجار على ارتفاعها
والأسود على شجاعتها، إلخ.

القضية 56

إن أنواع الفرح والحزن والرغبة، وما يتبعها من انفعالات مؤلقة
منها، كتقلب النفس، أو متفرعة عنها، كالحب والكراهية والأمل
والخشية إلخ، هي بقدر أنواع الأشياء التي تتأثر بها.

البرهان

الفرح والحزن وما يتلو من مشاعر مؤلقة منهما أو متفرعة عنهما، إنما هي
انفعالات (passiones) (حاشية القضية ١١). ثم إننا ننقل (القضية ١) حتماً
من حيث أن لدينا أفكاراً غير تامة، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت لدينا مثل هذه
الأفكار (القضية 3)؛ أعني (الحاشية 1 للقضية 40، الجزء II) أننا لا نفعل إلا
عندما نتخيل، وبعبارة أخرى (القضية 17، الجزء II، وحاشيتها) عندما تتأثر
بانفعال ينطوي على طبيعة جسمنا وطبيعة جسم خارجي. ينبغي إذن تفسير
طبيعة كل انفعال بما يعبر عن طبيعة الموضوع الذي يؤثر فينا، فالفرح الذي
يتولد من موضوع ما، مثلاً من "أ" إنما ينطوي على طبيعة الموضوع "أ"،
والفرح الذي يتولد من الموضوع "ب" إنما ينطوي على طبيعة الموضوع "ب".
وبالتالي فإن هذين الشعورين بالفرح يختلفان بالطبع، إذ أنهما ينجمان عن
عتين من طبيعتين مختلفتين. ويمثل ذلك أيضاً إن الشعور بالحزن المتولد من
موضوع ما يختلف بالطبع عن الحزن المتولد من علة أخرى، وكذا الشأن
بالنسبة إلى الحب والكراهية والأمل والخشية وتقلب النفس إلخ. وبناء على ذلك
هإن أنواع الفرح والحزن والحب والكراهية هي بقدر الأشياء التي تتأثر بها.

وأما الرغبة، فهي ماهية كلّ شخص، أو طبيعته، باعتباره مدفوعاً إلى القيام بشيء ما وفقاً للهيئة التي هو عليها (حاشية القضية 9). وبالتالي فكّما ولدت أسباب خارجية في شخص من الأشخاص نوعاً من أنواع الفرح والحزن والحب والكراهية، أي كلّما كانت طبيعته على هيئة من الهيئات، كانت رغبته حتماً هذه أو تلك؛ وتختلف طبيعة رغبة من الرغبات عن طبيعة رغبة أخرى بقدر اختلاف الانفعالات الموقدة لهما، فأنواع الرغبة هي إذن بقدر أنواع الفرح والحزن والحب إلخ، وهي تبعاً لذلك (بناءً على ما سبق أن بينّا) بقدر أنواع الأشياء التي تؤثر فيها.

حاشية

من بين أنواع الانفعالات هذه، وهي (القضية السابقة) من الكثرة بمكان، نحصر بالذكر الشراهة وإدمان الخمر والشبق والبخل والطموح، وهي لا تعدو أن تكون غير تعيينات للحب أو للرغبة باعتبارها تفسّر طبيعة كلّ من هذين الانفعاليين بالأشياء التي يتعلّقان بها؛ إذ أنّنا لانعني بالشراهة وإدمان الخمر والشبق والبخل والطموح غير الحب أو الرغبة المفرطة في الأكل والشرب والجماع والأموال والمجد. ثم إنّ هذه الانفعالات، من حيث أنّها نُميّزها عن غيرها بالنظر إلى الموضوع الذي تتعلّق به، ليست لها أضداد. ذلك أنّ الاعتدال والقناعة والعفة، التي تعوّننا أن نقابل بينها وبين الشراهة وإدمان الخمر والشبق، ليست وجدانات أو انفعالات، بل هي تعبّر عن قوّة النفس التي تتحكّم في تلك الانفعالات.

ولئنّي لا أستطيع هنا تفسير الأنواع الأخرى من الانفعالات (ذلك أنّها بقدر أنواع الأشياء)، وحتى لو كنت أستطيع، فلسنا بحاجة إلى ذلك؛ إذ لا يتطلّب تحقيق هدفنا، المتمثّل في تحديد قوى الانفعالات وما للنفس من سلطان عليها، غير تعريف عام لكلّ انفعالٍ، أجلّ، لسنا بحاجة إلى أكثر من معرفة

الخصائص العامة للانفعالات والنفس كي تحدّد، كمّاً وكيفاً، ما هي قدرة النفس على التحكم في الانفعالات وقمعها، وبالرغم من وجود اختلاف كبير بين هذا الشعور بالحب أو الكراهية أو الرغبة، أو ذاك، مثلاً بين حب الرجل لأبنائه وحب زوجته، إلا أننا لسنا في حاجة مع ذلك إلى معرفة هذه الفوارق وإلى مواصلة تقصّي طبيعة الانفعالات وأصلها.

القضية 57

يختلف انفعال كلّ شخص عن انفعال شخص آخر بقدر اختلاف ماهية أحدهما عن ماهية الآخر.

البسوطان

هذه القضية بديهية بالنظر إلى البديهية 1 التي تأتي بعد المتخوذة 3 التولية للقضية 3 من الجزء II. ومع ذلك سنبرهن عليها انطلاقاً من تعريف الانفعالات الأصلية الثلاثة.

تعود جميع الانفعالات إلى الرغبة والفرح والحزن، كما بيّنت ذلك من خلال ما أثبت لها من تعريفات. لكنّ الرغبة طبيعة كلّ فرد، أو هي عين ماهيته (حاشية القضية 9)؛ وبناء على ذلك فإنّ رغبة كلّ واحد تختلف عن رغبة الآخر بقدر اختلاف طبيعته أو ماهيته عن ماهية الآخر.

ثم إنّ الفرح والحزن انفعالات تزداد بهما أو تنقص وتساعد أو تعاق قدرة كلّ فرد ودأبه على الاستمرار في وجوده (القضية 11 مع الحاشية). لكننا نعني بالجهود من أجل الاستمرار في الوجود، من جهة ارتباط هذا المجهود بالنفس والجسم معاً، الشهوة والرغبة (حاشية القضية 9)؛ فالفرح والحزن هما إذن

الرغبة أو الشهوة من جهة كونها تزداد أو تنقص وتساعد أو تعاقب بسبب علل خارجية، أي (نفس الحاشية) أن الرغبة هي الطبيعة الخاصة لكل فرد؛ وعلى ذلك يختلف فرح شخص أو حزنه عن فرح شخص آخر أو حزنه بقدر اختلاف طبيعته أو ماهيته عن طبيعة الآخر أو ماهيته؛ وبالتالي يختلف انفعال كل شخص عن انفعالات شخص آخر بقدر اختلافه إلخ.

مباشرة

يتروّط على ذلك أن انفعالات الكائنات الحيّة التي يقال إنها تقتصر إلى العقل (إذ لا مجال للشك في أن الحيوانات تحسّ (sentire)، لا سيما بعدما أصبحت لدينا معرفة عن أصل النفس) تختلف عن انفعالات البشر بقدر اختلاف طبيعتها عن الطبيعة البشرية، إذ لنن كان كل من القرس والإنسان تدفعه رغبة جنسية، فإن الأول مدفوع برغبة فرس والثاني برغبة إنسان. وكذا الشأن بالنسبة إلى الحشرات والأسماك والطيور التي تختلف رغباتها وشهواتها بعضها عن بعض. ورغم أن كل فرد يعيش منبسطاً ومنشراحاً بطبيعته كما هي عليه، فإن هذا العيش الذي يرضى به كل فرد وهذا الانبساط ليس سوى فكرة أو نفس هذا الفرد؛ وهكذا فإن انبساط فرد ما يختلف عن انبساط فرد آخر بقدر اختلاف طبيعة أحدهما أو ماهيته عن طبيعة الآخر أو ماهيته. ويتروّط (خيراً عن القضية السابقة أن الفرق ليس ضئيلاً بين الانبساط الذي يرغب فيه السكير مثلاً والانبساط الذي يتعم به الفيلسوف؛ وهو ما أردت الإشارة إليه بعجالة.

هذا بالنسبة إلى الانفعالات المتعلقة بالإنسان بوصفه متفعلاً؛ بقي أن أضيف بعض الشيء عن الانفعالات المتعلقة به بوصفه فاعلاً.

القضية 58

فضلا عن انفعالي الفرح والرغبة، توجد إحساسات أخرى بالرغبة والفرح نشعر بها من جهة كوننا فاعلين.

البعضا

عندما تتصور النفس ذاتها وتتصور قدرتها على الفعل، فهي تكون مبهجة (القضية 53). ولما كانت النفس تعتبر ذاتها بالضرورة عندما تتصور فكرة صحيحة أو تامة (القضية 43، الجزء II)، ولما كانت من جهة أخرى تتصور بعض الأفكار التامة (الحاشية 2 للقضية 40، الجزء II)، فهي تكون إذن مبهجة عندما تتصور أفكارا تامة، أي (القضية 1) عندما تكون فاعلة.

ثم إن النفس، من حيث أن لديها أفكارا واضحة متميزة، وكذلك من حيث أن لديها أفكارا مختلطة، تسعى إلى الاستمرار في وجودها (القضية 9). ولكننا نعني بالسعي الرغبة (حاشية نفس القضية)؛ وعليه فإن الرغبة تتعلق بنا من جهة كوننا نفهم (intelligimus)، أعني (القضية 1) من جهل كوننا نفعل.

القضية 59

من بين جميع الانفعالات التي تتعلق بالنفس من حيث هي فاعلة، لا وجود لانفعال واحد لا يتصل في الفرح والرغبة.

البرهان

تعود جميع الانفعالات إلى الرغبة أو الفرح أو الحزن، مثلما تبين تعريفاتها لها. لكن ما تعنيه بالحزن هو ما ينقص أو يعوق قوة التفكير هي النفس (القضية 11 مع حاشيتها)؛ وبالتالي فعندما تكون النفس حزينة فإن قدرتها على الفهم (intelligendi)، أي على الفعل (القضية 1)، تكون منقوصة أو معاقة. إذن لا ينسب أي انفعال من انفعالات الحزن إلى النفس من حيث هي قاعلة، بل انفعالات الفرح والرغبة هي وحدها التي (القضية السابقة) تنسب إليها بوصفها قاعلة.

حاشية

أرجع إلى قوة النفس (Fortitudo) الأعمال التي تنتج عن الانفعالات المتعلقة بالنفس من حيث أنها تفهم، كما أقسم قوة النفس إلى رباطة الجأش (Animositatem) ومروءة (Generositate)، وأعني برباطة الجأش الرغبة التي يسعى بها كل فرد إلى حفظ وجوده وفقا لما يمليه العقل فحسب، وبالمروءة الرغبة التي يسعى بها الفرد، وفقا لما يمليه العقل فحسب، إلى معاونة الآخرين وتوثيق عرى الصداقة بينه وبينهم. إنني أنسب إذن إلى رباطة الجأش الأفعال التي ترمي إلى تحقيق غائدة القاعل فحسب، وإلى المروءة الأفعال التي تكون غايتها منفعة الغير أيضا. فالاعتدال (Temperantia) والقبالة (Sobrietas) وحظور البديهة (Animi Praesentia) في المخاطر إلخ، هي من أنواع رباطة الجأش، بينما التواضع (Modestia) والرحمة (Clementia) إلخ، هي من أنواع المروءة.

أعتقد أنني قد أوضحت وفسرت بطلها الأولى انفعالات النفس وتقليباتها الرئيسية التي تنشأ من تركيب الانفعالات الأساسية الثلاثة، وهي الرغبة

والفرح والحزن، ولقد رأينا من خلال هذا العرض أن العلل الخارجية تحركنا بطرق مختلفة وتتألفنا مثلما تفعل الرياح المتضادة بأمواج البحر، دون أن نعرف ما هو مالنا ومصيرنا.

بيد أن ما قلته هو أنني أثبت أهم نزاعات النفس فحسب، لا كل النزاعات التي قد تحدث فيها. فإذا وصلنا على نفس الدرب الذي توخينا أنفا لتبيننا بسهولة أن الحب يقتن بالندم والازدراء والعار، إلخ؛ بل قد أصبح من الثابت عند كل واحد، بناء على ما تقدم، أن الانفعالات قد تمتزج وتتركب بطرق متعددة، فتنوع لدرجة أنه ينعثر حصرها بعدد من الأعداد. ولكن الهدف الذي أسمى إليه يجعلني أقصر على ذكر الرئيسية منها؛ أما التي أغفلتها فهي غير مفيدة ولا تعدو أن تكون موضوع فضول، بيد أنه لا بد من إيداء ملاحظة في شأن الحب، إذ عندما نتمتع بالشئ الذي نرغب فيه فإن هذه المتعة تجعل الجسم، في كثير من الأحيان، على هيئة جديدة، فيتحدد بطريقة أخرى وتنشأ فيه صور أشياء أخرى، فتشروع النفس، في الوقت ذاته، في تخيل شيء آخر وطلبه (cupere)، فإذا تخيلنا مثلاً شيئاً تعودنا التمتع بمذاقه، فإننا سنرغب في التمتع به، أي في أكله، ولكن أثناء تمتعنا به فإن البطن يشبع فتتغير حالة الجسم، وعندما يصبح الجسم على هذه الحالة الجديدة ولا تزول مع ذلك صورة الطعام نظراً إلى بقاءه أمامه بحيث لا يكف المرء عن طلب الطعام أو الرغبة فيه، فإن هذا الطلب أو الرغبة ستقابلها الحالة الجديدة، وبالتالي سيصبح الطعام المشتته كريهاً؛ وذلك هو ما نسميه التقوّر والملل.

ولقد تركت جانباً أيضاً الاضطرابات الخارجية التي تطرأ على الجسم والتي تتجلى في الانفعالات، مثل الارتعاد والامتقاع والشهيق والضحك إلخ، لأنها تتعلق بالجسم فقط ولا صلة لها بالنفس الناطقة.

بقي أخيراً أن أبدي بعض الملاحظات المتعلقة بتعريف الانفعالات، ولذلك سأجدد النظر فيها بنظام وسأدرج ما تجدر الإشارة إليه.

تعريف الانفعالات

I

الرغبة (Cupiditas) عين ماهية الإنسان من حيث تصوُّرها مدفوعة،
بموجب انفعال من انفعالاتها الذاتية، إلى فعل شيء ما.

شرح

قلنا أعلاه، في حاشية القضية 9، إنَّ الرغبة هي الشهوة للواعة بذاتها؛
وإنَّها عين ماهية الإنسان بوصفها مدفوعة إلى القيام بالأشياء الصالحة
لحفظها. بيد أنَّني قد أشرت في نفس هذه الحاشية إلى كوني لا أقيم في
الواقع أيَّ فاصل بين شهوة الإنسان والرغبة؛ إذ سواء كان الإنسان يعي
شهوته أو لا يعيها فهذه الشهوة تبقى هي هي؛ وهكذا حتَّى لا يظنَّ بعضهم أنَّ
ما أدلي به هو من تحصيل الحاصل (tautologiam) فإنَّي لم أشأَّ تفسير الرغبة
بالشهوة، بل عُنيت بحدِّها بطريقة تُضمِّنها جميع مساعي (conatus) الطبيعة
البشرية التي تطلق عليها لفظ الشهوة والإرادة والرغبة والاندفاع. لقد كان
يوسعي أن أقول إنَّ الرغبة هي عين ماهية الإنسان من حيث تصوُّرها مدفوعة
إلى فعل شيء ما، إلَّا أنَّه لا يلزم عن مثل هذا التعريف (القضية 23، الجزء II)
أنَّ بإمكان النفس أن تعي رغبته أو شهوته. لذلك فحتَّى يكون تعريفي
متضمِّناً لمفهوم هذا الوعي، كان لزاماً عليَّ (نفس القضية) أن أضيف: "من حيث
تصوُّرها مدفوعة، بموجب انفعال من انفعالاتها الذاتية إلخ". ذلك أنَّ ما
تقصده بالانفعال المميِّز لماهية الإنسان إنَّما هو كلَّ هيئة تكون عليه هذه
الماهية، سواء كانت هيئة فطرية أو مكتسبة، وسواء كان تصوُّرها من خلال

صفة الفكر وحدها أو من خلال صفة الامتداد وحدها أو أخيراً في علاقتها
بكلتا الصفتين، أعني إذن بلفظ الرغبة جميع مساعي الإنسان واندفاعاته
وشهواته وإراداته، وهي التي تتبدل وفقاً للاستعدادات المتبدلة لنفس الإنسان
وتتناقض فيما بينها لدرجة أن الإنسان يجد نفسه مدفوعاً في اتجاهات
مختلفة ولا يدري في أي اتجاه يسير.

II

الفرح (Laetitia) انتقال الإنسان من كمال أقل إلى كمال أعظم.

III

الحزن (Tristitia) انتقال الإنسان من كمال أعظم إلى كمال أقل.

شرح

أقول لانتقال (transitionem)، لأن الفرح ليس الكمال عينه؛ إذ لو كان
الإنسان يُولد مُزوّداً بالكمال الذي ينتقل إليه، لكان يملك هذا الكمال دونما
شعور بالفرح؛ ويظهر ذلك بأكثر وضوح من خلال الشعور بالحزن المقابل له،
إذ لا أحد يمكنه أن ينكر أن الحزن يتمثل في الانتقال إلى كمال أقل، لا في
الكمال الأقل ذاته، لأنه لا يمكن للإنسان أن يحزن من جهة مشاركته في بعض
الكمال. كما لا يمكن القول إن الحزن يتمثل في انعدام كمال أعظم، لأن
الانعدام (privatio) لا شيء، فانفعال الحزن إنما هو فعل (actus)، وبالتالي لا
يمكن لهذا الفعل أن يكون غير فعل الانتقال إلى كمال أقل، أي الفعل الذي
يجعل قوة الفعل لدى الإنسان تنقص أو تُعاق (انظر حاشية القضية ١١)، وإنني

أغض النظر، فضلاً عن ذلك، عن التعريفات الخاصة بالمرح والدغدغة والكآبة والألم، لأن هذه الانفعالات ترتبط بوجه خاص بالجسم ولأنها لا تبدو أن تكون أنواعاً من الفرح أو الحزن.

IV

الإعجاب (Admiratio) هو أن تبقى النفس مركزة على الشيء الذي تتخيله، نظراً إلى عدم ارتباط هذا التخيل الجزئي بالتخيلات الأخرى (راجع القضية 52 مع حاشيتها).

شـ

لقد بينا في حاشية القضية 18 من الجزء II لأي سبب تنتقل النفس مباشرة من اعتبارها لشيء ما إلى التفكير في شيء آخر، وهذا السبب هو أن صور هذه الأشياء مترابطة ومنظمة بطريقة تجعلها تنتج الواحدة عن الأخرى؛ إلا أن الأمر يختلف عن ذلك عندما تعتبر النفس صورة شيء جديد، فتبقى مشدودة إلى هذا الشيء إلى أن تدفعها أسباب أخرى إلى التفكير في أشياء أخرى، وهكذا فإن تخيل شيء جديد، إذا ما اعتبرناه في ذاته، هو من نفس طبيعة التخيلات الأخرى، ولهذا السبب فإنني لا أعد الإعجاب من جملة الانفعالات، ولا أرى داعياً إلى ذلك، سيما أن ذهول النفس عن أي تفكير آخر لا ينتج عن أية علة موضوعية وإنما عن غياب علة تدفعها إلى الانتقال من اعتبار شيء ما إلى التفكير في أشياء أخرى.

وعلى هذا فإنني لا أعترف إلا بثلاثة انفعالات أولية أو أساسية (مثلما في حاشية القضية 11)، وهي انفعالات الفرح والحزن والرغبة؛ ولم أتحدث عن الإعجاب إلا لما كرسته العادة من إشارة إلى بعض الانفعالات المتفرعة عن

الانفعالات الثلاثة الأولى بأسماء أخرى، عندما تتعلق هذه الانفعالات بأمور تجلب انتباهنا. ولهذا السبب بالذات سأضيف هنا تعريف الاحتقار.

V

الاحتقار (Contemptus) هو أن تتخيل النفس شيئاً لا يؤثر فيها إلا قليلاً، لدرجة أن حضور هذا الشيء يكون حاقراً لها على تخيل ما لا يوجد فيه بدلاً من تخيل ما يوجد.
أترك هنا جانباً تعريف الإجلال والازدراء، إذ لا يستمد أي انفعال اسمه منهما، فيما أعلم.

VI

الحب (Amor) فرح مصحوب بفكرة علة خارجية.

شروح

هذا التعريف يفسر بوضوح كاف ماهية الحب؛ أما المؤلفون الذي يعرفون الحب بأنه "إرادة العاشق أن يقترب بالشئ المعشوق، فتعريفهم هذا لا يعبر عن ماهية الحب وإنما عن خاصيته، بل إنهم لم يحصلوا على أي تصور واضح لخاصيته، نظراً إلى عدم استجلائهم لماهيته بالقدر اللازم؛ وهكذا كان تعريفهم للحب في منتهى الغموض. بيد أنه لا بد من الإشارة إلى كوننا لا تعني البتة، عندما نقول إن هذه الخاصية تتمثل في إرادة العاشق أن يتصل بالشئ المعشوق، أن الإرادة هي الموافقة، أو المداولة التي تقوم بها النفس، أي أنها قرار حر (لقد

بيناً في القضية 48 من الجزء II أن ذلك مجرد وهم)، ولا أنها الرغبة في الاتصال بالشيء المعشوق عندما يكون غائباً أو في إبقائه حاضراً عندما يكون حاضراً؛ إذ يمكن تصور الحب بدون أية واحدة من هاتين الرغبةين؛ بل ما أعنيه بالإرادة هو الانبساط الذي يشعر به العاشق في حضور الشيء المعشوق، وهو ما يقوي شعوره بالفرح، أو هو على الأقل ما ينبغي.

VII

الكراهية (Odium) حزن مصحوب بفكرة علة خارجية.

شرح

ندرك بسهولة ما ينبغي ملاحظته هنا، من خلال ما قيل في شرح التعريف السابق (راجع، فضلاً عن ذلك، حاشية القضية 13)

VIII

الحيل (Propensio) فرح مصحوب بفكرة شيء يكون عوَضاً علة للفرح.

IX

النفور (Aversio) حزن مصحوب بفكرة شيء يكون عوَضاً علة للحزن (راجع فيما يتعلق بهذه الانفعالات حاشية القضية 15).

X

المورَعُ (Devotio) هو حِينَا لَمَّا نَأْثَرُ إعْجَابِنَا.

شـــــــرح

لقد بينّا في القضية 52 أنّ الإعجاب يتولّد من حصول شيء جديد. وبالتالي فإنّ كثرة تخيلنا لما يثير إعجابنا يجعلنا نكفّ عن التّعجّب؛ وبهذه الصورة يتّضح لنا أنّ الشعور بالمورع قد يستحيل بسهولة إلى مجرد حبّ.

XI

الإستهزاء (Errisio) فرح ناجم عن تخيلنا أنّه يوجد في الشيء الذي نكره ما يبعث على الاحتقار.

شـــــــرح

إنّ احتقارنا للشيء الذي نكره يجعلنا ننفي عنه الوجود (انظر حاشية القضية 52)، ونكون في هذه الحالة مبتهجين (القضية 20). لكنّ لما كنّا نفترض أنّ الإنسان يكره مع ذلك موضوع استهزائه، فهذا الابتهاج ليس شديداً (انظر حاشية القضية 47).

XII

الأمَل (Spes) فرح غير متواصل يتولد عن فكرة شيء مقبل أو هاضٍ نَشْكُ
بوجه ما في عاقبته.

XIII

الخشية (Metus) حزن غير متواصل يقول عن فكرة شيء مقبل أو
ماضٍ نشك بوجهه ما في عاقبته (قيماً يتعلّق بهذين الانفعاليين، راجع
الحاشية 2 للقضية 18).

يترتب على هذين التعريفين أنه لا يوجد أمل دون خشية ولا خشية دون أمل، فعلا، إن الذي يتعلق بآمل ما ويشك في عاقبة شيء ما، يتخيل ما يستبعد وجود الشيء المقبل، وبالتالي فهو يكون حزينا (القضية 19)؛ وأثناء تعلقه بالآمل فهو يخشى ألا يحدث الشيء، وعلى العكس من ذلك، إن الذي يشعر بالخشية، أي أنه يشك في عاقبة الشيء الذي يكرهه، يتخيل أيضا ما يستبعد وجود هذا الشيء، وبالتالي (القضية 20) فهو يكون فرحاً وبآمل بهذه الصورة ألا يحدث الشيء.

XIV

الأمنُ (Securitas) فرح يتولد عن فكرة شيء مقبل أو ماضٍ لم يعد هناك محال للشك فيه.

XV

اليأسُ (Desperatio) حزن يتولد عن فكرة شيء مقبل أو ماض لم يعد هناك مجال للشك فيه.

شرح

فالألمن يتولد إذن من الأمل، واليأس من الخشية، وذلك عندما لا يبقى أي مجال للشك في عاقبة الشيء؛ وينجر ذلك عن كون الإنسان يتخيل أن الشيء الماضي أو المعقيل ماثل أمامه فينظر إليه على أنه حاضِر، أو عن كونه يتخيل أشياء أخرى تستبعد وجود الأشياء التي ولدت فيه الشك؛ إذ رغم أننا لا نستطيع أبدا أن نكون على يقين من عاقبة الأشياء الجزئية (لازمة القضية 31، الجزء II) فإننا مع ذلك قد لا نشك فيها أحيانا؛ إذ شأن، كما أثبتنا (حاشية القضية 49، الجزء II)، بين عدم الشك في شيء والتحقق منه، وبالتالي فقد تحدثت هنا صورة شيء ماض أو مقبل نفس الشعور بالفرح أو الحزن الذي تحدثه صورة شيء حاضِر، مثلما أثبت ذلك في القضية 18 التي نُحيل إليها وإلى حاشيتها.

XVI

الانشراح (Gaudium) فرح مصحوب بفكرة شيء ماض حدث ولم يكن لنا أمل في حدوثه.

شـ

أعلم أن هذه الكلمات تُستعمل عادة في معنى آخر، إلا أن غايته هنا هي أن أفسر طبيعة الأشياء، لا معنى الكلمات، وأن أشير إلى الأشياء بألفاظ لا يبتعد معناها المؤلف تماماً عن المعنى الذي وضعت لها؛ فلتكن هذه الملاحظة الأولى والأخيرة.

وفيما يتعلق بكل هذين الانفعالين، أحيلكم إلى اللزامة 1 للقضية 27 وإلى حاشية القضية 22.

XXI

إفراط التقدير (Existimatio) هو أن نقيم وزناً لشخص ما أكثر مما يستحق، نظراً إلى كوننا نحبه.

XXII

الاستخفاف (Despectus) هو ألا نقدّر شخصاً ما حق قدره، نظراً إلى كرمنا له.

شـ

فإفراط التقدير إذن هو نتيجة للحب أو خاصية من خاصياته، والاستخفاف نتيجة للكراهية أو خاصية من خاصياتها؛ ويمكن تعريف إفراط التقدير بأنه الحب بوصفه يؤثر في الإنسان بشكل يجعله يقيم للشيء المحبوب أكثر وزناً مما يستحق، والاستخفاف، على العكس من

ذلك، بأنه الكراهية بوصفها تؤثر في الإنسان بشكل يجعله لا
يقدر الشيء المكروه حق قدره (راجع فيما يتعلق بهذين الانفعالين
حاشية القضية 26).

XXIII

الحسد (Invidia) هي الكراهية بوصفها تؤثر في الإنسان بشكل يجعله
يحزن لسعادة غيره، وينشرح لما يصيبه من سوء.

شرح

الحسد تقابله عادة الرّحمة، ويمكن تعريفها، على الرغم من معنى الكلمة،
كما يلي:

XXIV

الرّحمة (Misericordia) هي الحبّ بوصفه يؤثر في الإنسان بشكل يجعله
ينشرح للخير الذي يحصل لغيره، ويحزن لما يصيبه من شرّ.

شرح

علوة على هذا، راجع فيما يتعلق بالحسد حاشية القضية 24 وحاشية
القضية 32. تلك هي انفعالات القرح والعون التي تصحبها فكرة شيء خارجي
بوصفها علّة بذاتها أو عرضة. انتقل الآن إلى الانفعالات التي تصحبها فكرة
شيء باطني بوصفها علّة.

XXV

الرضى بالذات (Acquiescentia in se ipso) فرح ناجم عن تأمل المرء لذاته ولقدرته على الفعل.

XXVI

الخدلان (Humilius) حزن ناجم عن تأمل المرء لعجزه أو ضعفه.

شــــرح

الرضى بالذات مقابل للخدلان، باعتبار أن ما تعنيه بالأول هو الفرح الناجم عن تأملنا لقدرتنا على الفعل؛ أمّا إذا كان ما نعنيه بالرضى بالذات هو الفرح الذي تصحبه فكرة شيء نعتقد أننا قمنا به بأمر من أنفسنا، فهو مقابل للندم الذي نعرفه كما يلي:

XXVII

الندم (Paenitentia) حزن مصحوب بفكرة شيء نعتقد أننا قمنا به بأمر من أنفسنا.

شــــرح

لقد بينّا أسباب هذه الانفعالات في حاشية القضية 51، وفي القضايا 53 و54 و 55، وفي حاشية هذه القضية الأخيرة، راجع، فيما يتعلق بأوامر النفس

الحرّة حاشية القضية 35 من الجزء II. وعلاوة على ذلك تجدر الإشارة إلى أنّه لا عجب أن ينجرّ الحزن عموماً عن كلّ الأفعال التي تسمّيها عادة أفعالا قبيحة (pravi)، والفرح عن الأفعال المسماة سويّة (recti). وإنّ ذلك لشديد الارتباط بالتربية، كما تبيننا من خلال ما تقدّم. وفعلنا، إنّ استهجان الأولياء للأفعال الأولى ولومهم المتكرّر لأبناؤهم على اقترافهم لها، واستحسانهم للأفعال الثانية وتحريضهم عليها، إنّ كلّ ذلك قد جعل انفعالات الحزن تقترن بالأولى وانفعالات الفرح بالثانية، والتجربة تثبت ذلك أيضاً، إذ أنّ ما يجري به العرف والدين ليس هو عينه عند الجميع، بل على العكس إنّ ما يكون حراماً في نظر بعضهم يكون حلالاً عند البعض الآخر، وما يُعتبر نزيهاً عند بعضهم يعتبر لئيماً عند بعضهم الآخر، وحسب التربية التي تلقّاها كلّ واحد فإنّه سيندم على فعله أو سيقترحه به.

XXVIII

الزّهو (Superbia) هو أن نقدر أنفسنا أكثر ممّا يستحقّ، لأننا نحبّ أنفسنا.

شبه

يختلف الزّهو عن إفراط التقدير: فهذا يتعلّق بموضوع خارجي، بينما يتعلّق الزّهو بالإنسان ذاته الذي يقيم لنفسه وزناً أكثر ممّا يستحقّ. وعلاوة على ذلك، فكما أنّ إفراط التقدير هو نتيجة للحبّ أو خاصية من خاصياته، فكذلك الزّهو يتولّد من الحبّ ذاته، وبالتالي فإنّه يمكن تعريفه كما يلي: إنّّه حبّ الذات (Amor sui) أو الوهمى بالذات بوصفه يؤثّر في الإنسان متأثراً يجعله يقدر نفسه أكثر ممّا يستحقّ.

(انظر حاشية القضية 26)؛ وإنه لا يوجد انفعال مقابل لهذا الانفعال. ذلك أنه لا أحد يقدر نفسه أقل مما يستحق بسبب كرهه لنفسه، بل لا أحد يقدر نفسه أقل مما يستحق لكونه يتخيل أنه لا يقدر على هذا الفعل أو ذلك؛ إذ كل ما يتخيل الإنسان أنه لا يقدر على فعله فهو يتخيله حتماً، وبهينه هذا التخيل يشكّل يجعله غير قادر حقاً على فعل ما يتخيل أنه لا يقدر على فعله، فطالما أنه يتخيل أنه لا يقدر على هذا أو ذلك، فهو لا يتحتم عليه فعله، وبالتالي فإنه يتعذر عليه فعله. أما إذا اعتبرنا الأمور المتعلقة بالظن وحده فإنه يجوز أن نتصور شخصاً يقدر نفسه أقل مما يستحق، ذلك أن الشخص الذي يتأمل ضعفه بحزن فهو يتخيل أن الجميع يحتقرونه، في حين أنهم لا يفكرون في شيء أقل من التفكير في احتقاره. وقد لا يقدر الإنسان نفسه حق قدره أيضاً عندما ينفي عن ذاته في الوقت الحاضر شيئاً يتعلق بالمستقبل، فلا يكون على يقين من هذا الشيء؛ كأن ينفي مثلاً قدرته على تصور شيء يقيني، أو قدرته على الرغبة في شيء أو على فعل شيء غير القبائح والرداقل. ويمكن القول أيضاً إن شخصاً لا يقدر نفسه حق قدره عندما تراه لا يجرؤ على ما يجرؤ أمثاله، نظراً إلى خوفه الشديد من العار. يمكن إذن أن نقابل بين انفعال الزهو والانفعال الذي أسعّيه استخفافاً بالذات (Abjection)، إذ مثلاً يتوآد الزهو من الرضى بالذات، يتوآد الاستخفاف بالنفس من الخذلان، وبالتالي يمكن تعريفه كما يلي:

XXIX

الاستخفاف بالذات (Abjection) حزن يتملّ في عدم تقدير الإنسان لنفسه حق قدره.

شـ

لقد تعودنا في الواقع أن نقايل الزّهر بالتواضع، غير أنّنا في هذه الحالة نأخذ بعين الاعتبار آثارهما، لا طبيعتهما. ذلك أنّنا نسمّي مزهواً الإنسان الذي يبالغ في تعجيد نفسه (حاشية القضية 34)، ولا يتحدث إلاّ عن فضائله وعن رذائل الآخرين، ويرغب في الفوز وحده بتبجيل الجميع، ويتصنّع الوقار والأبهة المميّزين عادة للأشخاص الذين يفوقونه بكثير. ونسمّي متخذاً (humilem)، على العكس من ذلك، الإنسان الذي سرعان ما يخجل، ويعترف بعيوبه وينكر فضائل الآخرين، وينسحب أمام الجميع، ويمشي مطأطأ رأسه، ولا يرغب في التّجمل.

إلاّ أنّ هذين الاتّعاليين، أعني الخذلان والاستخفاف بالنفس، نادران جدّاً لأنّ الطبيعة البشرية، إذا ما اعتُبرت في ذاتها، تقاومهما أشدّ مقاومة (القضيتان 13 و 54)؛ وهكذا فنقولك الذين نظنّهم أكثر الناس استخفافاً بأنفسهم وأكثرهم خذلاناً إنّما هم في الغالب أكثرهم طموحاً وأشدّهم حسداً.

XXX

المجد (Gloria) فرح مصحوب بفكرة عمل من أعمالنا نتخيّل أنّه موضوع إطراءٍ من قبل الآخرين.

XXXI

الخجل (Pudor) حزن مصحوب بفكرة عمل نتخيّل أنّه موضوع استنكار من قبل الآخرين.

شرح

راجع، فيما يتعلّق بهذين الانفعاليين، حاشية القضية 30، لكن لا بدّ من الإشارة هنا إلى الفرق بين الخجل (Pudorem) والحياء (Verecundiam). فالخجل هو الحزن الناتج عن فعلٍ يجرّم له الوجه، والحياء هو الخشية أو التخوّف من الخجل، وهو ما يمنع المرء من اقتفاف عملٍ مخزٍ. ولقد جرت العادة على مقابلة الحياء بالوقاحة (Impudentia)، إلا أنّ الوقاحة ليست في الواقع انفعالا، كما سيبيّن ذلك في أوّله. فاسماء الانفعالات (كما سبق أن أشرت) تتعلّق باستعمالها أكثر ممّا تتعلّق بطبيعتها. وهكذا فقد اتّصفت النظّر في انفعالات الحزن والفرح التي عرّضت على تفسيرها، فانتقل إلى الانفعالات التي أعزوها إلى الرغبة.

XXXII

الإحباط (Desiderium) هو الرغبة أو التزوّج إلى امتلاك شيء، وهذه الرغبة ينمّيها تذكّر هذا الشيء وبعوقها في الوقت نفسه تذكّر أشياء أخرى تنفي وجود الشيء موضوع الرغبة.

شرح

عندما نتذكّر شيئا من الأشياء فإنّنا نكون على استعداد يجعلنا نعتبره بنفس الانفعال الذي نشعر به لو كان هذا الشيء حاضرا أمامنا؛ ولكنّ هذا الاستعداد أو الجهد تكبته أثناء اليقظة صور الأشياء التي تنفي وجود الشيء الذي نتذكّره. وعلى ذلك فعندما نتذكّر شيئا يفرحنا فإنّنا نجد في اعتبار هذا الشيء بفرح كما لو كان حاضرا، ويكفّ جهدنا هذا حالما نتذكّر الأشياء التي

تنقي وجود الشيء المفرح. فالإحباط هو إذن في الواقع حزنٌ مقابل للفرح
الناجم عن غياب شيء نكرهه. راجع في هذا الموضوع حاشية القضية 47.
ولما كان لفظ الإحباط يتعلّق بالرغبة، فإنّي أضفّ هذا الانفعال إلى انفعالات
الرغبة.

XXXXX

المناغسة (AEmulatio) رغبة تتولد فينا لكوننا متخيل أن الآخرين لهم نفس قدر غنة.

إِنْ مِنْ يَلُودٍ بِالْفِرَارِ أَوْ يَعْتَرِيهِ الْخَوْفُ عِنْدَمَا يَرَى الْآخِرِينَ يَقْرُونَ أَوْ
يَخَافُونَ، أَوْ كَذَلِكَ الَّذِي يَرَى شَخْصًا تَحْتَرِقُ يَدُهُ فَيَرْجِعُ يَدَهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَيُبْعِدُ
جَسْمَهُ كَمَا لَوْ كَانَتْ يَدُهُ الَّتِي تَحْتَرِقُ، إِنَّمَا نَقُولُ عَنْ هَذَا الْإِنْسَانِ إِنَّهُ يَقْلُدُ
الْإِنْفَعَالَ غَيْرَهُ، لَا إِنَّهُ يَنَافِسُهُ؛ وَإِنْ كُنَّا نَقُولُ ذَلِكَ فَلَيْسَ لِكُونِنَا نَعْلَمُ أَنَّ سَبَبَ
الْتِقَانِهِ يَخْتَلِفُ عَنْ سَبَبِ الْمَنَافَسَةِ، وَإِنَّمَا لِأَنَّ الْعَادَةَ قَدْ جَرَتْ عَلَى إِطْلَاقِ عِبَارَةِ
الْمَنَافَسَةِ عَلَى الشَّخْصِ الَّذِي يَقْلُدُ السُّلُوكَ الَّذِي نَعْتَبِرُهُ سُلُوكًا عَظِيمًا أَوْ مُفِيدًا
أَوْ مُسْتَحَبًّا. رَاجِعْ، عَلَاوَةً عَلَى هَذَا، وَهِيَمَا يَتَعَلَّقُ بِسَبَبِ الْمَنَافَسَةِ، الْقَضِيَّةُ 27
وَحَاشِيَّتُهَا. أَمَّا عَنْ اقْتِرَانِ هَذَا الْإِنْفَعَالِ عَصُومًا بِالْحَسَدِ، فَرَاجِعِ الْقَضِيَّةَ 32
وَحَاشِيَّتَهَا.

XXXIV

الامتنان أو عرفان الجميل (Gratia seu Gratitude) هو الرغبة أو الحب المتهمم (Amoris studium) الذي يجعلنا نسعى إلى الإحسان إلى من أحسن إلينا حباً لنا (انظر القضية 39 مع حاشية القضية 41).

XXXV

العطف (Benevolentia) رغبة في الإحسان إلى من نشفق عليه (انظر حاشية القضية 37).

XXXVI

الغضب (Ira) رغبة تستثيرنا، بدافع الكراهية، للإساءة إلى من تكره (انظر القضية 39).

XXXVII

التأثر (Vindicta) رغبة تستثيرنا، بدافع كراهية متبادلة، للإساءة إلى من يمكن لنا نفس الشعور وأساء إلينا (انظر لازمة القضية 40 مع حاشيتها).

XXXVIII

القسوة أو الشراسة (Crudelitas seu Saevitia) رغبة تدفع شخصا ما إلى الإساءة إلى من نحبه أو نشفق عليه.

شـــــــرح

القسوة تقابلها الرحمة، التي ليست انفعالا من انفعالات النفس، وإنما هي قوة من قوى النفس تخفف من الغضب والتأثر.

XXXIX

الخوف (Timor) رغبة في تجنب شر أعظم نخشاه، بالإقبال على شر أقل
(انظر حاشية القضية 39).

XL

الجرأة (Audacia) رغبة تلغى شخصاً ما إلى مواجهة خطر يخشى
أمثاله تعريض أنفسهم له.

XLI

يُقال العَجِينُ (Pusillanimitas) عن الشخص الذي يعوق رغبته الخوف من
الخطر الذي يجزو أمثاله على مواجهته.

شـ

ليس العَجِينُ إذن إلا الخوف من شر لا يخشاه عادة عامة الناس؛ لذلك فإنني
لا أربطه بانفعالات الرغبة، غير أنني أردت تفسيره هنا لأنه مقابل حقاً للشعور
بالجرأة إذا اعتبرناه بالنظر إلى الرغبة التي هو عائق لها.

XLII

يُقال الذَّهُول (Consternatio) عن الشخص الذي يعوق رغبته في تجنب
شر ما الاشداه (admiratione) أمام الشر الذي يخشاه.

شرح

فالذهول إذن هو خرب من الجبن؛ إلا أنه ينشأ عن خوف مزيج، وبالتالي فالأفضل تعريفه بأنه الخوف الذي يترك صاحبه مشدوها (stupefactum) أو مترددا بحيث لا يستطيع تجنب شر ما. أقول مشدوها لأننا نتصور أن رغبته في تجنب الشر تعوقها الدهشة؛ وأقول مترددا لأننا نتصور أن هذه الرغبة يعوقها الخوف من شر آخر يقلقه أيضا، فتراه لا يعلم أيهما سيتجنب.

راجع في هذا الشأن حاشية القضية 39 وحاشية القضية 52. راجع أيضا، فيما يتعلق بالجبن والجراة، حاشية القضية 51.

XLIII

الإنسانية أو التواضع (Humanitas seu Modestia) رغبة في القيام بما يطيب للناس وعدم القيام بما يزعجهم.

XLIV

الطموح رغبة مفرطة في المجد.

شرح

الطموح رغبة تُعزِّزُ بها الانفعالات وتكوى (القضيتان 27 و 31)؛ لذلك فإنه يصعب التحكم في هذا الانفعال، إذ طالما يكون المرء خاضعا لرغبة ما فهو

يكون في الوقت ذاته خاضعا لذلك الانفعال. فأفضل الناس، كما قال
شيشرون، أكثرهم لهثا وراء المجد، وحتى الفلاسفة الذين
يؤلفون كتباً في احتقار المجد، إنما يؤمنونها بأسمائهم، إلخ.

XLV

الشراهة (Luxuria) رغبة مفرطة في الطعام الفاخر، بل في عشقه.

XLVI

إدمان الخمر (Ebrietas) رغبة مفرطة في الشراب وعشقه.

XLVII

البخل (Avaritia) رغبة مفرطة في الأموال وعشقها.

XLVIII

الشَّهْو (Libido) رغبة أيضاً في الجماع وعشقه.

شــــرح

سواء أكانت هذه الرغبة في الجماع معتدلة أم لا، فقد جرت العادة على
تسميتها شهواً، ثم إنَّ الانفعالات الخمسة الأخيرة (كما أشرت إلى ذلك في
حاشية القضية 56) لا يوجد ما يتابها. ذلك أنَّ التواضع إنما هو نوع من

الطموح (راجع حاشية القضية 29). ولقد سبق أن أشرت إلى أن الاعتدال والقناعة والعفة ليست انفعالات، وإنما هي من قوى النفس. ورغم أنه قد يحدث للإنسان البخيل أو الطموح أو الجبان أن يمسك عن الإفراط في الأكل والشرب والجماع، إلا أنه لا يمكن مع ذلك مقابلة البخل والطموح والخوف بالشراهة وإدمان الخمر والشبق؛ إذ غالباً ما يتعنى البخيل لو يتخم أكلاً وشرباً على حساب غيره؛ ولما كان الطموح معتدلاً قط لو كان على يقين من عدم اقتضاح أمره؛ ولو كان يعيش مع الفساق والسكّيرين لكان، نظراً إلى طموحه، أكثرهم ميلاً إلى هذه الرذائل؛ أمّا الجبان، فهو يفعل ما لا يريد، وحتى لو رمى بثرواته في البحر من أجل تجنب الموت، فهو يبقى مع ذلك بخيلاً؛ وإذا كان القاسق حزينا لكونه لا يستطيع إشباع رغبته، فهو يبقى مع ذلك فاسقا. وبصورة عامة إن هذه الانفعالات لا تتعلق بفعل الأكل والشرب، إلخ، بقدر ما تتعلق بالرغبة في هذه الأشياء والشوق إليها. وعلى هذا الأساس فإنه لا يمكن مقابلة هذه الانفعالات بأي شيء، ما عدا بالمروعة ورياسة الجأش اللذين سنتناولهما فيما بعد.

إنني أغض الطرف عن تعريف الغيرة وتقلبات النفس الأخرى، لأنها تتركب من الانفعالات التي سبق تعريفها ولأنه ليس لأغلبها اسم؛ بمعنى أنه يمكن الاكتفاء في الحياة العامة، بمعرفتها على وجه العموم. ثم إنه من البين، انطلاقاً من تعريف الانفعالات التي فسرناها هنا، أن هذه الانفعالات تتولد جميعاً من الرغبة أو الفرح أو الحزن، بل هي لا تعدو أن تكون غير هذه الانفعالات الثلاثة التي تعودنا أن نطلق عليها أسماء متنوعة بحسب تنوع علاقاتها وبحسب تسمياتها الخارجية (denominations extrinsecas).

وإذا ما اعتبرنا الآن هذه الانفعالات الأولية وما قلناه سابقاً من طبيعة النفس، فإنه سيتمنى لنا تقديم التعريف الآتي للانفعالات من حيث علاقتها بالنفس وحدها.

تعريف عام للانفعالات

الشعور المُسَمَّى انفعال النفس (animi Pathema) فكرةً مختلطة تثبت بها النفسُ قوَّة وجودِ جسمها أو جزءٍ منه؛ قد تكون هذه القوَّة أعظم أو أصغر من ذي قبل، وقد تدفع النفس إلى التفكير في شيء بدلاً من التفكير في شيء آخر.

شرح

أقول بادئ ذي بدء إنَّ الشعور أو انفعال النفس فكرةً مختلطة؛ ولقد بيَّنت فعلاً أنَّ النفس تكون متفعلة (القضية 3) من حيث أنَّ لديها فقط أفكاراً غير تامة ومختلطة. ثمَّ إنِّي أقول: تثبت بها النفس قوَّة وجود جسمها أو جزء منه، وتكون هذه القوَّة أعظم أو أصغر من ذي قبل؛ وفعلاً، إنَّ جميع أفكار الأجسام التي نملكها إمَّا تشير إلى حالة جسمنا الحاضرة (اللزَّمة 2 للقضية 16، الجزء II) لا إلى طبيعة الجسم الخارجي؛ وتكشف أو تعبِّر الفكرة المؤلَّفة لصورة انفعال ما عن الحالة التي يكون عليها الجسم أو بعض أجزائه نتيجة لازدياد أو نقصان قدرته على الفعل أو قوَّة وجوده، إلَّا أنَّه تجرُّ الإشارة إلى أنني، عندما أقول: قوَّة وجود أعظم أو أصغر من ذي قبل، فإنِّي لست أعني بذلك البتَّة أنَّ النفس تقارن بين حالة الجسم الحاضرة وحالةٍ سابقة، بل ما أعنيه هو أنَّ الفكرة المؤلَّفة لصورة الانفعال تثبت للجسم شيئاً ينطوي حقاً على واقعية أكثر أو أقلَّ من ذي قبل. ولما كانت ماهية النفس تتمثَّل (القضيتان 11 و 13، الجزء II) في إثبات الوجود الفعلي لجسمها، فضلاً عن كوننا نعني بالكمال ماهية الشيء عينها، فإنَّه ينتج عن ذلك أنَّ النفس تنتقل إلى كمال أعظم أو أقلَّ عندما

يحدث لها أن تثبت لجسمها أو لجزء من أجزائه شيئا ينطوي على أكثر واقعية أو أقل من ذي قبل، وعليه قلما قلت أملاه إن قدرة النفس على التفكير تزداد أو تضعف فإنني لم أقصد شيئا آخر غير أن النفس قد كوّنت عن جسمها أو عن بعض أجزائه فكرة تعبر عن أكثر واقعية أو أقل مما سبق أن أثبتته لجسمها، ذلك أننا نقيس قيمة الأفكار وقوة التفكير العقلية بقيمة الموضوع.

وأضفت أخيرا أن هذه الفكرة المختلطة تدفع النقص إلى التفكير في شيء ما بدلا من التفكير في شيء آخر، حتى أعبر، فضلا عن طبيعة الحزن أو الفرح، عن طبيعة الرغبة أيضا.

الجزء الرابع
في عبودية الإنسان
أو
في قوى الانفعالات

تمهيد

أسمي عجز الإنسان عن كبح انفعالاته والتحكّم فيها عبودية (servitude) . فالإنسان الذي تقهره الانفعالات لا يخضع لنفسه بقدر ما يخضع لسلطان النفس، حتّى أنّه خالقاً ما يجد نفسه مجبراً على القيام بالأسر مع أنّه يرى الأفضل، وقد رأيت أن أفسّر هذا الرضع

بالرجوع إلى حلقته، وأن أبين، علاوة على ذلك، ما يُستحسن وما يُستقبح في التفاعلات. إلا أنه لا بدّ، قيل الشروع في ذلك، من تقديم بعض الملاحظات التمهيدية عن الكمال والنقص، والصير والشور.

من عزم على القيام بشيءٍ، وإكماله، فعمله يُعتبر كاملاً، لا من منظوره الخاص فحسب، بل أيضاً في اعتقاد كلّ من يعرف جيّداً، أو يظنّ أنّه يعرف، فكل من أنجز هذا العمل وغايته، فإذا اطلّعنا مثلاً على عمل ما (على افتراض أن هذا العمل لم يكتمل بعد) وعلمنا أنّ غاية صاحبه هي بناء منزل، فإننا نقول إنّ المنزل ناقص أو، على العكس، إنّهُ كامل، حالما يبلغ مرحلة الإكمال التي قرّرها صانعه. أمّا إذا شاهدنا عملاً لم يسبق أن رأينا له نظيراً وكنا نهمل فكر صانع هذا العمل فإنّه يتعذّر علينا بالتاكيد أن نعرف ما إذا كان عملاً كاملاً أم ناقصاً. تلك هي، على ما يبدو، الدلالة الأولى لهذه الألفاظ. بيد أنّهُ لما شرع الناس في تكوين أفكار عامة وفي تصوّر منازل وبناعات وأبراج وما إلى ذلك، ولما أخذوا يفضّلون بعض القماذج على أخرى، أصبح كلّ إنسان يسمّي كاملاً الشيء الذي يراه موافقاً للفكرة العامة التي كوّنها عن أشياء من نفس القبيل، وناقصاً الشيء الذي يرى أنّه أقلّ موافقة للنموذج الذي تصوّره، مع أنّ صانع هذا الشيء قد أنجز في الواقع ما كان يهدف إلى إنجازه تماماً. ويبدو أنّهُ لا وجود لأيّ تطيل آخر لوصف الموجودات الطبيعية - أي الموجودات التي لم تصنعها يد الإنسان - بأنّها كاملة أو ناقصة. فالإنميون قد تعودوا على تكوين أفكار عامة عن الأشياء الطبيعية ومن منتجات قنهم الخاص، وتعودوا النظر إليها على أنّها نماذج؛ كما ذهب بهم الظنّ إلى أنّ الطبيعة تهتمّ بهذه الأفكار (إذ في رأيهم لا تتصرف الطبيعة أبداً إلا لأجل غاية) وتعتبرها نماذج لها، فتجدد، كلّما حدث في الطبيعة أمر متافض للنموذج الذي تصوّروه لشيء من نفس النوع، اعتقدوا أنّ الطبيعة نفسها قد فشلت أو أخطأت، وأنّها تركت عملها منقوصاً. وبما أنّنا نرى الناس يصفون عادة الأشياء الطبيعية بأنّها كاملة أو ناقصة بناء على حكم مسبق أكثر منه على معرفة هذه الأشياء معرفة حقيقية. وكما بيّنا بالفعل في تفصيل الجزء الأول، إنّ الطبيعة لا تتصرف من أجل غاية، وإنّ ذلك الكائن الأزلي واللّهائي الذي نسمّيه الله أو الطبيعة يفعل بنفس الضرورة التي يوجد بها؛ إذ أنّ الضرورة الطبيعية التي يوجد بها هي عين الضرورة التي يفعل بها أيضاً كما سبق أن بيّنا (القضية 6 من

الجزء الأول). فالسبب أو الملة التي تقسّر إن شاء الله، أو الطبيعة، ولماذا يوجد، هي ملة واحدة وهي ملة الغرام. ولما كان الله لا يوجد من أجل غاية، فهو لا يقبل أيضا من أجل غاية، وقلة لا مبدء له ولا غاية أيضا، شأنه في ذلك شأن وجوده.

ومن ناحية أخرى، إن ما نسميه ملة غائية لا يعمو أن يكون الرغبة الإنسانية من جهة كونها المبدء الأول أو الملة الأولى لشيء ما. فعموما نقول مثلا إن السكن قد كان الملة الغائية لوجود هذا المنزل أو ذلك فإننا في الحقيقة لا نعني شيئا غير أن شخصا ما قد تصوّر مزاجا الحياة المنزلية وروغب في بناء منزل. فليس السكن إذن، من حيث أنه ملة غائية، إلا رغبة جزئية. وهذه الرغبة هي في الواقع ملة فاعلة يتنظر إليها الناس على أنها الملة الأولى نظرا إلى جهلهم لعلل رغباتهم. ولقد قلت مرارا عديدة إن الناس يعون حقاً أفعالهم ورغباتهم إلا أنهم يجولون الطل التي تجعلهم يرضون هي شيء من الأشياء. أما ما يرضه بعضهم من أن الطبيعة قد تخفق أو تخطئ أحيانا فتنتج أشياء ناقصة، فأني أعدّ ذلك من جملة الأقاويل التي عالجتها في تحليل الجزء الأول. إذن ليس الكمال والنقص في الواقع غير أنماط تفكير، أعني غير معانٍ تعوّدتا إتساعها بمقارنة أفراد من نفس النوع أو الجنس ببعضهم ببعض. لذلك قلت أعلاه (التعريف 6، الجزء II) إنني أعني بالكمال والواقع نفس الشيء. فنحن قد تعوّدتا فعلا أن نردّ جميع أفراد الطبيعة إلى جنس أو نحو يطلق عليه إسم أهمّ العصور (Generatissimum)، أي إلى معنى الوجود الذي ينتمي إلى جميع أفراد الطبيعة على وجه الإطلاق. فإذا ودنا أفراد الطبيعة إلى ذلك الجنس وقارنا بعضهم ببعض، فوجدنا أن لبعضهم أكثر كيانا وواقعية من بعض، قلنا إن بعضهم أكمل من بعض؛ وإذا نسبنا إليهم شيئا يقصمّ النقي، كالحّد والنهاية والمعجز، اعتبرناهم ناقصين، لا لكونهم يفتقرون إلى بعض الأشياء مميّز لهم أو لكون الطبيعة قد أخطأت، وإنّما لأنّ أثرهم في أنفسنا يختلف عن الأثر الذي يتركه أولئك الذين نتمتعهم بالكمال؛ إذ لا شيء ينتمي إلى طبيعة بعض الأشياء باستثناء ما يلزم عن وجوب طبيعة ملة فاعلة ما، وكلّ ما يفرّج عن وجوب طبيعة ملة فاعلة إنّما هو يحدث حتما.

وفيما يتعلق بالحسن والقيح (Bonum et Malum) فهما لا يشيران أيضا إلى أية صفة إيجابية في الأشياء، من جهة اعتبارها على الأمل في ذاتها، كما أنّهما ليسا تعطين من

أنماط التفكير أو معتبين نكوّنهما عندما نقارن الأشياء بعضها ببعض، فتفس الشيء قد يكون في الوقت ذاته حسناً وقيماً، ولا هذا ولا ذاك. فالموسيقى مثلاً تكون حسنة بالنسبة إلى الكفيف، وقيماً في نظر المكروب، بينما لا يجدها الأصمّ لا حسنة ولا قيماً. بيد أن لا يد من الاحتفاظ بهذه الالتفات، إذ لما كنا نرغب في إنشاء فكرة عن الإنسان تكون بمثابة النموذج الطبيعية البشرية موضوعاً نصب أعيننا، فمن المفيد أن نحفظ بهذه الالتفات بالمعنى الذي ذكرته.

ولمّا يلي، إن ما أقصده بالحسن هو ما نعلم يقيناً أنه يقربنا من نموذج الطبيعة البشرية الذي حلتاه لأنفسنا، وبالقيح، على خلاف ذلك، ما نعلم يقيناً أنه يبعثنا عن محاكاة هذا النموذج. وعلى ذلك سنقيس درجة كمال الناس بمدى اقترابهم من هذا النموذج نفسه. ونجدر الإشارة أولاً إلى أنني لا أعني، عندما أقول إن شخصاً قد انتقل من كمال أقل إلى كمال أكثر، أو العكس، أن هذا الشخص قد تحول من ماهية إلى أخرى أو من شكل إلى آخر. فاللوس مثلاً يتقوّن كيانه سواء تحول إلى إنسان أو إلى حشرة؛ إذ أن قدرته على العمل يوصفها طبيعته نفسها، هي التي تتصورها متزايدة أو متناقصة. وأخيراً إن ما أعنيه بالكمال عمره هو التوافق، أي ماهية كل شيء بما هو موجود وبما هو ينتج مطوّلاً ما بوجه ما وبغض الطرف من ديمومته. فعلاً، لا يمكن القول عن أي شيء جزئي أنه أكمل من غيره لكونه بقي موجوداً مدة أطول من مدته؛ فمدة الأشياء لا تحدّها ماهيتها، إذ لا تتطوّر هذه الماهية على مدة وجود حقيقة ومحددة، بل يمكن لشيء من الأشياء، سواء كان هذا الشيء أكثر كمالاً أو أقله أن يستمرّ دائماً في الوجود بنفس القوة التي بدأ يوجد به، وعليه فجميع الأشياء متساوية من هذا المنظور.

تساوي قيمات

- I - أعني بالخير (Bonum) ما نعلم علماً يقيناً أنه نافع لنا.
- II - أعني بالشرّ (Malum)، على العكس من ذلك، ما نعلم علماً يقيناً أنه يحول دون فوزنا بخير ما.

(راجع، فيما يتعلق بهذين التعريفين، خاتمة التمهيد السابق).

- III - أسمى الأشياء الجزئية أشياء حادثة (contingentes) إذا ما اعتبرنا ماهيتها فحسب فلم نجد قط ما يثبت وجودها أو ينفيه بالضرورة.
- IV - أسمى الأشياء الجزئية أشياء ممكنة (possibles) إذا ما اعتبرنا العلل المنتجة لها ولم نعلم ما إذا كان يتحتم على هذه العلل أن تنتجها أم لا.

(لم أميز في الحاشية الأولى للقضية 33 من الجزء I، بين الممكن والحادث، لأنه لم يكن من الضروري أنذاك التمييز الدقيق بينهما).

V - وفيما يلي سأعني بالإنفعالات المتناقضة تلك التي تدفع الإنسان في اتجاهات مختلفة، حتى لو كانت هذه الانفعالات من نفس النوع، كالشهوة والبخل اللذين هما ضربان من الحب؛ وليست هذه الانفعالات متناقضة بطبيعتها، وإنما عرضاً.

VI - لقد فسرت في الحاشيتين 1 و 2 للقضية 18 من الجزء III ما أعنيه بالانفعال إزاء شيء مستقل وشيء حاضر وشيء ماض؛ إنني أحيل إليهما.

(وصلاوة على ذلك لا بد من الإشارة هنا إلى كوننا لا نستطيع، مهما الشان بالنسبة إلى البعد المكاني، أن نتخيل بُعداً زمانياً بوضوح إذا وقع تجاوز حد معين؛ وبعبارة أخرى، فكما أن جميع الأشياء التي تبعد عنا أكثر من مائتي قدم، أو التي يتجاوز بعدها عن المكان الذي نوجد فيه البعد التي نتخيلها بوضوح، إنما نتخيلها عادة على نفس المسافة منا وكما لو كانت على صعيد واحد، فكذلك الأشياء التي نتخيل أن المدة الفاصلة بين زمن وجودها والزمن الحاضر مدة أطول من التي تعولنا تخيلها بوضوح، إنما نتخيلها جميعاً على بُعد واحد من الحاضر ونفسها بوجه ما إلى لحظة زمنية واحدة).

VII - أعني بالغاية (finem) التي نقوم من أجلها بشيء ما الشهوة (appetitum).

VIII - أعني بالفضيلة (virtutem) والقوة (potentiam) نفس الشيء؛ أي (القضية 7، الجزء III) أَنَّ الفضيلة، من حيث علاقتها بالإنسان، هي عين ماهيته أو طبيعته، بوصفه قادراً على القيام ببعض الأشياء التي يمكن معرفتها بقوانين طبيعته وحدها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا يوجد في الطبيعة أي شيء جزئي بكون أن يوجد شيء آخر أكثر منه قدرة وقوة؛ بل كلما وجد شيء من الأشياء، وجد شيء آخر أقوى منه قادر على تحطيمه.

القضية 1

لا شيء مما تتضمنه الفكرة الباطلة من إيجاب يزول بحضور الحق بما هو حق.

البرهان

ليس البطلان إلا انعدام المعرفة الذي تنطوي عليه الأفكار غير التامة (القضية 35، الجزء II)، ولا تنطوي هذه الأخيرة على أي شيء إيجابي تُعتبر بمقتضاه أفكاراً باطلة (القضية 33، الجزء II)؛ بل هي، على العكس، من حيث علاقتها بالله، أفكار صحيحة (القضية 32، الجزء II)، وعلى ذلك فإذا كان ما تتضمنه الفكرة الباطلة من إيجاب يزول بحضور الحق بما هو حق، فإن الفكرة

الصحيحة ستزيل نفسها بنفسها، وهذا (القضية 4، الجزء III) محال، إذن فلا شيء مما تتضمنه الفكرة الباطلة إلخ.

حاشية

يفهم ذلك بأكثر وضوح من خلال اللزامة 2 للقضية 16، الجزء II؛ إذ التخيل فكرة تدلّ على حالة الجسم البشري أكثر منه على طبيعة الجسم الخارجي، ويكون ذلك طبيعاً بصورة مختلطة ولا متميَّزة؛ وذلك ما يجعل النفس تقع في الخطأ. فعندما ننظر مثلاً إلى الشمس، فإننا نتخيلها على بُعد مائتي قدم تقريباً، ونبقى مخطئين في تقديرنا ما لم نعلم بعدها الحقيقي. ولا شك أن الخطأ سينزل عندما نصبح على علم بهذا البعد، إلا أن التخيل ياقى لا محالة، لأن هذا التخيل هو ما يفسر طبيعة الشمس من حيث إنها تؤثر في الجسم؛ وهكذا. فرغم معرفتنا لمسافة الشمس الحقيقية إلا أننا لن نكفّ عن تخيلها قريبة منا. وكما بيّنا في حاشية القضية 35 من الجزء II، إننا لا نتخيل الشمس قريبة لكوننا تجهل مسافتها الحقيقية، وإنما لكون النفس تتخيل حجم الشمس وفقاً لتأثير الجسم بها. ويمثل ذلك فعندما تسقط أشعة الشمس على سطح الماء، وتتعكس في اتجاه أعيننا، فإننا نتخيل الشمس كما لو كانت في الماء، رغم أننا نعلم أين توجد حقاً. وكذا الشأن بالنسبة إلى التخيلات الأخرى التي توقع بالنفس في الخطأ، فهي - سواء كانت تدلّ على حالة الجسم الطبيعية أو على تزايد قدرته على الفعل أو تناقصها - ليست مناقضة للحق ولا تتلاشى بحضوره، لا شك أن خوفنا غير المُبرّر من شرٍّ ما قد يزول بمجرد سماعنا لنبأ صحيح، إلا أن العكس قد يحدث في بعض الأحيان أيضاً، مثلاً عندما نخشى شرّاً يكون حدوثه محققاً فيزول خوفنا عند سماعنا لنبأ باملل؛ وهكذا فإن التخيلات لا تزول بحضور الحق بما هو حق، وإنما بظهور تخيلات أشدّ منها تنفي الوجود الحالي للأشياء التي تتخيلها، كما بيّنا في القضية 17، الجزء II.

القضية 2

إننا نتفعل (*patimur*) بوصفنا جزءاً من الطبيعة يتعذر تصوّره بذاته وبغير الأجزاء الأخرى.

البرهان

نكون منفصلين عندما يحدث شيء فينا لا تكون علته إلا جزئياً (التعريف 2، الجزء III)، أي (التعريف 1، الجزء III) عندما يحدث شيء فينا لا يمكن استنباطه من قوانين طبيعتنا وحدها. فتحن نتفعل إذن بوصفنا جزءاً من الطبيعة يتعذر تصوّره بذاته وبغير الأجزاء الأخرى.

القضية 3

القوة (*Vis*) التي يظلّ بها المرء مستمراً في الوجود إنما هي قوة محدودة تتجاوزها قوة الأسباب الخارجية بصورة لا محدودة.

البرهان

هذا بين من خلال البديهية المذكورة أعلاه. ذلك أنه كلما وُجد شخص، وُجد من كان أكثر منه قوة، مثلاً "أ"، وإذا وُجد "أ"، وُجد شيء آخر أقوى منه، مثلاً "ب"، وهلمّ جراً؛ وهكذا فإن قوة الإنسان تحدّها قوة شيء آخر وتتجاوزها قوة الأسباب الخارجية بصورة لا محدودة.

القضية 4

من المحال ألا يكون الإنسان جزءاً من الطبيعة وألا يتأثر إلا بالتغيرات التي يمكن معرفتها بطبيعته وحدها والتي هو علقتها التامة.

البسوفان

القوة التي تسمح للأشياء الجزئية، وبالتالي للإنسان، بالمحافظة على كيانها إنما هي قوة الله ذاتها، أي قوة الطبيعة (لازمة القضية 24، الجزء I)، لا بوصفها قوة لا متناهية وإنما من حيث أنه يمكن تفسيرها بالماهية الإنسانية الفعلية (القضية 7، الجزء III). وعلى ذلك فإن قوة الإنسان، من حيث أنه يمكن تفسيرها بماهيته الفعلية، هي جزء من قوة الله أو الطبيعة اللانهائية، أي أنها (القضية 34، الجزء I) جزء من ماهيته؛ كانت هذه النقطة الأولى.

والآن، لو كان بوسع الإنسان ألا يتأثر إلا بالتغيرات التي يمكن معرفتها بطبيعته وحدها، لما كان الإنسان (القضيتان 4 و 6، الجزء III) فانياً، ولكان وجوده مستقراً بالضرورة؛ ولا بد أن ينتج ذلك عن علة تكون قوتها محدودة أو غير محدودة؛ أعني إما عن قوة الإنسان فحسب، بحيث يكون الإنسان قادراً على تجنب التغيرات الأخرى التي قد تطرأ عليه من جهة الأسباب الخارجية، وإما عن القوة اللامتناهية للطبيعة التي توجه جميع الأشياء الجزئية بشكل يجعل الإنسان قادراً على التأثر فقط بالتغيرات الصالحة لحفظ كيانه.

لكن القرضية الأولى محالة (انطلاقاً من القضية السابقة التي يتصف برهانها بالشمولية ويمكنه أن ينطبق على جميع الأشياء الجزئية). فلو كان بوسع الإنسان إذن ألا يتأثر إلا بالتغيرات التي يمكن معرفتها بطبيعته وحدها، وأن يوجد بالتالي على النوام (كما بينا ذلك الآن)، فلا بد أن ينتج ذلك عن قوة الله اللامتناهية؛ وبناءً على ذلك (القضية 36، الجزء I) فلا بد أن ينتج

عن ضرورة الطبيعة الإلهية، باعتبارها متأثرة بفكرة إنسان ما، نظام الطبيعة كلها متصورة من خلال صفتي الامتداد والفكر. ويرتّب على ذلك (القضية 21، الجزء 1) أنّ الإنسان سيكون لا متناهيًا وهذا (بحسب الجزء الأول من هذا البرهان) محال. فمن المحال إنني ألا يتأثر الإنسان إلا بالتغيرات التي هو علّتها التامة.

الضرورة

ينتج عن ذلك أنّ الإنسان يخضع دائماً وبالضرورة للانفعالات، وأنّه ينقاد وراء النظام العام للطبيعة ويمثل له ويتكيف معه بقدر ما تقتضيه طبيعة الأشياء.

القضية 5

ليس ما يحدّد قوة انفعال ما ونموّه واستمراره في الوجود، القوة التي نخلّ بها دائبين على الوجود، وإنّما يتحدّد كلّ ذلك بقوة العلة الخارجية بالمقارنة مع قوتنا الشخصية.

البرهان

لا يمكن تفسير ماهية انفعال ما بماهيتنا وحدها (التعريفان 1 و 2، الجزء III)، أي (القضية 7، الجزء III) أنّ ما يحدّد قوة انفعال ما ليس القوة التي نخلّ بها دائبين على وجودنا، وإنّما (كما بيّنا ذلك في القضية 16، الجزء II) هو بالضرورة قوة العلة الخارجية بالمقارنة مع قوتنا الشخصية.

القضية 6

يمكن لقوة الانفعال أو التأثير أن تفوق أفعال الإنسان، أي أنها قد تفوق قوته، بحيث يظل الانفعال عالقاً بهذا الإنسان.

المبرهان

إن ما يحدد قوة انفعال ما وتعمه ودأبه على الوجود هو قوة العلة الخارجية بالمقارنة مع قوتنا. الشخصية (القضية السابقة): وبالتالي (القضية 3) فإنه يمكنها أن تفوق قوة الإنسان إلخ.

القضية 7

لا يمكن لانفعال من الانفعالات أن يُعاقى أو يزول إلا بفعل انفعال مناقض له وأقوى منه.

المبرهان

إن الانفعال، من حيث علاقته بالنفس، فكرة تثبت بها النفس قوة من قوى وجود جسمها تكون أعظم أو أصغر من ذي قبل (التعريف العام للانفعالات، في خاتمة الجزء II). وبالتالي فعندما تخضع النفس لبعض الانفعالات فإن الجسم يكون متأثراً هو الآخر بانفعال يزيد في قدرته على الفعل أو ينقص منها. ثم إن انفعال الجسم هذا (القضية 5) يتلقى من علة القوة التي تجعله يستمر في وجوده، وبالتالي فلا يمكن لهذا الانفعال أن يُعاقى أو يزول إلا

بعلّة جسمية (القضية 6، الجزء II) تُحدث في الجسم انفعالا مناقضا له (القضية 5، الجزء III) وأقوى منه (البديهية)، بحيث (القضية 12، الجزء II) تتأثر النفس بفكرة انفعال أقوى مناقض للانفعال الأول، أي (التعريف العام للانفعالات) أنها تشعر بانفعال أقوى يتناقض للانفعال الأول وينفي وجوده أو يحطّمه؛ وبهذه الصورة فإنه لا يمكن لانفعال من الانفعالات أن يزول أو يُعاقى إلاّ بانفعال مناقض له وأقوى منه.

ثالثاً

لا يمكن لانفعال ماء من حيث علاقته بالنفس، أن يُعاقى أو يزول إلاّ بفكرة انفعال من انفعالات الجسم، مناقض للانفعال الذي نشعر به وأقوى منه. ذلك أنّ الانفعال الذي نتأثر به لا يمكنه أن يعاقى أو يزول إلاّ بانفعال أقوى منه ومناقض له (القضية السابقة)، أي (التعريف العام للانفعالات) بفكرة انفعال من انفعالات الجسم أقوى من الانفعال الذي نتأثر به ومناقض له.

القضية 8

لا تعلو معرفة الخير والشر إلاّ أن تكون انفعال الفرح أو الحزن، من حيث شعورنا به.

البرهان

نسَمّي خيراً أو شراً ما يكون نافعا لحفظ وجودنا أو ضاراً به (التعريفان 1 و 2)، أي (القضية 7، الجزء III) ما يزيد أو ينقص، ويساعد أو

يعوق قدرتنا على الفعل، وعلى ذلك (تعريف القرح والحزن، حاشية القضية 11، الجزء III) فيقدر ما ندرك أن شيئاً ما يولد فينا القرح أو الحزن فإننا نسمّيه شيئاً حسناً أو قبيحاً. وهكذا فإن معرفة الخير والشر لا تعدو أن تكون غير فكرة القرح أو الحزن ذاته. ولكن هذه الفكرة متّحدة بالانفعال على غرار اتّحاد النفس بالجسم (القضية 21، الجزء II)؛ أي (كما بينّا ذلك في حاشية نفس القضية) أن هذه الفكرة لا تتميز، في الواقع، عن الانفعال ذاته أو (التعريف العام للانفعالات) عن فكرة انفعال الجسم إلا من حيث تصوّرنا لها؛ إنن لا تعدو معرفة الخير والشر إلا أن تكون الانفعال ذاته، من حيث شعورنا به.

القضية 9

يكون الانفعال الذي نتخيّل علته حالياً حاضرة أشدّ ممّا لو كنّا لا نتخيّلها حاضرة.

البسوفان

التخيّل (Imaginatio) فكرة ننظر من خلالها إلى شيء ما على أنه حاضر (حاشية القضية 17، الجزء II)، ولكن هذه الفكرة تدلّ على حالة الجسم البشري أكثر منه على طبيعة الجسم الخارجي (اللازمة الثانية للقضية 16، الجزء II). فالانفعال إنن هو التخيّل (التعريف العام للانفعالات)، من حيث أنه يدلّ على حالة الجسم. ولكن التخيّل يكون أشدّ (القضية 17، الجزء II) طالما لم نتخيّل ما يستبعد الوجود الحالي للشيء الخارجي؛ وبالتالي فإنّ الانفعال الذي نتخيّل علته حالياً حاضرة يكون أشدّ أو أقوى ممّا لو كنّا لا نتخيّل حضور هذه العلة.

مُشَيِّدة

لما قلت، في القضية ١٨ من الجزء الثاني، إن صورة شيء مستقبل أو ماضٍ تؤاد فينا نفس الانفعال الذي تولده صورة شيء حاضر، فإنني قد أشوت بوضوح إلى أن ذلك يكون صحيحاً من جهة اعتبارنا لصورة الشيء وحدها؛ إذ هي تكون فعلاً من نفس الطبيعة، سواء تخيلنا الأشياء على أنها حاضرة أو لا؛ ولكنني لم أنكر أن هذه الصورة تصبح أضعف عندما نعتبر حضور أشياء أخرى تنفي الوجود الحالي للشيء المستقبل؛ فإنا لم أشر إلى ذلك آنذاك لأنني كنت أنوي معالجة قوى الانفعالات في هذا الجزء بالذات.

لازمة

تكون صورة شيء مستقبل أو ماضٍ، أعني صورة شيء تتمثله في علاقة بالزمن المستقبل أو الماضي - باستثناء الحاضر - أضعف، عند تساوي جميع الأمور، من صورة شيء حاضر؛ وبالتالي يكون الانفعال المتعلق بشيء مستقبل أو ماضٍ، عند تساوي جميع الأمور، أكثر قوتاً من الانفعال المتعلق بشيء حاضر.

القضية 10

يكون تأثرنا أشدّ بشيء مستقبل نتخيل أنه سيحدث قريباً، منه بشيء مستقبل نتخيل أن زمن حدوثه بعيد جداً عن الزمن الحاضر؛ ويكون تأثرنا أشدّ أيضاً بذكرى شيء نتخيل أنه حدث منذ عهد قريب، منه بذكرى شيء نتخيل أنه حدث منذ زمن بعيد.

البوهان

فعلا، إذا تخيلنا أن شيئا ما سيحدث قريبا، أو أنه حدث منذ عهد قريب، تخيلنا شيئا آخر يقفي وجوده الحاضر بأقل شدة مما لو كنا نتخيل أنه سيحدث في المستقبل البعيد أو أنه قد حدث منذ زمن بعيد (كما هو معلوم بذاته)؛ وتبعا لذلك (القضية السابقة) فإننا سنتأثر به بصورة أشد.

حاشية

يترتب على الملاحظة التي أضفناها إلى التعريف 6، أن الأشياء التي تفصلها عن الزمن الحاضر مدة أطول من المدة التي نستطيع ضبطها بالخيال تؤثر فينا جميعها بصورة ضعيفة، رغم أننا نعلم بوجود مدة زمنية طويلة تفصل بعضها عن بعض.

القضية 11

يكون الانفعال المتعلق بشيء نتخيل أنه ضروري أشد - عند تكافؤ جميع الأمور - مما لو كان يتعلق بشيء ممكن أو حادث (*possibilem vel contingentem*) أي غير ضروري.

البوهان

عندما نتخيل شيئا على أنه ضروري، فنحن نثبت وجوده، وعلى العكس، فإننا ننفي وجوده عندما نتخيل أنه ليس ضروريا (الحاشية الأولى للقضية 33).

الجزء 1)؛ وبالتالي (القضية 9) يكون الانفعال المتعلق بشيء ضروري أشدّ - عند تكافؤ جميع الأمور - ممّا لو كان يتعلّق بشيء غير ضروري.

القضية 12

يكون الانفعال المتعلق بشيء نعلم أنّه حالياً غير موجود، وتخيّل أنّه ممكن الوجود (possibile)، أشدّ - عند تكافؤ جميع الأمور - ممّا لو كان يتعلّق بشيء حادث (contingent).

البرهان

عندما نتخيّل شيئاً على أنّه حادث، فإنّنا لا نتأخّر بصورة شيء آخر مُتّبعت لوجوده (التعريف 3)؛ بل (حسب الفرضية) نتخيّل بعض الأشياء التي تستبعد (secludunt) وجوده الحالي. وعلى العكس، عندما نتخيّل شيئاً ممكن الوجود في المستقبل فإنّنا نتخيّل بعض الأشياء التي تتّبت وجوده (التعريف 4)، أي (القضية 18، الجزء III) التي تستثير الشعور بالأمل أو الخوف؛ وبالتالي يكون الانفعال المتعلّق بشيء ممكن الوجود أكثر شدة.

الاستدلال

يكون الانفعال المتعلّق بشيء نعلم أنّه حالياً غير موجود وتخيّل أنّه حادث أكثر فتوراً ممّا لو كنّا نتخيّله حالياً موجوداً.

البـروهـان

يكون الانفعال المتعلق بشيء نتخيل أنه حالياً موجود أشدّ ممّا لو كنّا نتخيّل أنّ هذا الشيء سيحصل في المستقبل (لازمة القضية 9)، ويكون الانفعال أشدّ بكثير ممّا لو كنّا نتخيّل أنّ الزمن المستقبل هو جدّ بعيد عن الزمن الحاضر (القضية 10)، وعلى ذلك يكون الانفعال المتعلق بشيء نتخيّل أنّ مدّة وجوده بعيدة جدّاً عن الزمن الحاضر أكثر فتوراً ممّا لو كنّا نتخيّل هذا الشيء حاضراً؛ إلاّ أنّه يكون أكثر شدة (القضية السابقة) ممّا لو كنّا نتخيّل الشيء حالئاً؛ وهكذا فإنّ الانفعال المتعلق بشيء حادث يكون أكثر فتوراً ممّا لو كنّا نتخيّل هذا الشيء حالياً حاضراً.

القضية 13

يكون الانفعال المتعلق بشيء حادث نعلم أنّه حالياً غير موجود، أكثر فتوراً - عند تكافؤ جميع الأمور - من الانفعال المتعلق بشيء ماضٍ.

البـروهـان

عندما نتخيّل شيئاً على أنّه حادث فإنّنا لا نتأثّر بصورة أيّ شيء آخر مثبت لوجوده (التعريف 3) بل (حسب الفرضية) نحن نتخيّل، على العكس من ذلك، بعض الأشياء التي تستبعد وجوده الحالي، ولكن إذا كان تخيلنا له في علاقته بالزمن الماضي، فالمفروض أن نتخيّل شيئاً يستعيده إلى الذاكرة أو

يستثير صورته (القضية 18، الجزء II، مع لازمتها) بحيث نصيغ نعتيره كما لو كان حاضراً (لازمة القضية 17، الجزء II). وهكذا (القضية 9) فإن الانفعال المتعلق بشيء حادث نعلم أنه حالياً غير موجود يكون أكثر فتورا - عند تكافؤ جميع الأمور - من الانفعال المتعلق بشيء ماضٍ.

القضية 14

لا يمكن للمعرفة الصحيحة للخير والشر، من حيث هي صحيحة، أن تعوق أي انفعال، وإنما يمكنها ذلك باعتبارها انفعالا فحسب.

اليوهان

الانفعال فكرة تثبت بها النفس قوة من قوى وجود جسمها تكون أعظم أو أصغر من ذي قبل (التعريف العام للانفعالات)؛ وعلى ذلك (القضية 1) فهو لا يحتوي على أي شيء إيجابي يمكن أن يزول بحضور الحق؛ وبالتالي فإن المعرفة الصحيحة للخير والشر لا يمكنها، من حيث هي صحيحة، أن تعوق أي انفعال. ولكن يمكنها، باعتبارها انفعالا (انظر القضية 8) وهي صورة ما إذا كانت أقوى من الانفعال موضوع الإعاقة، أن تعوق هذا الأخير بهذه الصورة فحسب.

القضية 15

الرغبة التي تتولد عن المعرفة الصحيحة للخير والشر يمكن أن

تخدمها أو تعوقها رغبات أخرى كثيرة متولدة عن الانفعالات التي تقهرنا .

البرهان

تنشأ بالضرورة عن المعرفة الصحيحة للخير والشر - من حيث أن هذه المعرفة انفعال (القضية 8) - رغبة ما (التعريف الانفعالات)، وتكون هذه الرغبة أشدّ بقدر ما يكون الانفعال الذي تتولد عنه أشدّ (القضية 37، الجزء III). ولكن لما كانت هذه الرغبة (حسب الفرضية) تنشأ عن كوننا نترك حقاً شيئاً ما، فهي تنشأ قبلاً إذن من حيث أننا نفعل (القضية 1، الجزء III) ويجب بالتالي أن نترك بما هيتهما وحدهما (التعريف 2، الجزء III)؛ وبناء على ذلك (القضية 7) فإنه ينبغي تحديد قوتها ونموها بقوة الإنسان فحسب. ثم إن الرغبات المتولدة عن الانفعالات التي تقهرنا تكون هي أيضاً أشدّ بقدر ما تكون هذه الانفعالات أعنف؛ وبالتالي فلا بدّ من تحديد قوتها ونموها بقوة العلل الخارجية (القضية 5) التي، لو قارناها بقوتنا، وجدناها متجاوزها بصورة غير محدودة (القضية 3).

وتبعا لذلك فإن الرغبات المتولدة عن انفعالات من هذا النوع يمكنها أن تكون أشدّ عنفا من الرغبة المتولدة عن المعرفة الصحيحة للخير والشر؛ وإذا كان ذلك (القضية 7) فإنه يمكنها كبح هذه الرغبة أو إخمادها.

القضية 16

الرغبة التي تتولد عن معرفة الخير والشر، على اعتبار أن هذه المعرفة تتعلق بالمستقبل، إنما يسهل أن تعوقها أو تخدمها الرغبة في الأشياء التي هي حالياً ممتعة.

البرهان

يكون الانفعال المتعلق بشيء نتخيل أنه لابد من حدوثه أكثر فتورا من الانفعال المتعلق بشيء حاضر (لازمة القضية 9). ولكن الرغبة المتولدة عن المعرفة الصحيحة للخير والشر - مع أن هذه المعرفة تتعلق بأشياء هي حالياً حسنة - يمكن أن تخدمها أو تعوقها بعض الرغبات الطارئة (بناء على القضية السابقة التي برهانها كلي)؛ إذن فالرغبة المتولدة عن هذه المعرفة، على اعتبار أن هذه المعرفة تتعلق بالمستقبل، يمكن أن تعوقها أو تخدمها بسهولة، إلخ.

القضية 17

الرغبة التي تتولد عن المعرفة الصحيحة للخير والشر، على اعتبار أن هذه المعرفة تتعلق بأشياء حادثة، يمكن أن تعوقها أيضاً وبأكثر سهولة الرغبة في الأشياء الحاضرة.

البرهان

تكون البرهنة على هذه القضية على منوال القضية السابقة، بالاعتماد على لازمة القضية 12.

حاشية

أعتقد أنني بينت بهذه الصورة لأي سبب يتأثر الناس بالرأي (opinione)

أكثر منه بالعقل الصحيح (vera Ratione)، ولماذا تستشير المعرفة الصحيحة للخير والشرّ الانفعالات النفس وتتساق غالباً وراء كل نوع من أنواع النزوع الشهواني (libidinis)، ومن هنا جاء قول الشاعر: "إنّي أرى الأفضل واستحسنه، ولكنّي أقوم بالأرذل"، ويبدو أنّ مؤلف سفر الجامعة (Ecclesiastes) لم يفكر في غير ذلك لما قال: "من زاد علمه زاد ألمه"، وإن كنت أقول ذلك فليس لكي أستخلص أنّ الجهل أفضل من العلم أو أنّه لا فرق بين أحقر وقيّيب فيما يتعلّق بكبح الأهواء، وإنّما لأنّه يتحمّ علينا معرفة ما تتّصف به طبيعتنا من عجز مقلما يتحمّ علينا معرفة ما تتّصف به من قوّة، حتّى نتمكن من تحديد ما يستطيعه العقل وما لا يستطيعه من قهر للانفعالات؛ ولقد قلت إنّني سأتناول بالدوس في هذا الجزء عجز الإنسان فحسب، لأنّي أريد أن يكون بحثي لسلطان العقل على الانفعالات بحثاً مستقلاً.

القضية 18

تكون الرغبة الناجمة عن الفرح، عند تكافؤ جميع الأمور، أشدّ من الرغبة الناجمة عن الحزن.

البرهان

الرغبة عين ماهية الإنسان (التعريف للانفعالات)، أي أنّها (القضية 7، الجزء II) الجُهد الذي يبذله الإنسان سعياً إلى الاستمرار في وجوده، وعلى ذلك فإنّ الرغبة الناجمة عن الفرح يساعدها أو يُميّها انفعال الفرح ذاته (تعريف الفرح في حاشية القضية 2، الجزء II)؛ وعلى العكس، إنّ الرغبة الناجمة عن الحزن يُضعفها أو يعوقها انفعال الحزن ذاته (نفس الحاشية)؛ وبالتالي فإنّه ينبغي تعريف قوّة الرغبة الناجمة عن الفرح بقوّة

الإنسان وقوة العلة الخارجية معاً؛ بينما يجب تعريف قوة الرغبة الناجمة عن الحزن بقوة الإنسان فحسب، وهكذا فإن الرغبة الأولى أشد من الثانية.

حاشية

عُسرَت في هذه القضايا القليلة أسباب عجز الإنسان وتقلبه، ولماذا لا يمثل الناس لأوامر العقل. بقي الآن أن أبين لماذا يأمرنا العقل أيّ الانفعالات موافق لقواعده وأياً مناقض. ولكن قبل الشروع في إثبات ذلك بإطناب وفق المنهج الهندسي الذي تبنّيته، يجدر أولاً التعريف بإيجاز بأوامر العقل، حتّى يطالع كل واحد بأكثر سهولة على وجهة نظري.

إنّ العقل لا يطالب بشيء مناقض للطبيعة، وبالتالي فهو يدعو إلى أن يحب كل امرئ نفسه وأن يبحث عن منفعة الخاصة وعمّا يفيد حَقّاً، وأن يرغب في كل ما يقود الإنسان فعلاً إلى كمال أعظم، وبصورة مطلقة أن يسهر كل واحد على حفظ كيانه بقدر ما هو فيه (quantum in se est). وهذه الحقيقة لا تقلّ لزوماً عن الحقيقة القائلة إنّ الكلّ أعظم من الجزء (راجع القضية 4 من الجزء III). ولما كانت الفضيلة (التعريف 8) لا تتمثل في شيء غير التصرف وفقاً لقوانين طبيعتنا الخاصة، كما أنّه لا يمكن للمرء أن يحافظ على كيانه (القضية 7، الجزء III) إلا وفقاً لقوانين طبيعته الشخصية، فإنّه ينتج عن ذلك:

(1) أنّ مبدأ الفضيلة هو الجهد ذاته الذي يبذله المرء من أجل حفظ كيانه الشخصي، وأنّ السعادة هي قدرة المرء على حفظ كيانه.

(2) أنّ رغبتنا في الفضيلة يجب أن تكون لذات الفضيلة، وأنّه لا يوجد أيّ شيء أفضل من الفضيلة أو أكثر منها إفادة لنا بحيث يستلزم هذا الشيء ميّلتنا إليه.

(3) وأخيراً أنّ الذين ينتهرون قد أصيبت أنفسهم بالعجز وقهرتهم العلل الخارجية المناقضة لطبيعتهم قهراً كلياً. وينتج أيضاً، عن المصادرة 4، الجزء

II، أنه لا يمكننا أبداً ألا نحتاج إلى أي شيء من الأشياء الخارجية عن تواتنا من أجل حفظ وجودنا ولا أن نقطع بها الصلة تماماً. ولو تأملنا من جهة أخرى في أنفسنا لبدأنا نذهتنا بالتأكيد أكثر نقصاً لو كانت النفس وحيدة ولا تعرف شيئاً خارج ذاتها. توجد إذن خارجنا أشياء كثيرة تعود علينا بالفائدة، مما يستلزم ميلنا إليها. ومن بين هذه الأشياء لن نجد الفكر أفضل من تلك التي تتفق كلياً مع طبيعتنا! ذلك أنه إذا اقترن مثلاً فردان من طبيعة واحدة تماماً فإتھما سيكونان فرداً أقوى من كل واحد منهما على حدة. فلا شيء إذن أنفع للإنسان من الإنسان، أجلاً لا يمكن للبشر أن يتمثروا شيئاً أفضل لحفظ كيانه من أن يتفق جميعهم في كل الأمور - بحيث تؤلف أنفسهم جميعاً وأجسامهم جميعاً نفساً واحدة وجسماً واحداً بوجه من الوجوه - وأن يسهروا جميعاً على حفظ وجودهم، وأن يسعوا كلهم إلى ما يفيدهم جميعاً، ويترتب على ذلك أن الذين يقوهم العقل، أي الذين يبحثون على ضوء العقل عما يفيدهم، لا يرغبون في شيء لأنفسهم إلا ويرغبونه أيضاً لبقية الناس، وبالتالي فهم عادلون وحسنو النية ونزهاء.

تلك هي وصايا العقل التي أردت الإشارة إليها هنا بإيجاز، قبل أن أشرع في إثباتها بطريقة منهجية ويكثر إسهاباً؛ وإن ما حقني على ذلك هو أن أسترهى، إن أمكن، انتباه أولئك الذين يظنون أن هذا المبدأ: "يسعى كل واحد إلى البحث عما ينفعه"، إنما هو أصل الفحشاء، لا أصل الفضيلة والأخلاق. فبعد أن بينت بإيجاز أن الأمر ليس كذلك، فأصل البرمته متوحيها نفس النهج الذي توحيته إلى حد الآن.

الْقَضِيَّة 19

يميل كل شخص بالضرورة، وفق قوانين طبيعته، إلى ما يراه خيراً أو شراً، أو ينفّر منه.

البرهان

معرفة الخير والشر هي (القضية 8) انفعال الفرح أو الحزن ذاته، من حيث أننا نشعر بذلك؛ وبالتالي (القضية 28، الجزء III) فإن كل شخص يرغب بالضرورة فيما يراه خيرا، وينفر، على العكس، مما يراه شرا، ولكن هذه الرغبة لا تعتبر أن تكون غير ماهية الإنسان ذاتها أو طبيعته (تعريف الشهوة في حاشية القضية 9، الجزء III، والتعريف للانفعالات). إذن يرغب كل شخص بالضرورة، وفق قوانين طبيعته فحسب، أو ينفر من، إلخ.

القضية 20

بقدر ما نجد في البحث عما ينفعنا، أي في حفظ كياننا، وبقدر ما تكون قدرتنا على ذلك، تكون فضلاء؛ وعلى العكس، إذا أهملنا ما ينفعنا، أعني حفظ كياننا، كنا عاجزين.

البرهان

الفضيلة عين قوة الإنسان التي تحددها ماهيته وحدها (التعريف 8)، أعني (القضية 7، الجزء III) التي يحددها فقط جهد الإنسان الذي يبذله من أجل الاستمرار في وجوده. وعليه فبقدر ما يجد المرء في حفظ كيانته وبقدر ما تكون له القدرة على ذلك، يكون فاضلا؛ وبالتالي (القضيتان 4 و 6، الجزء III) فهو يكون عاجزا إن لم يعتن بحفظ كيانته.

حاشية

لا أحد يتوانى إذن في اشتهاه ما يراه نافعا له، أي في حفظ كيانه، إلا إذا قهرته أسباب خارجية مناقضة لطبيعته. أجل، لا أحد يكون مدفوعا بضرورة طبيعته إلى التقزز من الطعام أو إلى قتل نفسه، بل تدفعه دائما إلى ذلك أسباب خارجية، وهو ما يحدث بطرق كثيرة: فهذا يرغب على قتل نفسه من طرف شخص يُدير له يده - الماسكة، بالصفحة، لسيف - موجها إياها نحو قلبه؛ وذلك يرغب أيضا، مثل ستيكا، بأمر من الطاغية، على قصد إوريته، أي أنه يرغب في تجنب شر أعظم بقبوله لشر أقل؛ أو أخيرا قد تُهيء أسباب خارجية مجهولة مخيلتنا بوجه ما وقد تؤثر في جسمنا بوجه ما فتتقمص طبيعة مخالفة لطبيعتنا الأولى ويتعدى وجود فكرتها في النفس (القضية 10، الجزء III). أما أن يسعى الإنسان، بضرورة طبيعته، إلى نفي وجوده أو إلى تغيير الصورة التي هو عليها، فذلك مستحيل تماما كاستحالة أن يوجد شيء من لا شيء، وهو ما يتضح لكل شخص بقليل من التفكير.

القضية 21

لا أحد يمكنه أن يرغب في السعادة وفي حسن السلوك وطيب العيش دون أن يرغب في نفس الوقت أن يكون ويسلك ويعيش، أي أن يوجد بالفعل.

البرهان

برهان هذه القضية يديهي، بل إن القضية نفسها بديهية بذاتها وأيضاً من خلال تعريف الرغبة. ذلك أن الرغبة (التعريف 1 للانفعالات) في العيش السعيد أو السلوك الحسن، إلخ، هي عين ماهية الإنسان، أي (القضية 7، الجزء III) أنّها الجهد الذي يبذله كلّ شخص لحفظ كيانه. فلا أحد إذن يمكنه أن يرغب، إلخ.

القضية 22

لا يمكن أن نتصور أية فضيلة سابقة على تلك الفضيلة (أعني على سعي الإنسان إلى حفظ كيانه).

البرهان

السّعي إلى حفظ الكيان هو عين ماهية الشيء (القضية 7، الجزء III). وبالتالي فلو أمكن تصور فضيلة سابقة على هذه الفضيلة، أي على هذا السّعي، لكان تصور ماهية الشيء (القضية 8) سابقاً على الشيء ذاته، وهذا (كما هو معلوم بذاته) محال. إذن لا يمكن أن نتصور أية فضيلة، إلخ.

الاستدلال

السّعي إلى المحافظة على الكيان هو الأصل الأول والوحيد للفضيلة. ذلك

أنه لا يمكن تصور (القضية السابقة) أيّ مبدأ آخر سابق على هذا المبدأ، كما أنه لا يمكن (القضية 21) تصور أية فضيلة بخير هذا المبدأ.

القضية 23

لا يمكن القول إطلاقاً عن الإنسان الذي تدفعه أفكاره غير التامة إلى القيام بشيء ما إنه يتصرف وفقاً للفضيلة؛ ولكن يمكن قول ذلك إذا كانت تدفعه المعرفة.

البسوطيان

عندما يكون الإنسان مدفوعاً بأفكاره غير التامة إلى القيام بشيء ما، فهو يكون منفعلاً (القضية 1، الجزء III)، أي أنه يقوم بشيء (التعريفان 1 و 2، الجزء III) لا يمكن إدراكه بمأهيته وحدها أو بعبارة أخرى (التعريف 8)، لا ينتج عن فضيلته الشخصية. لكن عندما تدفعه المعرفة إلى القيام بشيء ما، فهو يكون فاعلاً (القضية 1، الجزء III)، أي (التعريف 2، الجزء III) أنه يقوم بشيء يُدرك بمأهيته وحدها أو (التعريف 8) ينتج بصورة مطابقة عن مأهيته الشخصية.

القضية 24

لا يعتبر السلوك وفق الفضيلة إطلاقاً إلا أن يكون سلوك المرء وعيشه وحفظه لكيانه (وهي كلها ألفاظ مترادفة)

وفقاً لما يميله العقل، وعلى أساس مبدأ السعي إلى ما فيه منفعة الخاصة.

البرهان

لا يعدو السلوك وفق الفضيحة إطلاقاً (التعريف 8) إلا أن يكون سلوك المرء وفقاً لقوانين طبيعته الخاصة. ولكننا لا نكون فاعلين إلا باعتبارنا عارفين (القضية 3، الجزء III)؛ إذن فالسلوك وفقاً للفضيلة إطلاقاً لا يعدو أن يكون سلوك المرء وعيشه وحفظه لكيانه وفقاً لما يميله العقل، وعلى أساس مبدأ السعي إلى ما فيه منفعة الخاصة.

القضية 25

لا أحد يجد في حفظ كيانه من أجل شيء آخر غيره.

البرهان

إن ما يحدد الجهد الذي يبذله كل شيء من أجل الاستمرار في كيانه هو (القضية 7، الجزء III) ماهية الشيء ذاتها لا غير؛ وينتج بالضرورة (القضية 6، الجزء III) عن هذه الماهية وحدها باعتبارها موجودة، لا عن ماهية شيء آخر، أن كل شخص يسعى إلى حفظ كيانه.

وعلاوة على ذلك، إن هذه القضية بديهية من خلال لازمة القضية 22. ذلك أنه لو كان الإنسان يجد في حفظ كيانه من أجل شيء آخر غيره، لكان هذا الشيء عندئذ الأصل الأول للفضيلة (كما هو معلوم بذاته)، وهذا (بحسب اللازمة المشار إليها) محال. إذن لا أحد يجد، إلخ.

القضية 26

كله ما نسعى إليه على أساس مبدأ العقل إنما هو الفهم
Intelligere لا غير؛ ولا ترى النفس، من حيث إنها تستخدم العقل،
أي شيء مفيد لها عدا ما يقود إلى الفهم.

البسوفان

ليس السعي إلى حفظ الكيان غير ماهية الشيء ذاته (القضية 7،
الجزء III) الذي يتصور، من حيث وجوده على ما هو عليه، مألوكا للقوة
على الاستمرار في الوجود (القضية 6، الجزء III) وعلى فعل كل ما ينجر
حتماً عن طبيعته على نحو ما هي موجودة (حسب تعريف الشهوة في
حاشية القضية 9، الجزء III)، ولكن ماهية العقل لا تعدو أن تكون إلا
النفس بوصفها تفهم بوضوح وتميز (الحاشية 2 للقضية 40، الجزء II)؛
إذن (القضية 40، الجزء II) فكل ما نسعى إليه على أساس مبدأ العقل هو
الفهم لا غير.

وفضلاً عن ذلك، لما كان سعي النفس هذا الذي تطلّب به دائبة، بوصفها
عاقلة، على حفظ كيائها، لا يعدو أن يكون إلا الفهم (حسب الجزء الأول من
هذا البرهان)، فهذا السعي إلى الفهم هو إذن (لازمة القضية 22) الأصل
الأول والوحيد للفضيلة، كما أن سعيها إلى فهم الأمور ليس من أجل أية
غاية (القضية 25)؛ بل، على العكس، لن تستطيع النفس، بوصفها
عاقلة، أن تنصرف أي شيء يكون خيراً لها عدا ما يقودها إلى الفهم
(التعريف 1).

القضية 27

لا نعلم علماً يقينا ما إذا كان شيء من الأشياء خيراً أم شراً، إلا إذا كان هذا الشيء يقودنا حقاً إلى الفهم، أو يحول دونه.

البسوفان

إنَّ النفس، بوصفها عاقلة (Ratiocinatur)، لا ترغب في شيء آخر غير الفهم، ولا ترى أيَّ شيء مفيد لها عدا ما يقود إلى الفهم (القضية السابقة). ولكنَّ النفس (القضيتان 41 و 43، الجزء II؛ انظر أيضاً حاشية القضية 43) لا تكون على يقين من الأشياء إلا من حيث أنَّ لديها أفكاراً تامة، أو (إذا الأمران سيان، حسب الحاشية 2 للقضية 40، الجزء II) بوصفها عاقلة، إذن فنحن لا نعلم علماً يقينا ما إذا كان شيء من الأشياء خيراً لنا، إلا إذا كان هذا الشيء يقودنا حقاً إلى الفهم، ولا نعلم، على العكس، ما إذا كان شراً، إلا إذا كان يعوقنا عن الفهم.

القضية 28

الخير الأسمى (*summum bonum*) بالنسبة إلى النفس إنما هو معرفة الله، وأسمى فضائل النفس أن تعرف (cognoscere) الله.

البسوفان

أسمى شيء يمكن أن تتركه النفس هو الله، أعني (التعريف 6، الجزء I)

الكائن اللامتناهي إطلاقاً، الذي (القضية 15، الجزء 3) لا يمكن أن يوجد شيء بعونه ولا أن يتصور؛ وعليه (القضيتان 26 و 27) فإن الشيء الذي يعود بأعظم فائدة على النفس، أعني خيرها الأعظم (التعريف 1)، هو معرفة الله. وبفضلا عن ذلك، لا تكون النفس فاعلة إلا إذا كانت فاعمة (القضيتان 1 و 3، الجزء III)، كما أنه لا يمكن القول على وجه الإطلاق إنها تتصرف وفقاً للفضيلة إلا إذا كانت فاعمة أيضاً (القضية 23). فالفهم إذن هو فضيلة النفس المطلقة. ولما كان نسمى موضوع يمكن أن تفهمه النفس هو الله (كما بينا أعلاه) فإن نسمى قضائل النفس أن تفهم الله أو تعرفه.

القضية 29

لا يمكن لأي شيء جزئي تختلف طبيعته تماماً عن طبيعتنا أن يساعد قدرتنا على الفعل أو يعوقها، وإذا تحدثنا على وجه الإطلاق، لا يمكن لأي شيء أن يكون خيراً لنا أو شراً إن لم يكن متفقاً معنا في شيء ما.

البرهان

إن القوة التي تجعل شيئاً من الأشياء الجزئية، وبالتالي (لازمة القضية 10، الجزء II) التي تجعل الإنسان موجوداً ومنتجاً لمعلول ما، لا يحدّها إلا شيء جزئي آخر (القضية 28، الجزء I) ينبغي أن تُدرك طبيعته (القضية 6، الجزء II) من خلال نفس الصفة التي تسمح بتصور الطبيعة الإنسانية. يمكن إذن لقدرتنا على الفعل، مهما كان

تصوّرنّا لها، أنّ تتحدّد، وبالتالي أن تساعد أو تُعاق، من قبل القوة الخاصة بشيء تختلف طبيعته تماماً عن طبيعتنا؛ ولأنّ كلّاً نسمّي خيراً أو شراً ما يكون سبباً في الفرح أو الحزن (القضية 8) أي (حاشية القضية 11، الجزء III) ما يتمي أو يضعف، ويساعد أو يعوق قدرتنا على الفعل، فإنّ الشيء الذي تكون طبيعته مختلفة تماماً عن طبيعتنا لا يمكنه أن يكون بالنسبة إلينا لا حسناً ولا قبيحاً.

القضية 30

لا شيء يكون شيئاً من جهة موافقته لطبيعتنا، لكنّ كلّاً أساء إلينا شيء من الأشياء، كان مناقضاً لنا.

المسوّمان

نسمّي شراً ما يكون سبباً في الحزن (القضية 8)، أي (بناءً على تعريف الحزن، حاشية القضية 11، الجزء III) ما يضعف أو يعوق قدرتنا على الفعل. وعليه فلو كان بعض الأشياء يُسيء إلينا من جهة ما يتّفق فيه معنا، لكان بإمكان هذا الشيء أن يضعف أو يعوق ما يتّفق فيه معنا، وهذا (القضية 4، الجزء III) محال. فلا شيء يمكنه إذن أن يسيء إلينا من جهة ما يتّفق فيه معنا، بل، على العكس، عندما يُسيء إلينا شيء ما، أي (كما سبق أن بيّنا) عندما يستطيع أن يضعف أو يعوق قدرتنا على الفعل، فهو يكون مناقضاً لنا (القضية 5، الجزء III).

القضية 31

كلما كان شيء من الأشياء موافقا لطبيعتنا، كان خيرا بالضرورة.

البرهان

إذا كان شيء ما موافقا لطبيعتنا فإنه لا يمكنه أن يكون سيئا (القضية السابقة)؛ وبالتالي فهو بالضرورة إما حسنا وإما سواء (indifferens) فلنفرض الحالة الأخيرة، أي الحالة التي لا يكون فيها الشيء لا حسنا ولا سيئا؛ إذاً لن ينتج عن طبيعة هذا الشيء (التعريف 1) ما يصلح لحفظ طبيعتنا، أعني (حسب الفرضية) لحفظ طبيعة الشيء ذاته؛ ولكن ذلك محال (القضية 6، الجزء III)؛ فإذا كان الشيء موافقا لطبيعتنا فهو إذن خير بالضرورة.

اللازمة

يترتب على ذلك أنه كلما كان شيء من الأشياء أكثر موافقة لطبيعتنا، كان أكثر فضلا علينا وأكثر نفعا لنا؛ والعكس بالعكس، كلما كان شيء من الأشياء أكثر نفعا لنا، كان أكثر موافقة لطبيعتنا. ذلك أنه إذا كان هذا الشيء لا يتفق مع طبيعتنا، فهو بالضرورة مختلف عنها أو مناقض لها. فإن كان مختلفا عنها فهو لن يكون حينئذ (القضية 29) لا حسنا ولا سيئا؛ وإن كان مناقضا لها، فهو سيكون مناقضا للطبيعة الموافقة لطبيعتنا، أي (القضية السابقة) مناقضا للحسن، أعني أنه سيكون سيئا. فلا شيء يمكنه إذن أن يكون حسنا إلا من جهة موافقته لطبيعتنا، وبالتالي فكلما كان بعض الأشياء أكثر موافقة لطبيعتنا كان أكثر نفعا لنا، والعكس بالعكس.

القضية 32

بقدر ما يخضع البشر للانفعالات السلبية، فإنه لا يمكن القول إنهم يتفقون بطبيعتهم.

البهرهان

عندما نقول إن بعض الأشياء تتفق بطبيعتها فنحن نعني أنها تتفق من حيث القوة (القضية 7، الجزء III)، لا من حيث العجز والسكب، ولا أيضا (حاشية القضية 3، الجزء III) من حيث الانفعال السلبي. وعلى ذلك فبقدر ما يخضع البشر للانفعالات السلبية فإنه لا يمكن القول إنهم يتفقون بطبيعتهم.

حاشية

هذا يليهي أيضا بذاته: فقولك إن الأبيض والأسود يتفقان فقط في أن كليهما ليس أحمر هو إثبات إطلاقا أن الأبيض والأسود لا يتفقان في شيء؛ وقولك أيضا إن الحجر والإنسان يتفقان فقط في كونهما محدودين وعاجزين، أو في كونهما لا يوجدان بضرورة طبيعتهما، أو في كونهما أخيرا مقهورين بصورة لا محودة من قبل الأسباب الخارجية، إنما هو في الحقيقة إثبات أن الحجر والإنسان لا يتفقان في شيء؛ إذ الأشياء المتفقة سلبا فحسب، أي فيما لا تملك، إنما هي لا تتفق حقًا في شيء.

القضية 33

قد يختلف الناس بطبيعتهم من حيث خضوعهم لانفعالات (affectibus) من نوع الانفعالات السلبية (passiones)؛ وهكذا فإن نفس الإنسان يكون متغيراً متقلباً.

البوهان

لا يمكن تفسير طبيعة الانفعالات أو ماهيتها بطبيعتنا أو ماهيتنا وحدها (التعريفان 1 و 2، الجزء III)؛ بل يجب تعريفها بقوة الأسباب الخارجية، أعني (القضية 7، الجزء III) بطبيعتها بالمقارنة مع طبيعتنا وقوتنا، وعلى ذلك فإن تنوع كل انفعال من الانفعالات هو بقدر تنوع الأشياء التي تتأثر بها (القضية 56، الجزء III)، كما أن البشر يتأثرون بشيء واحد بطرق مختلفة (القضية 51، الجزء III)؛ ويقدر ما يحدث ذلك فهم يختلفون بطبيعتهم؛ وعليه (نفس القضية 51، الجزء III) فإن نفس الإنسان يتأثر بنفس الشيء بطرق مختلفة، مما يجعله متغيراً، إلخ.

القضية 34

يمكن للبشر، بوصفهم يخضعون لانفعالات من نوع الانفعالات السلبية، أن يناوئوا بعضهم بعضاً.

البوهان

يمكن لإنسان ما، مثلاً محب، أن يكون سبباً في حزن علي، لكونه يملك

شيئاً يشبه الشيء الذي يكرهه عليّ (القضية 16، الجزء III)، أو لكونه يملك بمفرده شيئاً يحبه عليّ أيضاً (القضية 32، الجزء III، مع حاشيتها)، أو لأسباب أخرى (راجع أهمها في حاشية القضية 55، الجزء III)؛ وهكذا (التعريف 7 للانفعالات) فإنّ علياً سيكره محمداً، فينتجّر عن ذلك بسهولة (القضية 40، الجزء III مع حاشيتها) أن يكره محمد بدوره علياً، وبالتالي فإنّهما سيسعيان إلى الإسائة أحدهما إلى الآخر، أي (القضية 30) إلى مناوأة أحدهما الآخر. ولأنّ كان انفعال الحزن دائماً انفعالا سلبيا (القضية 56، الجزء III)، فإنّه يمكن للبشر، بوصفهم يخضعون لانفعالات من نوع الانفعالات السلبية، أن يناوئوا بعضهم بعضاً.

حاشية

قلت إنّ علياً يكره محمداً لأنّه بتفكير أنّ هذا الأخير يملك الشيء الذي يحبه هو أيضاً. وقد يترتب على ذلك من وهلة أولى أنّ هذين الشخصين يسيئان أحدهما إلى الآخر لكونهما يحبّان نفس الشيء، وبالتالي لكونهما يتفقان بطبيعهما. قلو صبح ذلك، بطلت القضيتان 30 و 31، لكن إذا قلنا أن نرّين الأمر يقسطاس مستقيم لتبيّن أنّ كلّ ما قلناه منسجم تمام الانسجام. ذلك أنّ هذين الشخصين لا يسيئان أحدهما إلى الآخر من حيث اتّفاقهما بطبيعهما، أي من حيث أنّهما يحبّان نفس الشيء، وإنّما من حيث اختلاف أحدهما عن الآخر. فعلا، إنّ حبّهما لنفس الشيء من شأنه أن ينمّي حبّ كلّ منهما (القضية 31، الجزء III) أي (التعريف 6 للانفعالات) أن ينمّي فرح كلّ منهما. فمن المستبعد جداً إذن أن يكونا موضوع حزن أحدهما للآخر من حيث أنّهما يحبّان نفس الشيء ويتفقان بطبيعهما؛ بل سبب ذلك لا يعود أن يكون، كما قلت، إلّا ما افتراضناه من تباين بين طبيعتيهما، فلنفرض فعلا أن محمداً له فكرة شيء محبوب هو حالياً بحوزته، وأنّ علياً، على العكس، له فكرة شيء

محبوب هو حالياً بغير حوزته: فهذا سيشعر بالحنن، وذاك بالفرح، وهذه
انصورة فإنهما سيتعاديان. من السهل أن تبين على هذا الخوال أن الأسباب
الأخرى للكراهية تنتج فقط عن كون البشر يختلفون بطبعهم، لا عما يتفقون
فيه.

القضية 35

يتفق البشر بطبعهم دائماً وبالضرورة، شريطة أن يكون عيشهم
على مقتضى العقل (ex ductu Rationis).

البرهان

إن خضوع البشر لانفعالات من نوع الانفعالات السلبية قد يجعلهم
يختلفون بعضهم عن البعض بطبعهم (القضية 33) ويعانون بعضهم البعض
(القضية السابقة). بيد أننا نقول إنهم يفعلون إذا كانوا فقط يعيشون على
مقتضى العقل (القضية 3، الجزء III)؛ وبالتالي فإن كل ما ينجر عن الطبيعة
الإنسانية، باعتبار أن ما يعرفها هو العقل، ينبغي معرفته بالطبيعة الإنسانية
وحدها بوصفها علته المباشرة. لكن لما كان كل واحد يرغب، وفقاً لقوانين
طبيعته، فيما يستحسنه، ويجد في إقصاء ما يستقبحه (القضية 19)، فضلاً
عن كون ما يستحسنه أو يستقبحه بأمر من العقل إنما يكون بالضرورة حسناً
أو قبيحاً (القضية 41، الجزء II)، فإن الناس يفعلون بالضرورة، شريطة أن
يكون عيشهم على مقتضى العقل، ما يكون بالضرورة خيراً للطبيعة الإنسانية،
وبالتالي لكل إنسان. أي (لازمة القضية 31) ما يتفق مع طبيعة كل إنسان.
وعلى ذلك فإنهم يتفقون دائماً بالضرورة فيما بينهم باعتبارهم يعيشون على
مقتضى العقل.

لَا زِمَةُ 1

ليس من شخص في الطبيعة أنفع للإنسان من إنسان يعيش على مقتضى العقل. ذلك أن أكثر الأشخاص نفعاً للإنسان أكثرهم موافقة لطبيعته (لازمة القضية 31)، أي (كما هو معلوم بذاته) أن هذا الشخص هو الإنسان. ولكن الإنسان يتصرف إطلاقاً وفق قوانين طبيعته عندما يكون عيشه على مقتضى العقل (التعريف 2، الجزء III)، وبهذه الصورة فقط فهو يتفق دائماً بالضرورة مع طبيعة إنسان آخر (القضية السابقة)؛ فليس أنفع إذن للإنسان، من بين الأشياء القريبة، من إنسانٍ إلخ.

لَا زِمَةُ 2

عندما يبحث كل واحد قبل كل شيء عما ينفعه هو بالذات، عندئذ يكون الناس أكثر نفعاً بعضهم إلى بعض. ذلك أنه يقدر ما يبحث كل واحد عما ينفعه ويقدر ما يجد في حفظ ذاته، فهو يكون فاضلاً (القضية 20)، أو، الأمران سيان (التعريف 8)، تكون قدرته على الفعل وفقاً لقوانين طبيعته، أعني (القضية 3، الجزء III) على العيش على مقتضى العقل، قدرة أعظم. ولكن الناس يتفوقون بطبعهم بصورة أفضل عندما يعيشون على مقتضى العقل (القضية السابقة)؛ وعليه (اللزامة السابقة) فعندما يبحث كل واحد قبل كل شيء عما ينفعه هو بالذات، عندئذ يكون الناس أكثر نفعاً بعضهم إلى بعض.

حاشية

ما بيناه الآن تلبته التجربة نفسها كل يوم من خلال شهادات واضحة

الدرجة أن جُلَّ الناس يرتّبون: إنَّ الإنسان إله للإنسان. إلّا أنّه من النادر أن يعيش الناس على مقتضى العقل، بل إنَّ أغلبهم على استعداد أكثر للحسد وللإساءة بعضهم إلى بعض، ومع ذلك فقلّما يستطيعون العيش في العزلة، بحيث يلقى تعريف الإنسان بأنّه حيوان اجتماعي موافقة الجميع. وبالفعل، إنَّ الأمور هي على نحوٍ يجعل منافع الحياة الاجتماعية تفوق مضارّها إلى حدٍّ بعيد. فليضحك إذن الهجّارون ملء أشداقهم على أحوال البشر، وليلعنها اللاهوتيون، وليمدح السوداويون قدر استطاعتهم حياة البدأة الجلفة واحتقروا البشر ويعجبوا بالبهايم، فسوف يجد الناس، بعد هذا كلّ، أنّ في وسعهم أن يفوا بحاجاتهم على نحوٍ أيسر كثيراً بالتعاون المتبادل، وأنَّ الوسيلة الوحيدة لتجّاتهم من الأخطار المحدقة بهم من كلّ جانب هي توحيد قواهم. هذا فضلاً عن كون أعمال الإنسان أفضل بكثير وأجدر بمعرفة من أعمال الحيوان، لكن سنعالج هذه القضية بأكثر إسهاب في مجال آخر.

القضية 36

الخير الأسمى عند الذين يتّبعون القضية مشترك بين الجميع، ويمكن أن يتمنّع به الجميع على قدم المساواة.

البشر

التصرف وفقاً للقضية هو التصرف على مقتضى العقل (القضية 24)، وكلّ ما نجدّه فيه بالعقل إنّما هو الذم (القضية 26)؛ وهكذا (القضية 28) فإنّ الخير الأسمى عند الذين يتّبعون القضية هو معرفة الله، أي (القضية 47، الجزء II، مع حاشيتها) أنّه خير مشترك بين جميع الناس ويمكن لهم الفوز به جميعاً على قدم المساواة باعتبار أنّ لهم طبيعة واحدة.

حاشية

وإذا قيل: لو لم يكن الخير الأسمى عند الذين يتبعون الفضيلة مشتركا بين الجميع، ألن يترتب على ذلك، مثلما أعلاه (القضية 34)، أن الناس الذين يعيشون على مقتضى العقل، أي الناس بوصفهم يتفقون بطبعهم (القضية 35)، يعانون بعضهم بعضا؟ كان جوابي: لئن كان الخير الأسمى للإنسان مشتركا بين الجميع، فليس ذلك بطريقة عرضية وإنما بناء على طبيعة العقل ذاتها، لا سيما أن ذلك يستمد من ماهية الإنسان ذاتها التي تحدد بالعقل، وأن الإنسان لا يمكنه أن يوجد ولا أن يتصور لو لم يكن قادرا على التمتع بالخير الأسمى. ذلك أنه من طبيعة ماهية النفس البشرية (القضية 47، الجزء II) أن يكون لديها معرفة تامة بماهية الله الأزلية اللامتناهية.

القضية 37

الخير الذي يرقبه لنفسه كل من اتبع الفضيلة، إنما هو يرقبه أيضا لغيره، وتقوى رغبته هذه بقدر ما تزداد معرفته بالله.

المسودتان

ليس أنفع للإنسان من الناس الذين يعيشون على مقتضى العقل (اللزامة 1 للقضية 35)؛ وبالتالي (القضية 19) فإننا سنجد، بهدئي من العقل، في جعل الناس يعيشون على مقتضاه، ولكون الخير الذي يرقبه لنفسه كل من كان عيشه على مقتضى العقل، أعني (القضية 24) كل من اتبع الفضيلة، إنما هو الفهم (القضية 26)؛ وعلى ذلك فإن الخير الذي يرقبه لنفسه كل من اتبع الفضيلة إنما هو يرقبه أيضا لغيره: ثم إن الرغبة، من حيث أنها تتعلق بالنفس، هي

عن ماهية النفس (التعريف 1 للإنفعالات)؛ ولكن ماهية النفس تتمثل في المعرفة (القضية 11، الجزء II) المتضمنة لمعرفة الله (القضية 47، الجزء II) ولا يمكنها بدونها (القضية 15، الجزء I) أن توجد ولا أن تُصور. وبالتالي فبقدر ما تكون معرفة الله التي تتضمنها ماهية النفس معرفة أعظم، تكون رغبة الخير الغير - عند من يتبع الفضيلة ويرغب في الخير لنفسه - رغبة أعظم.

بوسهسان أخسر

الخير الذي يرغبه الإنسان لنفسه ويشتاق إليه إنما هو سيشتاق إليه بأكثر ثبات إن رأى غيره يشتاق إليه (القضية 31، الجزء III)؛ وبالتالي (لازمة نفس القضية) فهو سيسعى إلى جعل غيره يشتاق إليه؛ ولما كان هذا الخير (القضية السابقة) مشتركا بين الجميع، كما أنه يوسع الجميع التمتع به على قدم المساواة، فهو سيسعى إذن (لنفس السبب) إلى جعل الجميع يتمتعون به، وذلك (القضية 37، الجزء III) بقدر ما يكون تمتعه بهذا الخير تمتعا أكثر.

هشاية 1

من يسعى، بدافع الانفعال فحسب، إلى جعل الآخرين يحبون ما يحب ويعيشون وفق طبعه الخاص، إنما تصرفه لا يعنو إلا أن يكون بدافع غزوة من النزوات، ولذلك فهو يكون بشعا، خاصة في نظر أولئك الذين لهم ميول أخرى ويجنون بدورهم، بدافع النزوة أيضا، في جعل غيرهم يعيشون وفق طبعهم الخاص. وعلاوة على ذلك، لما كان أسمى شيء يتوق إليه الناس بدافع الانفعال لا تسمح طبيعته في الغالب بأن يكون بحوزة أكثر من شخص واحد، فإنه يحدث للمحبين ألا ينسجموا مع أنفسهم انسجاما باطنيا، فتجدهم يفتبطون بإجزال المديح على الشيء المحبوب ويخشون في نفس الوقت أن تصدق

أقوالهم. أمّا من يسعى، على عكس ذلك، إلى قيادة غيره على مقتضى العقل، فهو لا يتصرّف بدافع النزوة، وإنّما بإنسانية وألطف، وهو يبقى في داخله في انسجام تامّ مع نفسه.

ثمّ إنّي أردّ إلى الدّين (religionem) كلّ الرغبات وكلّ الأفعال التي نكون علّة لها من حيث أنّ لدينا فكرة الإله أو من حيث أنّنا نعرف الله. وأطلق لفظ الأخلاقية (pietatem) على الرغبة في فعل الخير المتأصّلة في عيشنا على مقتضى العقل. أمّا الرغبة التي تدفع الإنسان الذي يعيش على مقتضى العقل إلى اكتساب صداقة غيره، فأسمّيها الشّرف (honestatem)؛ وأسمّي شرفها (honestum) ما يستحسنه النّاس الذين يعيشون على مقتضى العقل. ومُخزياً (turpe)، على العكس، ما يحول دون الصداقة. وبهذا أكون قد بيّنت أيضاً أسس المجتمع المدني (civitatis). ويمكن أن ندرك بسهولة التّباين الموجود بين الفضيلة الحقيقية والعجز، إذ لا تتمثّل الفضيلة الحقيقية إلّا في العيش على مقتضى العقل، ولا يتمثّل العجز إلّا في كون الإنسان ينقاد طوعاً وراء الأشياء الخارجيّة التي ترغمه على فعل ما تقتضيه بنية العالم الخارجيّ، لا ما تقتضيه طبيعته الخاصّة منظوراً إليها في حدّ ذاتها. هذا ما وعدت في حاشية القضية 18 بإثباته. ويتّضح من هنا أنّ ذلك القانون الذي يحرم التّضحية بالحيوانات يقوم على معتد باطل وعلى شفقة إنثويّة. لا على العقل السليم؛ ذلك أنّ قاعدة البحث عمّا يقعنا تعلّماً حقّاً أنّه من الضروريّ أن نتحدّ بغيرنا من الادميين، لا بالحيوانات أو الأشياء التي تختلف طبيعتها عن الطبيعة الادميّة، إذ لدينا عليها نفس الحقّ (jus) الذي لديها علينا؛ بل إنّنا كلّ كلّ فرد إنّما تحدّد فضيلته أو قوّته. فإنّ حقّ الادميين على البهائم يفوق حقّ البهائم على الادميين. بيد أنّني لا أنكر أنّ البهائم تشعر، لكن ما أنكره هو أن يصبح ذلك حائلاً دون التّفكير في مصلحتنا الخاصّة وبأنّ استخدام هذه البهائم ومعاملتها حسب مرامنا، لأنّ طبيعتها لا تتفق مع طبيعتنا ولأنّ طبيعة انفعالاتها تختلف عن طبيعة الانفعالات البشريّة (حاشية القضية 57، الجزء

II). بقي لي أن أفسر معنى العدل والظلم والخطيئة، وأخيرا معنى الاستحقاق. انظر في هذا الشأن الماشية الحوالية.

حاشية 2

لقد تعهدت في تبجيل الجزء الأول بتفسير معنى الثناء والتوبيخ، والاستحقاق والخطيئة، والعدل والظلم. ولقد تحدثت عن الثناء والتوبيخ في حاشية القضية 29 من الجزء III؛ أما المعاني المتبقية فيها فقد حان الأوان للحديث عنها. لكن لا بد قبل ذلك من قول بعض الشيء عن حال الطبيعة وحال التمدن لدى الإنسان.

يوجد كل شخص بحسب حق الطبيعة السني، وبالتالي يفعل كل شخص وفق حق الطبيعة السني ما ينجر عن ضرورة طبيعته الخاصة؛ وبهذه الصورة فإن كل شخص يحكم وفق حق الطبيعة السني، ما الحسن وما القبيح، وينظر إلى مصلحته الشخصية وفق مزاجه الخاص (القضيتان 19 و 20)، وينتقم لنفسه (اللزمة 2 للقضية 40، الجزء III) ويجد في حفظ ما يحب والقضاء على ما يكره (القضية 28، الجزء III). فلو كان الناس يعيشون على مقتضى العقل لكان كل شخص يملك الحق الذي من نصيبه (اللزمة 1 للقضية 35) دون أن يلحق أي ضرر بالغير؛ إلا أن خضوعهم لانفعالات (اللزمة 4) تتجاوز إلى حد بعيد القوة أو الفضيلة الإنسانية (القضية 6) هو ما يجعلهم ينساقون في اتجاهات مختلفة (القضية 33) ويعاون بعضهم بعضا (القضية 34) في حين أنهم في حاجة إلى التعاون (حاشية القضية 35). وعلى ذلك فلكي يتسنى للناس العيش في الوئام ومد يد المساعدة بعضهم إلى بعض فإنه لا مندوحة لهم عن التنازل عن حقهم الطبيعي والتعهد يالاً يقتربوا اليته ما من شأنه أن يلحق بأحدهم الضرر. لكن أنى للناس أن يطمئنوا بعضهم إلى بعض وأن يثقوا بعضهم ببعض إن كانوا يخضعون

للانفعالات بالضرورة (لازمة القضية 4) وإن كانوا متقلبين متبدلين (القضية 33)؛ ذاك ما متبينه من خلال القضية 7 من هذا الجزء والقضية 39 من الجزء الثالث، حيث أقول: لا يمكن لأي انفعال أن يعاق إلا بانفعال أقوى منه مناقض له؛ ويعدل كل شخص عن الإساءة إلى غيره خوفاً من سوء أعظم. وعلى أساس هذا القانون يمكن قيام المجتمع، طالما احتفظ هذا المجتمع لنفسه بالحق الذي يملكه كل شخص في الانتقام لنفسه، والحكم بنفسه على ما هو خير وما هو شر، وطالما أن المجتمع القوية على وضع قاعدة عامة للسكوك، وإصدار قوانين يدعمها التعيد، لا العقل الذي يعجز عن قهر الانفعالات (حاشية القضية 17)، فمثل هذا المجتمع الذي يبنى على القوانين وعلى قوة قادرة على حفظه يسمى الدولة (Civitas)، ويسمى الأشخاص الذين يعيشون في حمايته المواطنين (Cives). ومن هذا المنطلق نفهم بسهولة أنه لا يوجد في حال الطبيعة إجماع على ما هو حسن وما هو قبيح، إذ يعني كل شخص في هذه الحال بمنفعته الخاصة لا غير، ويقرر، وفق طبيعته الخاص، ما هو الحسن وما هو القبيح، معياره الوحيد في ذلك مصلحته الشخصية، فضلاً عن كونه غير ملزم بأي قانون لإطاعة شخص آخر غير شخصه.

ومكذا فإنه لا يجوز تصوّر الخطيئة في حال الطبيعة، وإنما يكون تصوّرها في حال التمدن حيث وقع الإقرار برضاء الجميع أي الأشياء حسنة وأياها قبيحة، وحيث أصبح لزاماً على كل شخص أن يطيع الدولة، فالخطيئة لا تعبر أن تكون إذن غير العصيان الذي يكون عقابه، من أجل ذلك، باسم حق الدولة لا غير، بينما تعدّ الطاعة عنوان استحقاق يؤهل المواطن للتمتع بمزايا الدولة، وعلاوة على ذلك لا وجود في حال الطبيعة لاتفاق جماعي على سيادة شخص ما على شيء ما، ولا وجود أيضاً في الطبيعة لما يمكن أن يقال إنه ملك لأحد دون غيره، بل كل شيء ملك للجميع؛ وعليه فإنه لا يمكن، في هذه الحال، تصوّر إرادة ترمي إلى إعطاء كل ذي حق حقه أو إلى ابتزاز متاع الغير؛

بمعنى أنه لا يوجد في حال الطبيعة ما يمكن أن يقال ما لا أو ظالم ، بينما نجد ذلك في حال التمدن حيث يوجد اتفاق جماعي على الأشياء التي يملكها هذا أو ذاك.

فمن الواضح إذن أن العدل والظلم، والخطيئة والاستحقاق، معان خارجية، لا صفات مميّنة لطبيعة النفس، لكن حَسَبًا كلاما في هذا الموضوع.

القضية 38

إنّ ما يُهيء الجسم البشري بشكل يجعله قابرا على التأثير بعدد أكبر من الأوجه، أو على التأثير في الأجسام الخارجية بعدد أكبر من الأوجه إنّما هو نافع للإنسان؛ ويكون نفعه أعظم بقدر ما يصبح الجسم أقدر بذلك على التأثير وعلى التأثير في أجسام أخرى بطرق كثيرة؛ وعلى العكس، إنّ ما يضعف من هذه القدرة مضرّ بالإنسان.

البرهان

كلّما كان الجسم قابلية من هذا النوع، كانت النفس أقدر على الإدراك (القضية 14، الجزء II)؛ وهكذا فإن ما يُهيء الجسم على هذا النحو ويزيد في قابليته تلك هو بالضرورة حسن، أمّني نافع (القضيتان 26 و 27)، ويزداد نفعه كلّما زاد أكثر في تلك القابلية؛ أمّا الشيء الذي يضعف من قابلية الجسم هذه فهو، على العكس من ذلك، شيء ضارّ (بناء على نفس القضية 14، الجزء II، معكوسة، وعلى القضيتين 26 و 27).

القضية 39

كل ما يحافظ على نسبة الحركة والسكون التي تربط بين أجزاء الجسم البشري إنما هو حسن؛ وكل ما يغير من نسبة الحركة والسكون بين أجزاء الجسم البشري إنما هو سيء.

البرهان

الجسم البشري في حاجة، لحفظ كيانه، إلى عدد كبير جداً من الأجسام الأخرى (المصادرة 4، الجزء II). لكن ما يؤلف صورة الجسم البشري هو أن أجزائه تنقل حركاتها بعضها إلى بعض وفق نسبة معينة (التعريف الذي يسبق المأخوذة 4 التابعة للقضية 13، الجزء II). وعلى ذلك فإن ما يحافظ على نسبة الحركة والسكون الموجودة بين أجزاء الجسم البشري يحافظ أيضاً على صورة الجسم البشري ويجعله بالتالي (المصادرتان 3 و 6، الجزء II) يتأثر بطرق كثيرة ويؤثر في الأجسام الخارجية بطرق كثيرة؛ وإذ ذلك فهو حسن (القضية السابقة).

ثم إن ما يقيم بين أجزاء الجسم البشري نسبة جديدة من الحركة والسكون يعوّض أيضاً (نفس التعريف بالجزء II) صورة الجسم بصورة جديدة، أي (كما هو معلوم بذاته وكما أشرنا إلى ذلك في خاتمة تهديد هذا الجزء) أنه يجعل الجسم يتقوّض ويفقد، تبعاً لذلك، كل قابلية للتأثر بطرق عديدة؛ وإذ ذلك (القضية السابقة) فهو سيء.

ملاحظة

فيم قد يؤدي ذلك النفس وفيم ينفعها: ذاك ما سنبينه في الجزء الخامس.

لكن تجدر الإشارة هنا إلى أن ما أعنيه بموت الجسم هو ما يحصل عندما تصبح أجزاؤه على هيئة تسمح بحصول نسبة أخرى من الحركة والسكون فيما بينها، ذلك أنني لا أجري على إنكار أن الجسم البشري يستطيع استبدال طبيعته بطبيعة أخرى مخالفة لها تماما، مع أن التّم لا يكفّ عن القردان ومع أن علامات الحياة فيه لا تزول، إذ لا شيء يلزمني بالتسليم بأن الجسم لا يموت إلا إذا تحول إلى جثة، بل التجوية نفسها قد تقيد عكس ذلك، فعلا، قد تطرأ على المرء تغيرات كثيرة لدرجة أنه يغدو من الصعب الإدلاء بأنه هو. ولقد روي لي أن أحد الشعراء الإسبانيين قد أصيب بمرض، ومع أنه قد شفي منه فهو لم يستعد نكرياته الماضية لدرجة أنه لم يكن يصدق بأن ما ألفه في مسرح لللهة والمأساة هو من تأليفه الشخصي. فلو كان هذا الشاعر قد نسي لفته الأم، لنظر إليه على أنه كهل صبي. وإذا بدا ذلك غير معقول، فما قواكم في الأطفال؟ فالكهل يظن أن طبيعتهم مغايرة تماما لطبيعته، لدرجة أنه يكاد لا يصدق، لو لم يكن يقيس نفسه على الآخرين، أنه كان يوما ما طفلا. لكن لتجاوز هذا الموضوع، حتى لا نفتح للمتطيرين مجالا جديدا للتساؤل.

القضية 40

كلّ ما ساعد الناس على الحياة الاجتماعية، أي على العيش في وئام، كان نافعا، وكلّ ما أدّى إلى الشقاق داخل النواة، كان سيئا.

البرهان

إنّ ما يجعل الناس يعيشون في وئام هو ما يجعلهم في نفس الوقت

يهتدون بالعقل (القضية 35)؛ وبالتالي (القضيتان 26 و 27) فهو خير؛ أمّا ما يثير الشقاق فهو (لنفس السبب) سيء.

القضية 41

ليس الفرح (*Laetitia*) شراً أبداً بصورة مباشرة، بل هو خير؛ أمّا الحزن، فهو شرّاً بصورة مباشرة.

البرهان

الفرح (القضية 11، الجزء III، مع حاشيتها) انفعال تزداد به قدرة الجسم على الفعل أو تُساعد؛ أمّا الحزن فهو انفعال تضعف به قدرة الجسم على الفعل أو تُعاق؛ وبناءً على ذلك (القضية 38) فإنّ الفرح خير بصورة مباشرة، إلخ.

القضية 42

لا يمكن للبهجة (*Hilaritas*) أن تكون مفرطة، بل هي حسنة على النّوام؛ أمّا الكآبة، فهي دائماً سيئة.

البرهان

البهجة (انظر تعريفها في حاشية القضية 11، الجزء II) هي الفرح المتمثل من حيث علاقته بالجسم، في تكثر جميع أجزاء هذا الجسم سوياً؛ أي (القضية

11، الجزء III) أن قدرة الجسم على الفعل تزداد أو تساعد بحيث تحافظ جميع أجزائه فيما بينها على نفس النسبة من الحركة والسكون؛ وهكذا (القضية 39) فإن البهجة تكون حسنة دائماً ولا يمكنها أن تكون مفرطة. أما الكتابة (انظر كذلك تعريفها في نفس حاشية القضية 11، الجزء III)، فهي الحزن المتمثل، من حيث علاقته بالجسم، في أن قدرة هذا الجسم على الفعل تكون متناقصة أو معاقة إطلاقاً؛ وهي لذلك (القضية 38) دائماً سيئة.

القضية 43

قد تكون الدغدغة (Titillatio) مفرطة وسيئة؛ وقد يكون الألم خيراً بقدر ما تكون الدغدغة - وهي فرح - سيئة.

البرهسان

الدغدغة فرح يتمثل، من حيث علاقته بالجسم، في أن أحد أجزاء هذا الجسم أو بعض أجزائه تكون متأثرة أكثر من غيرها (انظر تعريفها في حاشية القضية 11، الجزء III)؛ وتبلغ قوة هذا الإنفعال حداً يجعله يتفوق على أفعال الجسم الأخرى (القضية 6) ويتشبّه بالجسم فيمنعه من أن يصبح قابلاً على التأثير بعدد كبير جداً من الأوجه الأخرى؛ وعلى ذلك (القضية 38) فإنه يمكن لهذا الإنفعال أن يكون سيئاً.

أما الألم، وهو على العكس من ذلك، حزن، فهو لا يمكنه أن يكون في ذاته خيراً (القضية 41). لكن لما كانت قوته ونموه يتحدّان بقوة علّة خارجية في مقابل قوتنا الشخصية (القضية 5) فإنه يمكن أن نتصور أن قوى هذا الإنفعال هي بدرجات متنوعة بصورة لا محدودة وأنها تُبذل بطرق لا متناهية (القضية

(3)، بحيث يتسنى لنا أن نتصوره على نحو يجعله يُضعف من الدغدغة ويمنعها من الإفراط، وبالتالي (حسب الجزء الأول من هذه القضية) من التقليل من قدرة الجسم؛ ومن هذا المنظور يكون الأثم خيراً.

القضية 44

يمكن للحب والرغبة أن يكونا مفرطين.

البرهان

إن ما نسميه حباً هو الفرح (التعريف 6 للانفعالات) المصحوب بفكرة علة خارجية؛ إذن الدغدغة (حاشية القضية 11، الجزء III) التي تصحبها فكرة علة خارجية هي الحب؛ وهكذا فإنه يمكن للحب أن يكون مفرطاً (القضية السابقة). وعلاوة على ذلك فإن الرغبة تكون أعظم بقدر ما يكون الانفعال الذي تتولد عنه أعظم (القضية 37، الجزء III). وعليه فكما أنه يمكن لانفعال ما أن يتفوق على أفعال الإنسان الأخرى (القضية 6) فكذلك يمكن للرغبة المتولدة عن هذا الانفعال أن تتفوق على الرغبات الأخرى. كما يمكنها، تبعاً لذلك، أن تقع في نفس الإفراط الذي يحصل للدغدغة. كما بينا في القضية السابقة.

حاشية

تُصور البهجة، التي قلت إنها خير، بأكثر سهولة مما تلاحظ. ذلك أن الانفعالات التي نخضع لها كل يوم تتعلق في أغلب الأحيان ببعض الأجزاء من

جسمنا المتأثرة أكثر من غيرها؛ وبناء على ذلك فإن الانفعالات في معظمها مفرطة وتستقطب النفس بحيث لا ينصب اهتمامها إلا على شيء واحد، مهمل التفكير في أشياء أخرى. ورغم أن الناس يخضعون لانفعالات كثيرة ويندر أن تجد من يقهره انفعال واحد على القوام، إلا أن الكثير منهم قد يستولي عليهم انفعال واحد بدون هوادة. ونحن نرى بالفعل أشخاصا يؤكّر فيهم أحيانا شيء واحد لدرجة أنهم يتوهمونه أمامهم بالرغم من غيابه؛ وعندما يحدث ذلك لإنسان في غير حالة النوم فإننا نقول إنه يهذي أو إنه أخبيل. ولا يقل عنه خبلا، في اعتقادنا، أولئك الذين يلتهبون حبا ولا ينفكون يحلمون ليلا نهارا بحبيبتهم أو بعومس، لأنهم يبعثون عادة على السخرية. أما البخيل الذي لا يفكر في سوى المال والكسب، والطموح الذي لا يشغله سوى المجد، وهلم جرا، فهم لا ينظر إليهم على أنهم يهزون، لأنهم يتسببون عادة في الحزن لغيرهم ويستحقون الكراهية. بيد أن البخيل والطموح والشبقية إنما هي في الواقع ضروب من الهذيان، رغم أنها لا تعتبر في عداد الأمراض.

القضية 45

لا يمكن للكراهية أن تكون خيرا أبدا.

البرهان

إننا نسمى إلى القضاء على الإنسان الذي نكرهه (القضية 39، الجزء III)، أي أننا نجد في أمر سيء (القضية 37). إذن، إلخ.

حاشية

أشير إلى أن ما أعنيه بالكراهية، في هذه القضية وفي القضايا اللاحقة، هي فقط الكراهية نحو البشر.

لازمة 1

الحسد والسخرية والاحتقار والانتقام والانفعالات الأخرى التي تتأصل في الكراهية أو تتولد منها هي سماتٌ وهذا يبيهي أيضا من خلال القضية 39 من الجزء III، ومن خلال القضية 37 من هذا الجزء.

لازمة 2

كل ما نقشوق إليه (Appetimus) بسبب شعورنا بالكراهية إنما هو مُخَرٌّ، ويعتبر ظلما داخل النولة، ويتجلى ذلك أيضا من خلال القضية 39 من الجزء III، أو من خلال تعريف الخزي والظلم في حاشية القضية 37 من هذا الجزء.

حاشية

إنني أضع فصلا واضحا بين السخرية (Irisionem) (التي قلت في اللازمة 1 إنها قبيحة) والضحك (risum). ذلك أن الضحك، والمزاح (jocus) أيضا، فرحٌ خالصٌ، وهو بالتالي في حد ذاته شيء حسن، شريطة أن نتجنب الإفراط فيه

(القضية 41)، ولا ريب أنَّ تحريم الملذَّات يقوم على معتقد باطل، فبظَّ وحقيق، إذ ما الفرق بين إسكات الجوع والعطش، والتخلُّص من الكآبة؟ تلك هي قاعدتي وذاك هو اعتقادي الراسخ. فلا إله يشمت بي، ولا يفرح بما يصيبني من عجز وفمَّ غير الحسود الذي يرى الفضيلة في دموعنا ونحيبنا وخشيتنا وعلامات أخرى على عجزنا الداخلي؛ بل، على العكس من ذلك، بقدر ما يكون فرحنا أعظم، يكون الكمال الذي ننتقل إليه كما لا أعظم، وتكون مشاركتنا في الطبيعة الإلهية أكثر لزوماً. فعلى الإنسان الحكيم إذن أن يستعمل الأشياء وأن يتمتَّع بها قدر الإمكان (بأن يصل إلى التقرُّن، إذ ليس ذلك تمتعاً)، وعليه أن يستخدم لإصلاح ذاته واستعادة قواه أغذية ومشروبات لذيذة متناولة بمقايير معتدلة، كما عليه أيضاً أن يستعمل العطور وأن يستمتع بالنباتات المخضوضمة وبالحكي والموسيقى والألعاب الممرَّنة للجسم والعروض المسرحية وأشياء أخرى من نفس القبيل، التي بوسع كلِّ شخص أن يستغلها بأن يلحق أيَّ ضرر بالآخرين. فالجسم البشري يتألف من عدد كبير جدًّا من الأجزاء المتباينة المحتاجة باستمرار إلى أغذية جديدة ومتنوعة حتَّى يكون الجسم بأكمله قادراً بالتساوي على كلِّ ما عسى أن ينتج عن طبيعته، وحتَّى تكون النفس قادرة بالتساوي على فهم العديد من الأشياء معاً. وعلى ذلك فإنَّ طريقة تنظيم الحياة هذه تتفق جدًّا مع مبادئنا ومع الحياة المألوفة، وليس أفضل من قاعدة العيش هذه ولا أجدر منها وصاية على الإطلاق؛ وأسنا بحاجة هنا إلى معالجة هذه النقطة بأكثر وضوح ولا بأكثر إسهاباً.

السُّقْضِيَّة 46

يسعى الذي يعيش مهتدياً بالعقل، قدر الإمكان، إلى موازنة ما يَكُنَّ له غيره من كراهية وغضب واحتقار، إلخ، بالحبِّ أو المروعة.

البرهان

إن مشاعر الكراهية كلها سيئة (اللزامة 1 للقضية السابقة)؛ وبالتالي فإن من يعيش مهتدياً بالعقل سيسعى قدر الإمكان إلى تجنب الوقوع تحت نير انفعالات الكره (القضية 19)؛ فهو سيسهر إذن (القضية 37) على تخليص غيره أيضاً من مثل هذه الانفعالات. ولما كانت الكراهية تشتد إذا ما قوبلت بالكراهية، في حين أنها تزول إذا ما قوبلت بالحب (القضية 43، الجزء III)، فتتحول بنورها إلى حب (القضية 44، الجزء III)، فإن الذي يعيش مهتدياً بالعقل سيسعى إلى موازنة الكراهية وما إليها بالحب، أي بالمرودة (انظر تعريفها في حاشية القضية 59، الجزء III).

حاشية

الذي يريد الانتقام ممن أهانه بأن يباده الكره إنما هو يعيش، بكل تأكيد، عيشاً شقياً. أما الذي يسعى، على العكس من ذلك، إلى قهر الكراهية بالحب، فلا شك أن كفاحه يتم في كنف البهجة والاطمئنان، وأنه يسهل عليه مقاومة شخص واحد أو أشخاص كثيرين على حد سواء، وأنه في حاجة أقل من غيره إلى إقبال الدهر عليه. ويستسلم له أولئك الذين يهزمهم عن طيب خاطر، لأن انتهازهم لا يعقل بالافتقار إلى القوة بقدر ما يعقل بتموها؛ ويستخلص كل هذا بكامل الوضوح عن تعريف الحب والذهن فحسب، ولا حاجة إلى البرهنة على ذلك بوجه خاص.

القضية 47

لا يمكن لانفعالي الأمل والخشية أن يكونا خيراً بذاتهما.

السبب

لا توجد مشاعر أمل وخشية دون حزن. ذلك أن الخشية حزنٌ (التعريف 13 للإنفعالات)، ولا يوجد أمل دون خشية (شرح التعريفين 12 و 13 للإنفعالات)؛ وعلى ذلك (القضية 41) فلا يمكن لهذين الانفعاليين أن يكونا خيرا بذاتهما، وإنما هما كذلك فقط من حيث أنهما يستطيعان الحد من الإفراط في الفرح (القضية 43).

ملاحظة

وعلاوة على ذلك فإن هذين الانفعاليين يدلان على نقص في المعرفة و عجز في النفس؛ ولهذا السبب أيضا يكون الأمن واليأس والانشراح والحسرة علامات على العجز الداخلي. وعلى الرغم من أن الأمن والانشراح شعوران بالفرح، فإنهما يفترضان مع ذلك أن الحزن قد سبقهما، أي الحزن المتمثل في الخشية والأمل، وبالتالي فبقدر ما ندأب على العيش مهتين بالعقل، فإننا نجد في التقليل من تبعيتنا للأمل و الانعتاق من الخشية والتحكم قدر الإمكان في مصيرنا وتوجيه أعمالنا بإرشاد من العقل.

القضية 48

إن انفعالي إفراط التقدير والاستخفاف قبيحان دائما.

السبب

فعلا، إن هذين الانفعاليين (التعريفان 21 و 22 للإنفعالات) مناقضان للعقل، وبالتالي فهما قبيحان (القضيتان 26 و 27).

القضية 49

سرعان ما يجعل إفراط التقدير من الإنسان الذي يُقَرِّطُ تقديره
إنساناً مزهواً.

البسرهان

إذا تبيّن لنا أنّ شخصاً يقدّرنا، بدافع الحب، أكثر ممّا نستحقّ، فإنّنا
سرعان ما نعتزّ بذلك (حاشية القضية 41، الجزء III)، أعني أنّنا سنشعر
بالفرح (التعريف 30 للأنفعالات)، وسنصدّق بسهولة ما يصلنا من إطراءٍ لنا
(القضية 25، الجزء III)؛ وتبعاً لذلك فإنّنا سنقدّر أنفسنا أكثر ممّا نستحقّ،
نظراً إلى حبّنا لأنفسنا، أي (التعريف 28 للأنفعالات) أنّنا سنقع بسهولة في
الزهر.

القضية 50

تكون الشفقة لدى الإنسان الذي يعيش مهتدياً بالعقل سيّئة في
ذاتها ولا طائل من ورائها.

البسرهان

فعلاً، إنّ الشفقة (التعريف 18 للأنفعالات) حزنٌ، وبالتالي فهي سيّئة
بذاتها، أمّا ما ينجّر عنها من خير متمثل في السعي إلى تخليص الشخص

الذي نشفق عليه من يؤسه (اللائمة 3 للقضية 27، الجزء III) فنحن نقوم بذلك بأمر من العقل وحده (القضية 37)؛ والعقل وحده هو الذي يأمرنا بالقيام بما نعلم يقينا أنه خير (القضية 27)؛ وبالتالي فالشفقة سيئة في ذاتها وغير نافعة للإنسان الذي يعيش مهتليا بالعقل.

اللائمة

يترتب على ذلك أن الإنسان الذي يعيش وفق ما يوصي به العقل يحاول قدر الإمكان ألا يشعر بالشفقة.

ملاحظات

إن من يدرك بحق أن جميع الأشياء تلزم عن ضرورة الطبيعة الإلهية وتحدث وفقا لقوانين الطبيعة وقواعدها الأزلية، لن يجد شيئا يستحق الكراهية أو السخرية أو الاحتقار ولن يرثى لأي شخص، بل سيجادل على قدر ما تسمح به فضيلة البشر، أن يسلوك سلوكا طيبا وأن يظل مبتهجا، كما يقول المثل. وعلاوة على هذا فإن الذي سرعان ما يشعر بالشفقة وسرعان ما يتأثر بشقاء الآخرين ودموعهم غالبا ما يقوم بأعمال يتدم عليها فيما بعد؛ ذلك أننا، من جهة، لا نقوم عندما نكون تحت تأثير العاطفة بأي شيء نعلم يقينا أنه خير، كما أننا، من جهة أخرى، سرعان ما تخدعنا الدموع الكاذبة. وأني أتحدث هنا قصدا عن الإنسان الذي يعيش مهتليا بالعقل؛ ذلك أن الذي لا يدغمه العقل ولا الشفقة إلى إسعاف غيره إنما يستحق أن يُنعت بأنه وحش، لأنه (القضية 27، الجزء III) لا يبدو شبيها بالإنسان.

القضية 51

ليس الإحطاء مناقضا للعقل، بل يمكنه أن يوافقته وأن يقول عنه.

البرهان

فعلا، الإحطاء هو أن نصب شخصا أحسن إلى غيره (التعريف 19 للانفعالات)، وبالتالي فإنه يمكن أن يُنسب إلى النفس من حيث هي قاعة (القضية 59، الجزء III)، أي من حيث أنها تفهم، وبالتالي فهو موافق للعقل، إلخ.

برهان آخر

إن الذي يعيش مهتيا بالعقل يرضى لغيره ما يرغب لنفسه (القضية 37)؛ وإذا كان فعندما يرى شخصا يحسن إلى غيره فإن دأبه الشخصي على فعل الخير سيزداد، أي (حاشية القضية 11، الجزء III) أنه سيفرح، وسيكون فرحه (حسب الفرضية) مصحوبا بفكرة الشخص الذي أحسن إلى غيره؛ وبالتالي فهو سيحظيه (التعريف 19 للانفعالات).

حاشية

إن السخط، كما سبق أن عرفنا (التعريف 20 للانفعالات)، سيء بالضرورة (القضية 45). لكن تجدر الإشارة إلى كوني لا أعتبر السلطة العليا ساخطة على المواطن الذي ظلم غيره عندما تعاقبه من أجل المحافظة على السلم في

الغلبة، ذلك أنها لا تسعى بدافع الكراهية إلى القضاء على هذا المواطن بقدر ما أنها تجازيه باسم الأخلاقية.

القضية 52

يمكن للرّضى بالذات أن يتوَلَّد من العقل، وليس أعظم من هذا الرّضى المتوَلَّد من العقل.

البرهان

الرّضى بالذات هو الفرح النّاجم عن اعتبار الإنسان لقدرته الشخصية على الفعل (تعريف الإنفعالات، 25). لكن قدرة الإنسان الحقيقية على الفعل، أو فضيلته، هي العقل ذاته (القضية 3، الجزء III) الذي يعتبره الإنسان بوضوح وتمييز (القضيتان 40 و 43، الجزء III). وعليه فإنّ الرّضى بالذات يتوَلَّد من العقل.

وعلاوة على ذلك فعندما يعتبر الإنسان ذاته بوضوح وتمييز، أعني بصورة تامة، فهو لا يدرك شيئاً غير ما ينتج عن قدرته الشخصية على الفعل (التعريف 2، الجزء III)، أي عن قدرته على الفهم (القضية 3، الجزء III)؛ فعلى هذا الاعتبار وحده ينشأ إنّ أعظم رضاء ممكن.

خاتمة

الرّضى بالذات هو في الواقع أعظم شيء يمكن أن نتمنّاه، إذ لا أحد

(القضية 25) يجهد نفسه في سبيل حفظ كيانه من أجل غاية ما؛ ولما كان الرضى بالذات ينمو ويقوى أكثر فأكثر بالمديح (لازمة القضية 53، الجزء III)، بينما يُربكه التوبيخ (لازمة القضية 55، الجزء III)، فإننا غالباً ما نطمح إلى الإجدد، ونكاد لا نحتمل العيش في العار.

القضية 53

ليس الخذلان فضيلة، أي أنه لا يتولد من العقل.

البرهان

الخذلان هو الحزن الناجم عن اعتبار الإنسان لعجزه الشخصي (التعريف 26 للانفعالات)؛ لكن لما كان الإنسان يعرف نفسه بواسطة العقل الصحيح فالمفروض أن لديه فكرة واضحة عن ماهيته، أعني (القضية 7، الجزء III) عن قدرته. وعليه فإذا كان الإنسان يدرك، أثناء اعتباره لنفسه، عجزاً كامناً في ذاته، فإن هذا لا يتأتى عن كونه يعرف ذاته وإنما (القضية 55، الجزء III) عن كون قدرته على الفعل معاقة. وإذا افترضنا أن شخصاً ما يتصور عجزه نظراً إلى كونه يعرف شيئاً يفوقه قدرة، بحيث تسمح له هذه المعرفة بتحديد قدرته الخاصة على الفعل، فنحن لا نتصور شيئاً آنذاك غير أن هذا الشخص يعرف نفسه بتعيين، أي (القضية 26) أن قدرته على الفعل مدعّعة. ولهذا السبب فإن الخذلان، أو الحزن الناجم عن اعتبار الإنسان لعجزه الخاص، لا يقوم على اعتبار صحيح، أعني على العقل، وهو ليس فضيلة، وإنما هو انفعال سلبي.

القضية 54

ليس الندم فضيلة، أي أنه لا يتولد من العقل: بل يكون الشخص الذي يندم عن فعله شقيًا أو عاجزًا مرتين.

البرهتان

يُبرهنُ على الجزء الأول من هذه القضية على منوال القضية السابقة. أما الجزء الثاني فهو بديهي من خلال تعريف الندم فحسب (التعريف 27 للانفعالات). ذلك أننا نستسلم أولاً لـرغبة سيئة، ثم للحزن.

حاشية

لما كان من القادر أن يعيش الناس على مقتضى العقل، فإن هذين الانفعالين، أعني الخذلان والندم، وكذلك الأمل والخشية، إنما هي انفعالات تنفع أكثر مما تضر؛ وبالتالي فإن كان لا بد للمرء أن يخطئ، فليخطئ بهذا المعنى. ذلك لو كان أصحاب النفوس العاجزة على نفس الدرجة من الفطوسة، لا شيء يخلطهم ولا شيء يخيفهم، فما الذي سيوحد بينهم ويردعهم؟ فالوُهاع (Vulgus) مهول إذا لم يودعه وأدع، فلا غرو إذن إن أوصى الأنبياء بالخذلان والندم والاحترام، شغلهم الشاغل في ذلك الفائدة العامة. لا الفائدة الخاصة. وفي الواقع إن الذين يخضعون لهذه الانفعالات يسهل عليهم أكثر من غيرهم العيش على مقتضى العقل، أي العيش في كنف الحرية والتمتع بحياة السعداء.

القضية 55

أقصى لوجة من الزهو أو من استخفاف المرء بذاته إنما هي جهله المطبق بذاته.

البرهان

هذا يديه من خلال التعريف 28 للاتفعالات.

القضية 56

أقصى درجة من الزهو أو من الاستخفاف بالذات إنما هي العلامة على أقصى عجز للنفس.

البرهان

المبدأ الأول للفضيلة هو حفظ الذات (لازمة القضية 22) ويكون ذلك بهداية من العقل (القضية 24). فالذي يجهل نفسه يجهل إذن مبدأ كل الفضائل، وإذاً فهو يجهل الفضائل جميعاً.

ثم إن السلوك الموافق للفضيلة ليس غير السلوك على مقتضى العقل (القضية 24)؛ فمن كانت أعماله على مقتضى العقل علم بالضرورة أن أعماله إنما هي على مقتضى العقل (القضية 43، الجزء II). وعلى ذلك فإن الذي يكون على أقصى جهل بنفسه وبالتالي (كما بينا الآن) على أقصى جهل بكل الفضائل، فأعماله هي أبعد ما يكون عن الفضيلة، أي (كما هو يديه من

خلال التعريف (8) أَنَّ نفسه مصابة بأقصى العجز. وعلى هذا الأساس (القضية السابقة) فَإِنَّ أقصى درجة من الزهو أو من الاستخفاف بالذات هي العلامة على أقصى عجز للنفس.

لَا زَهْوَةَ

يقرب على ذلك موضح تام أَنَّ المزهوين والمستحقين بأنفسهم إنما هم شديدو الخضوع للانفعالات.

حَاشِيَةٌ

بيد أَنَّ الاستخفاف بالذات يَقُومُ بأكثر سهولة من الزهو؛ ذلك أَنَّ هذا الشعور شعور بالفرح، بينما الأول شعور بالفزع؛ وبالتالي (القضية 18) فَإِنَّ الشعور الثاني أقوى من الأول.

القضية 57

إِنَّ المزهوَّ يحبُّ محضر المتطقلين أو المتماقين، ويكره محضر الشَّهام.

السببوهان

الزهو هو الفرح الناجم عن كون الإنسان يقدر نفسه أكثر مما يستحق (التعريفان 28 و6 للانفعالات)؛ ويبدل الإنسان المزهو قصارى جهده من أجل

تعزیز هذا الرأي (حاشية القضية 13، الجزء III)؛ فهو يجب إذن محض المتطلقين أو المتعلقين (لَمْ أَرْ بَدْءاً من تعريفهم لأنهم غنيون عن التعريف) ويتجنب محضر الشهام الذين يقدرونه حق قدره.

حاشية

لا يتسع المجال هنا لذكر كل بَلَايَا الزَّهْوِ، لأنَّ المزهوين يستسلمون لجميع الانفعالات ولا سيما لانفعالي الحبِّ والرَّحمة، لكن لا بدَّ من الإشارة إلى كوننا نطلق لفظ الزَّهْوِ على تلك الذي لا يقدر الآخريين حقَّ قدرهم، ومن هذا المنظور يمكن تعريف الزَّهْوِ بأنَّه الفرح النَّاجم عن الوأي الباطل الذي يجعل الإنسان يظنُّ نفسه أرفع من غيره. أمَّا الاستخفاف بالذات، وهو عكس الزَّهْوِ، فيمكن تعريفه بالحزن النَّاجم عن الرأي الباطل الذي يجعل الإنسان يظنُّ نفسه أقلَّ من غيره. وعلى هذا الاعتبار فإنَّنا نتصور بسهولة أنَّ المزهو يكون بالضرورة حسوداً (حاشية القضية 55، الجزء III)، وأنَّه يكره فوق كلِّ شيء أولئك الذين يُمنَحون خاصَّة على فضائلهم؛ وأنَّ كرهه لهم لا يسهل التغلُّب عليه بالحبِّ أو الحسنة (حاشية القضية 43، الجزء III)؛ وأنَّه لا يجد متعة إلا في محضر الذين يجاملون أكثر من غيرهم، فيحوكونه من غيبي إلى فاقد النَّصواب.

ورغم أنَّ الاستخفاف بالذات هو عكس الزَّهْوِ، إلا أنَّ الذي يستخفُّ بنفسه هو قريب جداً من المزهو، إذ لما كان حزنه متأتَّ عن كونه ينظر إلى عجزه بالقياس مع قدرة أو فضيلة غيره، فإنَّ حزنه هذا سيضعف، أي أنَّه سيصبح مبتهجا إذا ما انشغل خياله باعتبار وِثَائِلْ غيره، ومن هنا كان المثل القائل: "مواساة الأشقياء أن يوجد من يشاركهم مصائبهم". وعلى العكس من ذلك فهو سيكون أكثر حزناً بقدر ما يظنُّ نفسه أقلَّ من غيره؛ وعلى هذا فإنَّ أكثر النَّاس ميلاً إلى الحسد هم أولئك الذي يستخفون بأنفسهم؛ إنَّهم

يجنون أكثر من أيّ كان في ملاحظة ما يقوم به الآخرون من أجل تائبهم على أخطائهم، لا من أجل إصلاحهم؛ وأخيرا إن إطراهم لا ينصب إلا على تواضعهم الشخصي، وهم يقتضون بذلك، غير أنّهم يتظاهرون دائما بالتواضع. فهذه النتائج تستخلص من هذا الانفعال بنقص الضرورة التي يستخلص بها من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث مساوية لزاويتين قائمتين.

ولقد سبق أن قلت إنني أسمي هذه الانفعالات وما ماثلها انفعالات قبيحة، باعتبار أنني لا أنظر إلى غير متفعة الإنسان، بيد أن قوانين الطبيعة تتعلق بالنظام الكلي للطبيعة التي ينتمي إليها الإنسان بوصفه جزءا لا يتجزأ منها، وهو ما أردت الإشارة إليه في الأثناء، حتى لا يظن أحد أنني أردت هنا عرض وذائل البشر وما يفترونه من أمور منافية للعقل، لا إثبات طبيعة الأشياء وخصائصها؛ إذ كما قلت فعلا في تمهيد الجزء الثالث، إنني أنظر إلى الانفعالات البشرية وخصائصها على غرار الأشياء الطبيعية الأخرى، ولا شك أن ما تكشفه الانفعالات البشرية عن قدرة الطبيعة - بل عن قدرة الإنسان أيضا - وقتها ليس أقل مما تكشفه أشياء أخرى كثيرة تدهشنا ونجد متعة في تأملها. لكنني سأتواصل النظر في الانفعالات لأبين أيها حفيد للناس رأيها ضار.

القضية 58

ليس المجد مناقضا للعقل، بل يمكنه أن ينوّد منه.

السبب

إنّ ذلك يديهي من خلال التعريف 30 للانفعالات، ومن خلال تعريف ما هو شريف، في الحاشية 1 للقضية 37.

حاشية

إنَّ ما يسمَّى مجداً باطلاً (vana gloria) هو الرضى بالذات الذي يدعّمه رأي الجمهور لا غير؛ وبزوال هذا الرأي يزول الرضى أيضاً، أعني (حاشية القضية 52) ذلك الخير الأسمى الذي يعشقه الجميع. وعلى هذا فإنَّ من يبني مجده على رأي الجمهور يساوره القلق يومياً، فيسعى إلى حفظ سمعته ويتشغل بذلك ووفرغ جهده فيه؛ إذ الجمهور هو حقاً متبدّل متقلّب، وإن لم يحافظ المرء على سمعته فسرعان ما تزول؛ بل لما كان الجميع يرغبون في الفوز بهتاف الجمهور فإنَّ كلَّ واحد سيعمل على طمس سمعة غيره. وبما أنَّ الأمر يتعلّق بصراع من أجل ما يُعتبر الخير الأسمى فإنَّه تنشأ رغبة جامحة في إخزاء بعضهم البعض، بحيث يكون الذي يخرج منتصراً من المعركة فخوراً بما ألحقه من ضرر بغيره أكثر منه بما حقّقه لنفسه من مصلحة، فهذا المجد أو الرضى هو إذن باطل حقّاً، لأنّه لا شيء.

أمّا ما ينبغي ملاحظته عن الخجل، فيمكن استخلاصه بسهولة عمّا قلناه عن الرحمة والندم. إنّي أضيف فقط أنَّ الخجل، مثل الشفقة، ليس فضيلة، إلّا أنّه شيء حسن، باعتبار أنّه يشير، لدى الإنسان الذي يحمّر خجلاً، إلى الرغبة في العيش الشريف؛ وكذا الشأن بالنسبة إلى الألم الذي يعتبر خيراً من جهة كونه يدلّ على أنَّ مكان الجرح لم يتعمّق بعد. وعلى هذا فبالوغم من أنَّ الإنسان الذي يخجل ممّا اقترفت يداه يكون في الواقع حزيناً، إلّا أنّه أكثر كمالاً من السقيّ الذي لا رغبة له في العيش الشريف.

هذه هي الملاحظة التي أردت إيداعها عن انفعالات الفرح والحزن. وفيما يتعلّق بالرغبات، فهي تكون حسنة أو قبيحة حسب نشأتها عن انفعالات حسنة أو قبيحة؛ لكنّها جميعاً رغبات عمياء باعتبارها تنشأ فينا عن انفعالات من نوع الانفعالات السلبية (كما يُستخلص بسهولة ممّا قيل في حاشية القضية 44)؛

ولو كان الناس يتقانون بسهولة إلى العيش على مقتضى العقل، لما كانت هذه
الرغبات تجدي نفعا، كما سنبين ذلك بإيجاز.

القضية 59

كل الأعمال التي نقوم بها بمقتضى انفعال من نوع الانفعالات
السلبية إنما نستطيع القيام بها بدونه وبمقتضى العقل.

البوهان

لا يعدو أن يكون الفعل الموافق للعقل (القضية 3 والتعريف 2، الجزء III)
غير القيام بما يلزم عن ضرورة طبيعتنا منظورا إليها في ذاتها فحسب، لكن
الحنن سيء باعتباره يضعف أو يعوق هذه القدرة على الفعل؛ إذن لا يمكن أن
يدفعنا هذا الانفعال إلى أي عمل نعجز عن القيام به لو كان رائدنا العقل.
وعلاوة على ذلك إن الفرح سيء من جهة كونه فقط يمنع الإنسان من أن يكون
قادرا على الفعل (القضيتان 41 و44)؛ وبالتالي فإنه لا يمكن لهذا الانفعال أن
يدفعنا إلى أي عمل نعجز عن القيام به لو كان رائدنا هو العقل. وأخيرا، بقدر
ما يكون الفرح خيرا فهو موافق للعقل (لأنه يتمثل في كون قدرة الإنسان على
الفعل تزداد وتقوى)؛ وهو لا يكون انفعالا سلبيا إلا إذا لم تزد قدرة الإنسان
على الفعل لدرجة أنه يصبح يتصور نفسه وأعماله بصورة تامة (القضية 3،
الجزء III، مع حاشيتها)، وبالتالي فإذا ما انتقاد إنسان يشعر بالفرح نحو
الكمال بحيث يدرك ذاته وأعماله الخاصة بصورة تامة، فهو سيكون قادرا على
نفس الأعمال التي تدفعه إلى القيام بها، في حالته الحاضرة، الانفعالات التي
هي من نوع الانفعالات السلبية؛ بل سيكون أكثر قدرة على ذلك، ولكن

الانفعالات كلها تتولد من الفرح أو الحزن أو الرغبة (راجع شرح التعريف الرابع للانفعالات)، وليست الرغبة (تعريف الانفعالات، 1) غير الجد في الفعل نفسه؛ إذن فكل الأعمال التي تقوم بها بمقتضى انفعال من نوع الانفعالات السلبية إنما تستطيع القيام بها بنونه وبمقتضى العقل وحده.

برهان آخر

يقال عن فعل ما إنه قبيح بوصفه ينشأ عن الكراهية أو عن بعض الانفعالات السيئة المؤثرة فينا (اللزمة 1 للقضية 45). لكن ليس أي فعل حسنا أو قبيحا إذا ما اعتبرناه في ذاته (كما بينا ذلك في تمهيد هذا الجزء)، بل يكون الفعل نفسه تارة حسنا وطورا قبيحا؛ إذن يمكن أن يقوينا العقل (القضية 19) إلى القيام بنفس هذا الفعل الذي هو حاليا قبيح، أي الذي ينشأ عن انفعال سيء.

ملاحظة

لأفسر فكرتي هذه بأكثر وضوح عن طريق مثال، إن فعل الضرب، إذا ما اعتبرناه من وجهة نظر فيزيائية وإذا ما اعتبرناه فقط أن إنسانا ما يرفع ذراعه ويجمع كفه بشدة ويحرك ذراعه كله بقوة من أعلى إلى أسفل، هذا الفعل هو فضيلة ناشئة عن بنية الجسم البشري. فإذا كان الإنسان إذن مدفوعا بفعل الكراهية أو الغضب إلى جمع قبضته بشدة أو إلى تحريك ذراعه، فإن ذلك يحدث لأنه يمكن لنفس الفعل، كما بينا ذلك في الجزء الثاني، أن يقترب بكل صورة من صور الأشياء؛ إذن يمكن أن تُدفع إلى القيام بالفعل نفسه من قبل صور الأشياء التي نتصورها باختلاط ومن قبل صور الأشياء التي نتصورها بوضوح وتميز على حد سواء. يتجلى من هنا أن كل رغبة متولدة عن

الإنفعال الذي هو إنفعال سلبي تكون بلون جدوى لو كان بوسع البشر أن يسيروا على مقتضى العقل، فثقتين الآن لماذا نسمي الرغبة الناجمة عن انفعال من نوع الانفعالات السلبية رغبة عمياء.

القضية 60

الرغبة الناجمة عن الفرح أو الحزن المتعلق بجزء واحد من الجسم أو ببعض أجزائه، لا بجميعها، لا تراعي مصلحة الإنسان بأكمله.

البرهان

لتفرض مثلاً أن الجزء "I" من الجسم تمتعه علة خارجية من القوة ما يجعله متفوقاً على بقية الأجزاء (القضية 6). فهذا الجزء لن يعمل على ضياع قواه من أجل أن تؤدي بقية الأجزاء وظيفتها، لأن ذلك يفترض أن لديه القوة أو القدرة على إضاعة قواه، وهذا محال (القضية 6، الجزء III). سيسعى إذن هذا الجزء، وبالتالي ستسعى النفس أيضاً (القضيتان 7 و 12، الجزء III) إلى المحافظة على تلك الحالة؛ وفيه فإن الرغبة الناجمة عن مثل هذا الشعور بالفرح لا تتعلق بالكل.

إما إذا افترضنا، على العكس من ذلك، أن الجزء "I" يضعف بحيث تتفوق عليه الأجزاء الأخرى، فإننا سنبرهن بنفس الطريقة على أن الرغبة الناجمة عن الحزن لا تتعلق هي الأخرى بالكل.

حاشية

لما كان الفرح (حاشية القضية 44) يتعلق غالباً بجزء واحد من الجسم،

لأننا نرغب في الغالب في حفظ كياننا دونما تكرات بصحة الجسم بأكمله؛
وعلاوة على ذلك إن الرغبات التي تستعبدنا الأكثر (لازمة القضية 9) تتعلق
بالزمن الحاضر فحسب، لا بالمستقبل.

القضية 61

لا يمكن للرغبة المتولدة من العقل أن تكون مفرطة.

البوهان

الرغبة، إذا ما اعتبرت على وجه الإطلاق (التعريف 1 للانفعالات) هي
عين ماهية الإنسان من حيث تصوورها مدفوعة إلى عمل ما؛ إذن
فالرغبة المتولدة من العقل هي (القضية 3، الجزء III) التي تنشأ فيها بوصفنا
نقل، هي ماهية الإنسان ذاتها، أعني طبيعته، باعتبارها متصورة
مدفوعة إلى القيام بما يتصور على نحو تام بماهية الإنسان وحدها
(التعريف 2، الجزء III). وعلى هذا الأساس، قلوا كان يوسع هذه الرغبة أن
تكون مفرطة لكان يوسع الطبيعة البشرية، منظورا إليها في ذاتها فحسب، أن
تتجاوز حدودها الذاتية، وبعبارة أخرى لكانت تقدر على أكثر مما تقدر عليه،
وهي ذلك تناقض صريح؛ وبالتالي فإنه يتعذر على مثل هذه الرغبة أن تكون
مفرطة.

القضية 62

إن النفس، من حيث تصوورها للأشياء وفقا لما يقتضيه العقل،

تتفعل بنفس الدرجة، سواء كانت الفكرة فكرة شيء مستقبل أو
ماض، أو فكرة شيء حاضر.

البروهان

كل ما تتصوره النفس بهدي من العقل إنما تتصوره على نفس الشكل من
الأزل أو الضرورة (اللزمة 2 للقضية 44، الجزء II)، وتشعر أثناء تصورهما له
بنفس اليقين (القضية 43، الجزء II، مع حاشيتها). وبناء على ذلك فسواء
كانت الفكرة فكرة شيء مستقبل أو ماض أو فكرة شيء حاضر، فإن النفس
تتصور الشيء بنفس الضرورة وتشعر بنفس اليقين؛ وسواء أكان موضوع
الفكرة شيئاً مستقبلاً أو ماضياً أم شيئاً حاضراً فإن هذه الفكرة لن تكون أقل
صدقاً في جميع الحالات (القضية 41، الجزء II)، أي (التعريف 4، الجزء II)
أنها ستتضمن دائماً نفس مميزات الفكرة التامة؛ وهكذا فإن النفس، من حيث
أنها تتصور الأشياء وفقاً لما يقتضيه العقل، تتفعل بنفس الطريقة، سواء كانت
الفكرة فكرة شيء مقبل أو ماض، أو فكرة شيء حاضر.

حاشية

لو كان بوسعنا أن نملك معرفة تامة عن مدة (duration) الأشياء وأن
نحشد بالعقل زمان وجودها، لَكُنَّا فنظر إلى أمور المستقبل وأمر الحاضر
بنفس الوجدان، ولكانت النفس تتشوق إلى الخير الذي تتصوره مقبلاً كما لو
كان حاضراً؛ وبالتالي لكانت تهمل بالضرورة خيراً حاضراً أقل، من أجل خير
أثبات أعظم، ولكانت لا تشفق إلا قليلاً إلى الشيء الذي يكون في الحاضر خيراً
وفي المستقبل مصدراً للشقاء كما سنثبت ذلك بعد حين. إلا أنه لا يمكننا أن
نحصل إلا على معرفة ناقصة جداً عن مدة الأشياء (القضية 31، الجزء II).

كما أننا نحدد (حاشية القضية 44، الجزء II) زمن وجود الأشياء بالخيال فحسب، الذي لا يتأثر بنفس الدرجة بصورة شيء حاضر وبصورة شيء أت، ويتوثب على ذلك أن المعرفة الصحيحة التي نملكها عن الخير والشر لا تعدو أن تكون معرفة مجردة أو عامة، وأن الحكم الذي نطلقه على نظام الأشياء وترابط العلل من أجل تعيين ما نستصفه أو نستقيحه في الحاضر، حكم يقوم على الخيال أكثر منه على الواقع. فلا غرو إذن إن كانت الرغبة الناجمة عن المعرفة المتعلقة بالخير والشر في المستقبل قد تعوقها بسهولة الرغبة في الأشياء التي هي حالياً ممتعة (انظر في هذا الشأن القضية 16).

القضية 63

إن من تقوده الخشية ويفعل الخير تحاشياً للشر لا يكون سلوكه على مقتضى العقل.

البوهان

لا تعدو أن تكون جميع الانفعالات المتعلقة بالنفس من حيث هي فاعلة، أي المتعلقة بالعقل (القضية 3، الجزء III)، غير انفعالات الفرح والرغبة (القضية 59، الجزء III)؛ وبالتالي فإن من تقوده الخشية (التعريف 13 للانفعالات) ويفعل الخير خوفاً من الشر لا يكون سلوكه على مقتضى العقل.

حاشية

المطّيرون الذين يحسنون استهجان الرذائل أكثر من تلقين الفضائل،

ويدأبون على ردع الناس بالخوف، لا على هدايتهم بالعقل، إنما يفلحون في جعلهم ينقرون من الشر، لا في تحريضهم على الفضيلة، كما أن مسعاهم الوحيد لا يهتدو إلا أن يكون إيلاء غيرهم بمثل شقائهم؛ فلا عجب إنن أن يمقتهم الجميع ولا يحتلمهم أحد.

اللزامة

إن الرغبة المتولدة من العقل تجعلنا تسعى إلى الخير بصورة مباشرة ونتجنب الشر بصورة غير مباشرة.

البيوهان

لا يمكن للرغبة المتولدة من العقل أن تنجم إلا عن الشعور بالفرح الذي لا يكون إنفعالا سلبيا (القضية 59، الجزء III)، أي عن الفرح الذي لا يمكنه أن يكون مفرطاً (القضية 61)، لا عن الحزن؛ وعلى ذلك فإن هذه الرغبة (القضية 8) تنجم عن معرفة الخير، لا عن معرفة الشر؛ وبالتالي فإننا نرغب، بهدي من العقل، في الخير مباشرة، وفي هذه الحالة فحسب نفكر من الشر.

حساسية

يمكن تفسير هذه اللزامة بمثال المريض والسليم. فالمريض يتناول ما يُقرّزه خوفاً من الموت؛ أما السليم فهو يتمتع بالطعام وينعم بالحياة بطريقة أفضل مما لو كان يخشى الموت ويرغب بصورة مباشرة في تجنبه، وفي

نفس السياق، إنَّ القاضي الذي يحكم على الجاني بالموت، لا حقداً عليه أو كرهاً له، إلخ، وإنَّما يدافع الحبَّ للصالح العام، يكون سلوكه على مقتضى العقل وحده.

القضية ٤٤

إنَّ معرفة الشرِّ معرفة غير تامة (inadaequata).

البرهان

إنَّ معرفة الشرِّ (القضية 8) هي الحزن ذاته من جهة كوننا نعي به. لكن الحزن هو الانتقال إلى كمال أقلَّ (التعريف 3 للانفعالات)، ولا يمكن، لهذا السبب، أن يدرك يماهية الإنسان ذاتها (القضيتان 6 و7، الجزء III)؛ وبناءً على ذلك (التعريف 2، الجزء III) فالحزن انفعال سلبي تابع (القضية 3، الجزء III) لأفكار غير تامة؛ وبالتالي (القضية 29، الجزء II) لمَّا إنَّ معرفته معرفة غير تامة، أعني أنَّ معرفة الشرِّ معرفة غير تامة.

للإضافة

يقرب على ذلك أنَّه لو كانت النفس البشرية لا تملك غير أفكار تامة، لا أنشأت آية فكرة عن الشرِّ.

القضية 65

كلّما اهتدينا بالعقل، اخترنا من بين خيارين اثنين أعظمهما، ومن بين شرّين اثنين أهونهما.

البرهان

الخير الذي يحول دون تمتعنا بخير أعظم إنّما هو في الحقيقة شرّ؛ ذلك أنّ الحُسن والقبح (كما بيّنا ذلك في تعهيد هذا الجزء) يقالان عن الأشياء من جهة كوننا نقاؤون بعضها ببعض؛ والشرّ الأقلّ هو في الحقيقة خيرٌ (لنفس السبب)؛ لذلك (لازمة القضية 63) فإنّنا، إذا ما اهتدينا بالعقل، لن نرغب إلّا في الخير الأعظم والشرّ الأقلّ ولن نبحث إلّا عنهما.

اللازمة

إنّنا نبحث، إذا ما اهتدينا بالعقل، عن الشرّ الأقلّ من أجل خير أعظم، ونتنازل عن الخير الأقلّ الذي يتسبّب في شرّ أعظم؛ ذلك أنّ الشرّ المُسمّى هنا أقلّ هو في الواقع خير، وعلى العكس، الخير الأقلّ هو شرّ؛ وبالتالي فإنّنا سترغب في الشرّ (لازمة القضية 63) ونتنازل عن الخير.

القضية 66

إنّنا نفضل، إذا ما اهتدينا بالعقل، خيرا أعظم في المستقبل

على خير أقلّ في الحاضر، وشرّاً أقلّ في الحاضر على شرّ أعظم في المستقبل.

المبرهان

لو كانت النفس تستطيع أن تعرف أمور المستقبل معرفة تامة لكانت تتأثر بنفس الطريقة إن شاء أمر مستقبل وإن شاء أمر حاضر (القضية 62)؛ لذلك فمن جهة اعتبارنا للعقل ذاته، مثلما الحال في هذه القضية، فإنّ الوضع لا يختلف، سواء تعلّق الأمر بخير أعظم (أو شرّاً أعظم) في المستقبل أو في الحاضر؛ وبالتالي (القضية 65) فإنّنا سنفضّل خيراً أعظم في المستقبل على خير أقلّ في الحاضر، إلخ.

اللزامة

إنّنا نرغب، إذا ما اهتدينا بالعقل، في شرّ أقلّ في الحاضر لأنّه مصدر خير أعظم في المستقبل، ونتنازل عن خير أقلّ في الحاضر لأنّه مصدر شرّ أعظم في المستقبل. إنّ نسبة هذه اللزامة إلى القضية السابقة كنسبة لازمة القضية 65 إلى القضية 65.

مباشرة

لوريطنا ما تقدّم بما سبق أن قلنا في هذا الجزء، إلى حدّ القضية 18، من قوى الانفعالات، لتبيّن لنا بسهولة فيما يختلف الإنسان الذي ينقاد للانفعال بحسب أو للرأي، عن الإنسان الذي يهتدي بالعقل، فالأول يفعل، سواء أراد أو

لم يرد، نون أن يعرف ما يفعل؛ أمّا الثاني فهو لا يطالع إلا نفسه ولا يقوم إلا بما يرى أنّه أساسي للحياة ويرغب فيه لأجل تلك أكثر من كلّ شيء؛ وبناءً على ذلك إنّي أسمّي الأول عبداً، والثاني حرّاً، وأودّ هنا أن أضيف بعض الملاحظات عن طبع هذا الأخير وعن نمط عيشه.

القضية 67

إنّ الإنسان الحرّ لا يفكر في شيء أقلّ من التفكير في الموت،
وتتمثل حكمته في تأمل الحياة، لا في تأمل الموت.

البرهان

إنّ الإنسان الحرّ، أعني الذي لا يهتدي إلا بالعقل، لا يقوده الخوف من الموت (القضية 63)، بل هو يرغب في الخير مباشرة (لازمة نفس القضية)، أي (القضية 24) أنّه يرغب أن يفعل ويحيى ويحافظ على كيانه وفق مبدأ البحث عما ينفعه بوجه خاص (proprium utile)؛ وبناءً على ذلك فهو لا يفكر في شيء أقلّ من التفكير في الموت، وتتمثل حكمته في تأمل الحياة.

القضية 68

لو كان الناس يولعون أحراراً، لما كُونوا أيّ مفهوم للخير والشرّ
طالما بقوا أحراراً.

البرهان

قلت إن الإنسان الحرّ هو الذي يهتدي بالعقل وحده؛ إذن فالذي يولد حرّاً ويبقى كذلك إنما هو لا يملك غير أفكار تامة؛ وبالتالي فهو لا يملك أيّ تصوّر للشرّ (لازمة القضية 64)، ولا للخير أيضاً (لأنّ الخير والشر متضايقان).

ملاحظة

الفرضية التي تقوم عليها هذه القضية باطلة ولا يمكن تصوّرها إلّا من حيث اعتبارنا للطبيعة البشرية وحدها، بل للإله، لا بوصفه لا متناهياً وإنّما بوصفه فقط علّة وجود الإنسان؛ إنّ ذلك ينهي من خلال القضية 4. فهذه الحقيقة، فضلاً عن الحقائق الأخرى التي سبق أن أثبتناها، هي على ما يبدو ما أراد موسى أن يشير إليه من خلال قصة الإنسان الأوّل. فهو لا يتصوّر فيها حقّاً أية قدرة إلهية غير التي خلق بها الله الإنسان، أي القدرة التي جعلته يهتم فقط بمصلحة الإنسان. وفي هذا المعنى روى موسى أنّ الله قد حرّم على الإنسان الحرّ الأكل من شجرة المعرفة الخاصة بالخير والشر، وأنّه ما إن تناول منها شيئاً حتّى أصبح خائفاً من الموت عوض أن يكون واغياً في الحياة؛ ثم التقى الإنسان بالمرأة التي توافق طبيعتها طبيعته تماماً، فذكر أنّه لا يوجد في الطبيعة شيء أكثر نفعا له منها؛ إلّا أنّه كان يظنّ أنّ الحيوانات معاملة له، فنأخذ لتوّه يحاكي انفعالاتها (انظر القضية 27، الجزء III) ويفرط في حرّيته، تلك الحرية التي استرجعها البطريركيون بهداية من روح المسيح، أي من فكرة الله التي يلزم عنها أن يكون الإنسان حرّاً وأن يرغب للخير الذي يرغبه لنفسه، كما أثبتنا أعلاه (القضية 37).

القضية 69

تتمثل فضيلة الإنسان الحرّ في توقّيه المخاطر بقدر ما تتمثل في تغلبه عليها.

البرهان

لا يمكن كبح انفعال ولا إزالته إلا بانفعال مقابل أقوى منه (القضية 7). ولكنّ التهور الأعمى والخشية انفعالان يمكن تصوّرهما على نفس الدرجة من الشدة (القضية 5 والقضية 3). وعليه فإنّ الحدّ من التهور يقتضي من الفضيلة أو العزم (انظر التعريف في حاشية القضية 59، الجزء III) ما لا يقلّ عمّا يقتضيه الحدّ من الخشية؛ أي (التعريفان 40 و41 للانفعالات) أنّ الفضيلة التي يتوقّى بها الإنسان الحرّ المخاطر هي عينها التي تجعله يحاول التغلب عليها.

اللزامة

يبدّي الإنسان الحرّ من رباطة الجأش إذا ما انسحب في الوقت المناسب نفس ما يبديه إذا أقدم على المعركة؛ وبعبارة أخرى، يبدّي الإنسان الحرّ نفس الدرجة من رباطة الجأش أو سرعة الخاطر، سواء اختار أن يُقبل على المعركة أو أن يُدبر عنها.

حاشية

لقد فسّرت ما هي رباطة الجأش، أو ما أعنيه بهذه العبارة، في حاشية

القضية 59 من الجزء III. أما الخطر، فاعنى به كل ما قد يكون سببا في شر ما، كالحزن والكراهية والشقاق إلخ.

القضية 70

يبدل الإنسان الحر الذي يعيش بين الجهلة قصارى جهده كي يتجنب حسناتهم.

البوهان

يقدّر كل واحد، وفقا لطبيعته الخاص، ما هو الشيء الحسن (حاشية القضية 39، الجزء III)؛ إذن فالجاهل الذي أحسن إلى غيره سيقدّر صنيعه وفقا لطبيعته الخاص، وإذا بدا له أن المنتفع بحسنته يقض من شأنها، فهو سيشعر بالحزن (القضية 42، الجزء III). ومن جهة أخرى، يدأب الإنسان الحر على توثيق عرى الصداقة بينه وبين الآخرين (القضية 37)، لا على مقابلة حسناتهم بحسفات مساوية لها في رأيهم، كما يدأب على السلوك، هو وغيره، على مقتضى أحكام العقل الحرّة، وعلى القيام فقط بما يعتبره أمرا أساسيا. إذن فالإنسان الحر يبدل قصارى جهده كي يتجنب حسنات الجهلة، حتى يكون بمأمن من بغضهم، فلا ينزل عند رغبتهم ولا يهتدي إلا بالعقل.

حاشية

قلت: "قصارى جهده"؛ إذ رغم أنهم جهلة إلا أنهم بشر ويستطيعون وقت الحاجة مدّ يد المساعدة بإنسانية لا غنى عنها، وعلى هذا الاعتبار فابته غالبا ما

يتحتم على المرء أن يقبل بعض حسناتهم مع عرفان الجميل، وفقاً لطبيعتهم الخاص. وعلاوة على ذلك فحتى عندما نتحاشى حسناتهم، فمن الحكمة ألا نظهر بمظهر من يحتقرهم أو يخشى، نظراً إلى بخله، أن يعاملهم بالمثل، وإلا أهنأهم، والحال أننا نريد تجنب بغضهم. ينبغي إذن أن نتجنب الحسنات مع مراعاة لما هو نافع وشريف.

القضية 71

الأحرار فقط يكونون في غاية الامتنان بعضهم إلى بعض.

البرهان

الأحرار فقط ينفعون بعضهم بعضاً تماماً وتوحد بينهم صداقة وثيقة جداً (القضية 35 مع اللازمة 1)؛ وهم فقط يسمعون إلى الإحسان بعضهم إلى بعض بنفس الحماس الودّي (القضية 37)؛ وبناء على ذلك (التعريف 34 للانفعالات) فإن الأحرار فقط يكونون في غاية الامتنان بعضهم إلى بعض.

حاشية

غالباً ما يكون عرفان الجميل عند الذين يتقانون للرغبة العمياء متاجرة أو غشاً أكثر منه عرفان جميل. أما الجحود فهو ليس انفعالاً، إلا أنه مخز، لأنه غالباً ما يدل على شعور الإنسان بالكراهية المخطوطة، وبالفضب أو الفطرسه أو البخل إلخ. فعلاً، إن الذي لا يحسن، نظراً إلى غباوته، مقابلة الهدايا التي وصلته بنظيرها من الهدايا، ليس جحوداً؛ ولا أيضاً ذلك الذي لم يجعله عطفاً

موس أدانة طيعة لدعائرتها، أو عطايا لحرٍ مُخبئاً لمسروقاته، أو حالات أخرى من نفس القبيل، بل هو على العكس من ذلك وثبت رباطه جاشه عندما لا يترك الهوايا المُفسدة تفريه وتسيب في هلاكه الشخصي أو في هلاكه هو وغيره.

القضية 72

لا يتصرف الإنسان الحر بمكر أبداً، وإنما يكون تصرفه بحسن نية.

البرهان

لو كان الإنسان الحر، بوصفه حرّاً، يتصرف بمكر، لكان يهتدي في ذلك بالعقل (فنحن لا نسميه حرّاً إلا بهذا الشرط)، ولكان المكر، تبعاً لذلك، قضية (القضية 24)، وبالتالي (نفس القضية) لَعَنَ لكل شخص أن يختار التصرف بمكر من أجل حفظ كيانه، أعني (كما هو معلوم بذاته) لَعَنَ للجميع أن يتفقوا في القول فقط وأن يكونوا في الواقع مناهضين بعضهم لبعض، إلا أن ذلك (لازمة القضية 31) محال، إذن فالإنسان الحر، إلخ.

حاشية

فإذا سأل بعضهم: ألا تقتضي قاعدة حفظ الذات من المرء أن يكون على سوء نية إذا كان ذلك ينتقذه من خطر الموت المحدث به؟ فإن جوابي سيكون بنفس الطريقة: إذا كان العقل يأمر بذلك فهو يأمر به الجميع، وبهذه الصورة

لأنَّ العقل سيأمر الجميع بوجه عام ألاَّ يبرموا اتِّفاقاً فيما بينهم من أجل توحيد قواهم وتأسيس حقوق عامة، إلاَّ إذا كان هذا الاتفاق يقوم على الفدر، أي أنَّه سيأمرهم في الحقيقة بالتفريط في الحقوق العامة، إلاَّ أنَّ ذلك محال.

القضية 73

يكون الإنسان الذي يهتدي بالعقل أكثر حرية في دولة يعيش فيها في ظلَّ القانون العام، منه في العزلة حيث لا يصدر إلاَّ بأمر نفسه.

البرهان

إنَّ الإنسان الذي يهتدي بالعقل لا يتقاد إلى الطاعة بوازع الخوف (القضية 63)؛ لكن باعتبار أنَّه يسعى إلى حفظ وجوده وفق ما يأمره به العقل، أي (حاشية القضية 66) باعتبار أنَّه يسعى إلى العيش حرّاً، فهو يرغب في احترام قاعدة الحياة والمنفعة العامة (القضية 37)، وأنَّ يعيش بالتالي (لقد بيَّنا ذلك في الحاشية 2 للقضية 37) وفق القانون العام للدولة. إذن يرغب الإنسان الذي يهتدي بالعقل، كي يعيش في كنف الحرية، في احترام القانون العام للدولة.

حاشية

تتعلّق هذه القضية والمبادئ الأخرى التي وضعناها في خصوص حرية

الإنسان الحقيقية بقوة النفس أي (حاشية القضية 59، الجزء III) بريادة الجاش والروعة. ولا أعتقد أنه من المفيد هنا أن أثبت على حدة جميع خاصيات قوة النفس، ولا أن الإنسان الثابت الحزم لا يكره ولا يصعد أحدا، ولا يفضب أو يسخط على أحد، ولا يحتقر أحدا، ولا يُبدي أية غطرسة. فكل ذلك وكل ما يتعلّق بالحياة الحقيقية وبالدّين إنّما يسهل إثباته من خلال القضيتين 37 و46 من هذا الجزء، بمعنى أن الكراهية يجب أن ينتصر عليها الحب، وأن كل من يهتدي بالعقل يرغب لغيره ما يرغب لنفسه. هذا فضلا عمّا أشرنا إليه في حاشية القضية 50 وفي مواضع أخرى، من أن الإنسان الذي يتّصف بريادة الجاش يعتبر أولا أن جميع الأمور تنتج عن ضرورة الطبيعة الإلهية، وبالتالي أن كل ما يراه سيئا ولا يمكن احتمالها، وكل ما يظهر له، علاوة على ذلك، لا أخلاقيا وفظيحا وجائرا ومخزيا، إنّما هو ناتج عن كونه يتصور الأمور بطريقة مشوشة ومشوّمة ومبهمة؛ ولهذا السبب فهو يسعى يادئ ذي بدء إلى تصوّر الأمور كما هي في ذاتها وإلى إقصاء العراقيل التي تحول دون المعرفة الصحيحة، كالكراهية والغضب والحسد والاستهزاء والغطرسة وما ماثل ذلك ممّا ذكرنا آنفا؛ إنّه يبذل قصارى جهده إذن، كما قلت، كي يسلك سلوكا طيبا ويظلّ مبتهجا. لكن إلى أي مدى تنجح في ذلك الفضيلة الإنسانية؟ وما هي قدرتها؟ ذلك ما سنبيّنه في الجزء التّالٍ.

تذييل

توخّيت في مرضي لهذا الجزء المتعلّق بالسلوك القويم في الحياة طريقة لا تسمح بإلقاء نظرة شاملة لموضوعاته؛ إذ اتّبعتم نمط استنتاج القضايا بعضها من بعض بكامل السهولة. رأيت إذن أن أجمع هنا أقوالني وأن أخصّها في فصول رئيسية.

الفصل 1

تنشأ جميع نزوعاتنا أو رغباتنا من لزوم طبيعتنا، بحيث يمكن معرفتها إما بطبيعتنا وحدها بوصفها علتها القريبة، وإما باعتبارنا جزءا من الطبيعة بتعدّد تصوّره بذاته تصوّرا تامّا بصرف النظر عن بقية الأفراد.

الفصل 2

إن الرغبات التي تنشأ عن طبيعتنا بحيث يمكن معرفتها بها وحدها هي الرغبات المتعلقة بالنفس باعتبار أنّنا نتصوّرها مكوّنة من أفكار تامة؛ أمّا الرغبات الأخرى فهي لا تتعلّق بالنفس إلّا باعتبار أنّ هذه الأخيرة تتصوّر الأشياء تصوّرا غير تامّ؛ ففوّة هذه الرغبات ونموّها تحدّدان فوّة الأشياء الخارجية، لا فوّة الإنسان. لذلك فإنّ الرغبات الأولى تُسمّى أفعالا مستقيمة (rectae actiones)، والثانية انفعالات سلبية (passiones)؛ ذلك أنّ الأولى علامات على قوّتنا، والثانية علامات على عجزنا ومعرفتنا المشوّهة.

الفصل 3

تكون أفعالنا، أعني رغباتنا تلك التي تحدّدنا قدرة الإنسان أو عقله، دائما حسنة؛ أمّا الرغبات الأخرى فقد تكون حسنة أو قبيحة.

الفصل 4

من المفيد إذن في الحياة، قبل كلّ شيء، أن يستكمل المرء ذهنه أو عقله

(intellectum seu Rationem) قدر الإمكان؛ ففي ذلك فحسب تتمثل سعادة الإنسان القصوى أو غبطته؛ إذ الغبطة لا تعدو إلا أن تكون رضى النفس ذاته الذي ينشأ عن معرفة الله معرفة حتمية. وليس اكتمال الذهن غير معرفة الله وصفاته والأعمال اللازمة عن وجوب طبيعته، وعلى ذلك فإن الغاية القصوى للإنسان الذي يهتدي بالعقل، أي الرغبة الرئيسية التي تسمح له بتنظيم كل الرغبات الأخرى، هي التي تدفعه إلى تصور نفسه، وتصور جميع الأشياء التي تظهر لعقله بوضوح، على نحو تام.

الفصل 5

لا وجود إذن لحياة موافقة للعقل دون معرفة واضحة، كما أن الأشياء لا تكون حسنة إلا بقدر ما تساعد الإنسان على أن يتمتع بحياة النفس التي تتحدد بالمعرفة الواضحة. أمّا الأشياء التي، على العكس من ذلك، تعوق الإنسان عن استكمال عقله والتمتع بحياة ملائمة له، فهي وحدها التي نقول عنها إنها سيئة.

الفصل 6

كل ما كان الإنسان علة قاعلة له، كان خيرا بالضرورة؛ وعلى ذلك فكل ما يطرأ على الإنسان من شر إنما يطرأ عليه من أسباب خارجية، أعني من جهة كونه جزءا من الطبيعة الكلية التي يتبقي على الطبيعة الإنسانية إطاعة قوانينها وريثتها عليها التكييف معها بعدد يكاد يكون غير محدود من الأوجه.

الفصل 7

من المحال ألا يكون الإنسان جزءاً من الطبيعة وألا ينتقاد لنظامها الكلي. لكن إذا كان الإنسان يعيش بين أفراد تتفق طبيعتهم مع طبيعته الخاصة، فعندئذ ستجد قدرته على الفعل للمساعدة والدّم. وعلى العكس، إذا وُجد بين أفراد لا يتفقون البتّة مع طبيعته، فهو لن يكاد يتأقلم معهم حتى يغيّر من نفسه الكثير.

الفصل 8

كلّ ما يوجد في الطبيعة ونرى أنّه شرّ، ذعني كلّ ما نعتبره قادراً على منعه من البقاء والتمتّع بحياة موافقة للعقل، إنّما يحقّ لنا استبعاده بالطريقة التي نبدو لنا الأوكذ؛ وعلى العكس، كل ما نرى أنّه خير أو مفيد لحفظ وحياتنا والتمتّع بحياة موافقة للعقل، فإنّه يحقّ لنا الاستحواذ عليه واستغلاله بكلّ الطرق؛ وإن تحدثنا بوجه الإطلاق، فإنّه يحقّ لكلّ امرئ أن يفعل، وفقاً لحقّ الطبيعة السني، كلّ ما يرى أنّه يضيف إلى مصلحته.

الفصل 9

لا شيء يتفق مع طبيعة كائن بصورة أفضل من الكائنات التي تنتمي إلى نوعه؛ وعلى ذلك (حسب الفصل 7) فلا شيء ينفع الإنسان في حفظ وجوده والتمتّع بحياة موافقة للعقل أكثر من الإنسان الذي يهتدي بالعقل. وفضلاً عن ذلك، لما كنّا لا نعرف من بين الأشياء القريبة شيئاً أفضل من الإنسان الذي

يقوده العقل، فلا أحد يستطيع إذن أن يبرهن على مهارته وكفاءاته بغير تدريب
الناس على العيش تحت سيادة العقل بالذات.

الفصل 10

كلما كان الحسد، أو بعض انفعالات الكره، محركا للناس بعضهم ضد
بعض، كانوا مناهضين بعضهم لبعض؛ وعليه فكلما كان نفوذهم أعظم من
نفوذ الكائنات الطبيعية الأخرى، كانوا موضوع خشية أكثر.

الفصل 11

بيد أن الأفتدة لا تنهر بالسلاح، وإنما بالحب والأريحية.

الفصل 12

من المفيد للبشر، قبل كل شيء، أن يقيموا علاقات اجتماعية فيما بينهم،
وأن يلتزموا بما من شأنه أن يجعلهم يكوّنون جميعا كلاً واحداً، وبما يسهم،
بأنما قيد، في توطيد الصداقات.

الفصل 13

بيد أن ذلك يقتضي الخبرة والعناية؛ إذ أن البشر يختلفون بعضهم عن
بعض (قالنيز يسترشدون بالعقل إنما هم قلة)، ومع ذلك فإنهم يحسنون
بعضهم بعضاً، كما أنهم أميل إلى الانتقام منه إلى الرأفة. لذلك يتطلب

احتمالهم جميعا بطباعهم المختلفة والامتناع عن محاكمة انفعالاتهم أن يتّصف المرء برياسة جاش فريدة من نوعها. أما أولئك الذي يحسنون لؤم الناس واستهجان رذائلهم بدلا من تلقينهم الفضيلة، ويفتتون قلوبهم بدلا من تقويتها، فلا أحد يحتملهم، بل إنهم لا يحتملون بعضهم بعضا؛ لذلك فقد فضّل أغلبهم العيش مع الحيوانات على العيش مع الآدميين، نظرا إلى نفاذ صبرهم وإلى زيغهم الناتج عن حمية دينية مزعومة؛ وهكذا فالأطفال والمراهقون الذين يضيق بهم الأمر قرعا ويملّون من تائب أوليائهم لهم يلجئون إلى الخدمة العسكرية ويفضلون مشاق الحرب وسلطة قائد منجبر على رغد العيش في الأسيرة وعتاب أبنائهم لهم، ويرضون بتحمل أي عبء شريطة أن ينتقموا من أوليائهم.

الفصل 14

رغم أن الناس يدعون غالبا ليوصلهم في جميع الأمور، إلا أن مزايا الحياة الاجتماعية تفوق مساوئها بكثير. فمن الأفضل على المرء إذن أن يحتمل إساءاتهم لئلا تتكرر وأن يبذل قصارى جهده من أجل تحقيق الوئام والصداقة.

الفصل 15

إن ما يولد الوئام (concordia) يتعلّق بالعدل والإنصاف والشرف، فالناس يحتملون بعناء، فضلا عن الجور والظلم، كل ما يعتبر مخزيا، كما أنهم لا يسمحون باحتقار التقاليد المعمول بها في الدولة، فالأمور المتعلقة بالدين والأخلاق إنما هي الأمور الضرورية أولا للفوز بالحياة. راجع

في هذا الصدد الحاشيتين 1 و2 للقضية 37، وحاشية القضية 46، وحاشية القضية 73.

الفصل 16

ينشأ الوئام عن الخشية أيضاً، لكن دونما حسن نية، ثم إن الخشية تنشأ عن الضعف النفسي، وبالتالي فهي ليست من نشاطات العقل؛ وكذا الشئ بالانسبة إلى الشفقة، رغم أنها تظهر بمظهر أخلاقي.

الفصل 17

إنما الناس تستهويهم أيضاً الهيات السخية، ولا سيما أولئك الذين لا يملكون ما يقيم أودهم، إلا أن مد يد المساعدة إلى المعوزين أمر يتجاوز بكثير قدرات الفرد ومصلحته؛ فقرواته أبعد ما يكون عن سد حاجياتهم، وملكااته المحدودة جداً لا تسمح له بالفوز بصداقة الجميع، وعلى ذلك فالعناية بالفقراء إنما هي مسؤولية المجتمع بأسره وتتعلق بالمصلحة العامة (communem utilitatem) لا غير.

الفصل 18

فيما يتعلق بقبول الحسنات وعرفان الجميل، لا يد من مراعاة أمور أخرى؛ راجع في هذا الصدد حاشية القضية 70 وحاشية القضية 71.

الفصل 19

العشق (Amor meretricius)، أعني رغبة التئناسل التي يستثيرها الشكل الجميل، وعموما كل عشق يقوم على شيء آخر غير حرية النفس، إنما يتحول بسهولة إلى كراهية؛ لكن الأسوأ من ذلك أن يكون العشق ضربا من التهيان، بحيث تكون الغلبة للشقاق على الوفاق؛ انظر حاشية القضية 31، الجزء III.

الفصل 20

أما الزواج، فلا شك أنه يكون موافقا للعقل إذا كانت رغبة الجماع لا يستثيرها الجمال فحسب، وإنما تستثيرها أيضا الرغبة في إنجاب الأطفال وتربيتهم تربية حسنة (sapienter)، وإذا كان، علاوة على ذلك، حب أحدهما للآخر، أعني حب الرجل والمرأة، يقوم على حرية النفس، لا على الجمال فحسب.

الفصل 21

التملق أيضا يؤكّد الوئام، لكن مع رجاسة العبودية أو النية السيئة؛ إذ لا أحد ينخدع بالتملق أكثر من المزهو الذي يريد أن يكون في الطليعة، بينما هو ليس كذلك.

الفصل 22

يبدو الاستخفاف بالذات (Abjectioni) قائما في ظاهره الزائف على

الأخلاق والدين؛ ورغم أن الاستخفاف بالذات مقابل للزهو، والذي يستخف بنفسه إنما هو مع ذلك قريب جداً من الزهو. راجع حاشية القضية 57.

الفصل 23

وعلاوة على ذلك فإن الخجل (Pudor) لا يسهم في الرثام إلا من جهة الأمور التي لا يمكن أن تبقى مستورة. ومن جهة أخرى، لما كان الخجل ضرباً من الحزن، فلا علاقة له بتشاطط العقل.

الفصل 24

تتناقض مشاعر الحزن الأخرى إزاء البشر بصورة مباشرة مع العدل والإنصاف والشرف والأخلاق والدين؛ ورغم أن الاستياء (Indignatio) يظهر بمظهر الإنصاف فإن المكان الذي يُسمح فيه لكل شخص بالحكم على غيره ويأثّر لنفسه أو للآخرين إنما يفتقر إلى القوانين المنتظمة للحياة.

الفصل 25

إن التواضع (Modestia)، أعني الرغبة في نيل إعجاب الآخرين بوصفها رغبة يحدّها العقل، ينتسب إلى الأخلاقية (كما قلنا في الحاشية الأولى للقضية 37). لكن إذا كانت هذه الرغبة متولّدة عن انفعال ما، فإن التواضع هو الطمّوح، أي أنه رغبة تدفع البشر غالباً إلى بذل الشقاق والحضّ على التمرد تحت ستار الأخلاقية. وفعلاً، إن الذي يرغب في مساعدة الآخرين

بنصائحه أو أعماله من أجل الفوز بها والتمتع بها بالخير
الاعظم سيسمى قبل كل شيء إلى الفوز بوثهم، لا إلى استئثار إعجابهم
طمعا في اقتران اسمه بذهب ماء، ولا إلى القيام بها من شأنه أن يولد فيهم
الشعور بالحسد، فهو سيتجنب، في المناقشات، ذكر عيوب الناس وسيحدث
بتحرز عن عجزهم، وبإسهاب عن فضيلة الإنسان أو قوته وعن سبل
اكتمالها؛ وبهذه الصورة سيدأب الناس على العيش، يقدر ما لهم من قوة، وفقا
لقواعد العقل، لا خوفا أو نفورا من شيء ما وإنما بدافع الشعور بالفرح
فحسب.

الفصل 26

باستثناء البشر، لا معرفة لنا في الطبيعة بأي شخص قادر على إمقاعتها
بفكره ونستطيع أن نقيم معه علاقات صداقة أو أي نوع آخر من
العلاقات الاجتماعية؛ وانطلاقا من هذا الاعتبار فإن قاعدة المنفعة الخاصة
لا تقتضي منا أن نحافظ على ما يوجد في الطبيعة، باستثناء
البشر؛ إلا أن هذه القاعدة تُحوّل لنا المحافظة على الكائنات الطبيعية من
أجل استغلالها بشتى الطرق، أو تحطيمها، أو تسخيرها لصالحنا بكل الطرق
الممكنة.

الفصل 27

أهم ما تفيد به الأشياء الخارجية - فضلا عن الخبرة والمعرفة المكتسبتين
عن طريق ملاحظة هذه الأشياء وعن التحولات التي تطرأ عليها - هو حفظها
للجسد؛ ولهذا السبب فإن الأشياء النافعة هي قبل كل شيء تلك التي تستطيع
أن تغذي الجسم وأن تمنّيه بما يسمح لجميع أجزائه بتأدية وظائفها على

أحسن وجهه، ذلك أنه كلما كان الجسم قادراً على التأثر بطرق مختلفة وعلى التأثير في الأجسام الخارجية بعدد كبير جداً من الأوجه، كانت النفس قادرة على التفكير (القضيتان 38 و39). لكن يبدو أن الأشياء من هذا النوع قليلة جداً في الطبيعة، وعلى ذلك فإنّ تغذية الجسم كما ينبغي تتطلب بالضرورة أطعمة عديدة ومتنوعة. فالجسم البشري يتركّب من عدد كبير جداً من الأجزاء، وهي من طبائع مختلفة وتحتاج باستمرار إلى أغذية متنوعة حتى يكون الجسم قادراً بأكمله على كل ما يمكن أن ينتج عن طبيعته وحتى تكون النفس، تبعاً لذلك، قادرة هي الأخرى على تصوّر أشياء عديدة.

الفصل 28

لكن تكاد قوى الفرد أن تكون غير كافية للحصول على هذه الأشياء الضرورية إن لم يقمّ البشر بعضهم إلى بعض خدمات متبادلة، ولا شك أنّ المال قد أصبح الأداة التي تسمح باقتناء جميع الأشياء - فهو خلاصة (Compendium) الثروات - لدرجة أن التفكير فيه يشغل العامة أكثر من أيّ شيء آخر، إذ لا يمكن تصوّر أيّ نوع من الفرح دون أن يكون مقترناً بفكرة المال كحالة.

الفصل 29

بيد أن ذلك لا يُعتبر عيباً إلاّ عند أولئك الذين يسمعون إلى كسب المال، لا لسدّ حاجياتهم وتوفير ضروريات الحياة، وإنما لكونهم تعلّموا فنّ الإثراء بضروريه المختلفة وأصبحوا يفتخرون بذلك. فلا شك أنّهم يغتوّن أجسامهم كما تعرّوا على ذلك، لكن بتقدير شديد، ظلّا منهم أنّهم يضيعون أملكهم بقدر ما ينفقونها على حفظ أجسامهم. أمّا الذين يعلمون ما هي

وظيفة المال الحقيقية ويقيسون ثروتهم على حاجياتهم لحسب، فإنهم يعيشون مقتنعين بالقليل.

الفصل 30

إنن لما كانت هذه الأشياء التي تساعد أجزاء الجسم على تأدية وظيفتها أشياء حسنة، ولما كان الفرح يتعلل في أن قدرة الإنسان - بوصفه يتكوّن من نفس وجسم - تجد ما يساعدها أو ينميها، فإن كل ما يتسبّب في الفرح ينظر إليه على أنّه خير. بيد أن الغاية من فعل الأشياء ليست أن تولّد فينا الشعور بالفرح، كما أن قدرتها على الفعل ليست موفّقة لصالحنا؛ وأخيرا إن الفرح يتعلّق في معظم الأوقات وبصورة خاصة بجزء واحد من الجسم؛ ولهذه الأسباب (ألّهم إلا إذا تدخل العقل [Ratio] والهمة [Vigilantia]) فإن معظم انفعالات الفرح، وكذلك الرغبات المتولّدة عنها، مفرطة؛ وعندما نكون، علاوة على ذلك، تحت تأثير انفعال ما، فإننا نعطى الأولوية لما يكون حاليا مفتعا، كما أن مثل هذا الشعور لا يسمح لنا بتقدير الأمور المستقبلية. انظر حاشية القضية 44 وحاشية القضية 60.

الفصل 31

وعلى العكس من ذلك، يبدو أن التفكير الخوافي يسلم بأن الخير هو ما يجلب الحزن، والشر هو ما يتسبّب في الفرح. لكن، كما سبق أن قلت (راجع حاشية القضية 40) لا أحد يصرّ عجزى ويؤسي غير الإنسان الحسود. ذلك أنّه كلما كان الفرح الذي نشعر به فرحا أعظم، كان الكمال الذي تنتقل إليه كمالات أعظم، وكنا بالتالي من نوع الطبيعة الإلهية؛ ولا يمكن أبدا للفرح الذي

يُقاس على القاعدة الصحيحة لنفعتنا أن يكون سيئاً. أمّا الذي تقوده الخشية
ويُفعل الخير تحاشياً للشرّ، فهو لا يهتدي بالعقل.

الفصل 32

إلا أن قدرة الإنسان محدودة للغاية، وتتفوق عليها قدرة الأسباب الخارجية
بصورة لا محدودة؛ وعلى ذلك فليس لدينا قدرة مطلقة على تسخير الأشياء
الخارجية لصالحنا. إلا أننا ستواجه بالصبر وبرباطة جأش الأمور المعاكسة لما
تقتضيه مصلحتنا الشخصية إذا ما شعرنا بأننا قد أوقينا مهمتنا وأنه لم يكن
بإمكاننا، بما لدينا من قوة، أن نقاشى تلك الأمور. وأننا جزء من الطبيعة
الكلية التي نخضع لنظامها. إذا أدركنا ذلك بوضوح وتميّن، فإن ذلك الجزء
الذي ينتمي إلينا، وهو الفهم (intelligence)، أعني أفضل جزء فينا، سيجد
في ذلك الرضى التام وسيعمل على إبقاء هذا الرضى، حقاً، إنه لا يمكننا أن
نرغب من حيث أننا نفهم، إلا في الأمور الضرورية، ولا يمكننا أن نجد رضاً
التام إلا في الحق. وعلى هذا الأساس، فبقدر ما يكون فهمنا لذلك فهماً
صحيحاً، تكون همّة أفضل جزء فينا موافقة لنظام الطبيعة الكلية.

الجزء الخامس

ففي قسوة العقل

أو

ففي حرية الإنسان

تمهيد

أنتقل أخيراً إلى هذا الجزء من علم الأخلاق حيث يتعلّق الأمر بالطريقة الموصلة إلى
الحرية أو السبيل إليها ، سأتناول بالبحث إذن قوّة العقل (potentia Rationis) ، مبيّناً ما يقدر
عليه العقل ذاته ضدّ الإنفعالات، ثمّ ما المقصود بحريّة التّفكير أو الغبطة؛ ومن هذا المنطلق.

سنستبين كم تفوق قدرة الحكيم قدرة الجاهل. أما عن كيفية السمو بالذهن (Intellectus) إلى مستوى الكمال والسبيل إلى ذلك فهي أمور لا تهتم كتابتنا هذا، كما لا يهمنا أيضا فن رعاية الجسم بطريقة تسمح له بتأدية وظائفه على أحسن وجه؛ فهذه المسألة من مشمولات الطب، والأخرى من مشمولات المنطق. لن أتناول إذن هنا بالدرس، كما قلت، غير قوة النفس، أعني غير قوة العقل (Rationis)، وسأبين باديء ذي بدء ما للنفس من سلطان على الانفعالات وما طبيعة هذا السلطان. وما هي قدرتها على كبحها والتحكم فيها؛ فنحن قد أثبتنا سابقا أننا لا نملك سلطانا مطلقا على هذه الانفعالات، وإذا رأى الروائيون عكس ذلك، أي أنها تخضع تماما لإرادتنا وأنه يوسعنا التحكم فيها، فإن امراضات التجربة، لا مبادئهم الخاصة، قد أرغمتهم على الاعتراف بأن قمع الانفعالات والتحكم فيها يقتضي بالضرورة تدريباً ومراساً شديدين. ولقد جدّ أحدهم في إثبات ذلك بالاعتماد على مثال كليين اثنين (إذا كانت ذاكرتي جيدة)، أولهما داجن والآخر مربّ على الصيد؛ فبالترتيب يمكن أن يتعود الكلب الداجن على الصيد، بأن يكفّ كلب الصيد عن مطاردة الأراقب البرية. وقد يلقي مثل هذا الرأي حظوة عظيمة عند نيكارت، لأن هذا الأخير يسلم بأن النفس أو الفكر متحد خاصة بجزء معين من المخ، هو تلك الغدة التي يطلق عليها اسم الغدة الصنوبرية؛ فمن طريقها تشعر النفس بكل الحركات التي تحدث في الجسم، وبالأجسام الخارجية أيضا، كما يمكن للنفس أن تحركها، بمحض إرادتها، في اتجاهات مختلفة. وتتدلى هذه الغدة الصغيرة، في رأيه، وسط المخ، بحيث نستطيع أن ندفعها أقل حركة من حركات الأرواح الحيوانية. ثم إن هذه الغدة المتدلية وسط المخ تتخذ أوضاعا مختلفة باختلاف طرق اصطدام الأرواح الحيوانية بها، فضلا عما ينطبع فيها من آثار مختلفة باختلاف الأجسام الخارجية التي تلمع نحوها الأرواح الحيوانية؛ وعلى ذلك فإذا ما اتخذت الغدة فيما بعد، وفقا لإرادة النفس التي تحركها بطرق مختلفة، هذا الوضع أو ذاك الذي اتخذته سابقا، تمتثل الأرواح الحيوانية المهتزة هي الأخرى بطرق مختلفة، فإنها ستندفع هذه الأرواح وتوجهها بنفس الطريقة التي رُفوا بها لما كانت الغدة متخذة نفس الوضع. وملاوة على ذلك فإن الطبيعة قد قوت كل إرادة من إرادات النفس بحركة معينة من حركات الغدة. فإذا أردنا مثلا النظر إلى جسم بعيد فإن هذه الإرادة ستجعل البؤبؤ يتوسّع؛ لكن إذا فكرنا فقط أنه ينبغي على البؤبؤ أن يتوسّع، فإن لا

جئى من هذه الإرادة، لأن الطبيعة لم تقرر بين حركة الغدة التي تنفع الأرواح الحيوانية في اتجاه العصب البصري بشكل يسمح بتوسيع البؤبؤ أو تقلصه، وإرادة توسيع البؤبؤ أو تقلصه، وإنما قرنت قصب بينها وبين إرادة النظر إلى أجسام بعيدة أو قريبة. وأخيراً، رغم ما يبدو من أن الطبيعة قد ربطت، منذ بداية حياتنا، بين كل حركة من حركات الغدة التصورية وكل فكرة من الأفكار التي نكوها، إلا أنه يمكن لهذه الحركة أن تقرر، بمقتضى العادة، بأفكار أخرى؛ فهذا ما دأب على إثباته في الفصل 50 من الجزء الأول من *الانفعالات النفس*، حيث يستخلص أن النفس، مهما كان وضعها، لا تكون عاجزة، إذا ما أحكم توجيهها، عن السيطرة على لئعالاتها سيطرة كلية. فالانفعالات، حسب تعويقه، إنما هي "إبراكات، أو مشاعر، أو انفعالات نفسية (*commoniones animes*)، وهي تتعلق بوجه خاص بالنفس، كما أنها (لاحظوا جيداً) * تنتج عن بعض حركات الأرواح التي تدفعها وتقويها" (انظر الفصل 27 من الجزء الأول من *الانفعالات النفس*). لكن لما كان بوسعنا أن نربط بين كل إرادة من إرادتنا وكل حركة من حركات الغدة، وبالتالي كل حركة من حركات الأرواح، ولما كان تمسيد الإرادة متوقفاً على غريتنا وحدها، فإننا، إذا ما حددنا إرادتنا بالاعتماد على أحكام ثابتة ومؤكدة نسعى بفضلها إلى توجيه أعمالنا في الحياة، وإذا ما ضممنا إلى هذه الأحكام حركات الانفعالات التي نريدها، فإننا سنكتسب سلطة مطلقة على انفعالاتنا. هذا هو رأي ذلك الرجل الشهير (حسب ما فهمته من أقواله)؛ ولو كان هذا الرأي أقل توقلاً لصعب عليّ التصديق بقله صابر عن مثل هذا الرجل العظيم. وفي الحقيقة لا يسعني إلا أن أعرب عن دهشتي من هذا الفيلسوف الذي أقرّ القزم على ألا يستنبط شيئاً من غير المبادئ المعطومة بذاتها، وألا يثبت شيئاً غير ما يدرکه بوضوح وتميز، والذي ظالمًا صاب على المتوسمين تفسيرهم للأمور الغامضة بصفات خفية، والحال أنه يستلم يفرضية أخفى من كل صفة خفية. لماذا يقصد، يا ترى، باتحاد النفس بالجسم؟ وما هو تصوّره الواضح والمتميز لفكر شديد الارتباط بجزء صغير من الامتداد؟ كلت أتعنى لو فسّر هذا الاتحاد بعلمته

* الملاحظة بين القوسين لسبينوزا.

القريبة، إلا أنه تصور النفس متميزة عن الجسم، فلم يفلح في تميعن أية حلة جزئية لا للاتحاد ولا للنفس ذاتها، فتمتم عليه اللجوء إلى حلة الكون بأكمله، وهو الله، وأودع علوة على ذلك، أن أعلم كم هي درجات الحركة التي يمكن للنفس أن تطيعها في تلك الغدة المصنوبرية، وبأي قوة تمسكها متدلية. فلنا لا أعلم حقاً ما إذا كانت النفس تحرك هذه الغدة من هنا وهناك بأكثر ببطء أو بأكثر سرعة من تحريك الأرواح الحيوانية لها، وما إذا كانت حركات الانفعالات التي أوثقنا ربطها بالأحكام الثابتة لا يمكن أن تفصلها عنها أسباب جسمية، بحيث أنه، بعد العزم على الإقدام على المخاطر، وبعد تدعيم هذا القرار بحركات جريئة، قد تكون الغدة، عند مواجهة الخطر، متدلية بطريقة تجعل النفس لا تستطيع التفكير في غير الهروب؛ ولما كان لا يوجد، بكل تأكيد، أي وجه للمقارنة بين الإرادة والحركة، فلا سبيل للمقارنة بين قوة - أو قوى - النفس وقوة الجسم؛ وبناء على ذلك فإنه لا يمكن لقوى الجسم أن تُحددها قوى النفس. هذا فضلاً عن كوننا لا نعثر على أية غدة قائمة وسط المخ بحيث تستطيع أن تُفزع من هنا أو هناك بمثل هذه السهولة ويمثل هذه الطرق، كما أنه لا تعتد جميع الأعصاب إلى تجويفات المخ، وأخيراً إنني أترك جانباً كل ما يؤكد بىكاريت عن الإرادة وحريتها، لأنني أسهبت بما فيه الكفاية في إثبات بطلان قوله. وعلى ذلك، لما كان ما يُعرف النفس هو، كما بينت أعلاه، ما تتضمنه من معرفة فحسب، فإننا سنحدد علاج الانفعالات - ذلك العلاج الذي يختبره الجميع، إلا أنهم لا يعبرونه العناية الكافية ولا يدركونه بوضوح - من خلال معرفة النفس لا غير، ومنستعجب من ذلك كل ما يتعلق بالقبطة.

بسيهيات

I - إذا ما نشأ فعلان متضادان داخل نفس الذات، فلا بد أن يطرأ بالضرورة تغير على كلا الفعلان أو على أحدهما دون الآخر، حتى يزول تضادهما.

II - تتحدد قوة الملول بقوة عتته، بقدر ما تتحدد ماهيته أو تُعَلَّل بماهية عتته.

هذه البديهية يقينية بالنظر إلى القضية 7، الجزء 113.

القضية 1

بقدر ما تكون أفكار (*cogitationes*) الأشياء وصورها الذهنية (*ideae*) منظمّة ومترابطة في النفس، تكون انفعالات الجسم، أعني صور (*imagines*) الأشياء، على نفس النظام والترابط في الجسم.

البرهان

إنّ نظام الأفكار وترابطها هو عينه نظام الأشياء وترابطها (القضية 7، الجزء III)، والمكس بالمكس، أي أنّ نظام الأشياء وترابطها هو عينه نظام الأفكار وترابطها (لازمة القضية 6 ولازمة القضية 7، الجزء III)، وعليه فكما أنّ نظام الأفكار وترابطها في النفس يوافقان نظام انفعالات الجسم وترابطها (القضية 18، الجزء II)، فبالمكس أيضاً (القضية 2، الجزء III) يوافق نظام انفعالات الجسم وترابطها نظام أفكار الأشياء وصورها الذهنية وترابطها في النفس.

القضية 2

إذا فصلنا تآثراً أو انفعالا (*commotionem seu affectum*) نفسياً عن فكرة علّة خارجية وربطناه بأفكار أخرى، فإنّ حبّ العلّة الخارجية أو كرهها سيزول، كما تزول تقلّبات النفس الناجمة عن هذين الانفعالين.

البوهان

فعلا، إنَّ ما يكون صورة الحبّ أو الكراهية هو الفرح أو الحزن المصحوب بفكرة عنّة خارجية (التعريفان 6 و7 للانفعالات). وعليه فنزول هذه الفكرة نزول صورة الحبّ أو الكراهية؛ وتبعاً لذلك سينزل هذان الانفعالات وتزول الانفعالات المتولدة عنهما.

القضية 3

الانفعال (*Affectus*) الذي يكون انفعالاً سلبيّاً (*passio*) إنّما ينزل بوصفه كذلك حالما نكوّن عنه فكرة واضحة متميّزة.

البوهان

الانفعال الذي يكون انفعالاً سلبيّاً هو فكرة مختلطة (التعريف العام للانفعالات). وعليه فإن نحن كوّنّا عن هذا الانفعال فكرة واضحة متميّزة فإنّه لن يوجد بين هذه الفكرة والانفعال ذاته، من حيث علاقته بالنفس وحدها، غير تمييز عقلي (*ratione distinguetur*) (القضية 21، الجزء II، وحاشيتها)؛ وبهذه الصورة لن يبقى الانفعال انفعالاً سلبيّاً.

لازمة

تكون قدرتنا على الانفعال أعظم وتكون النفس أقلّ تأثراً به بقدر ما يكون هذا الانفعال معلوماً لدينا.

القضية 4

ليس من انفعال جسماني إلا ونستطيع أن تكون عنه مفهوماً (conceptum) واضحاً متميزاً.

السبب

إن ما يكون مشتركاً بين جميع الأشياء لا يمكن تصوّره إلا على نحو تامّ (adaequare) (القضية 38، الجزء II)؛ وبالتالي (القضية 12 والمخوذة 2 الآتية بعد حاشية القضية 13، الجزء II) فليس من انفعال جسماني إلا ونستطيع أن تكون عنه مفهوماً واضحاً متميزاً.

لازمة

يترتب على ذلك أنه ليس من انفعال من انفعالات النفس إلا ونستطيع أن تكون عنه مفهوماً واضحاً متميزاً؛ ذلك أن انفعال النفس هو فكرة انفعال الجسم (التعريف العام للانفعالات)، ولا بدّ له بالتالي (القضية السابقة) من الانتواء على مفهوم واضح متميز.

حاشية

لما كان ما من شيء إلا ولزم عنه معلول ما (القضية 36، الجزء I)، ولما كنّا نعرف بوضوح وتميّز (القضية 40، الجزء II) كلّ ما ينتج عن الفكرة التي تكون تامة لدينا، فإنه يترتب على ذلك أن كلّ شخص يستطيع أن يعرف نفسه وأن

يعرف انفعالاته، إن ليس على وجه الإطلاق، فعلى الأقل بصورة جزئية ووضوح وتميز، بحيث يكون أقل سلبية (minus patitur). ينبغي إذن أن نعمل على تحقيق ذلك بوجه خاص، وأن ندأب قدر الإمكان على معرفة كل أفعال بوضوح وتميز، بحيث يتمين على النفس أن تفكر، بدافع من كل أفعال، فيما تدركه بوضوح وتميز، فتجد في ذلك الرضى التام (plane acquiescit) وهذه الصورة ستفصل الانفعال ذاته عن فكرة علة خارجية ويقترن بالفكر صحيحة. وعلى هذا الأساس سيزول الحب والكراهية إلخ (القضية 2)، بل إن الشهوة أيضا والرغبات التي تنشأ عادة عن ذلك الانفعال لن يكون فيها إفراط (القضية 61، الجزء IV). ذلك أنه ينبغي، قبل كل شيء، ملاحظة أن الإنسان يقال فاعلا أو منفعلا بالنظر إلى نفس الشهوة لا غير. فنحن قد بينا مثلا أن كل امرئ يرغب بمقتضى استعداد طبيعي في البشر، أن يعيش الآخرون وفقا لطبيعته الخاص (حاشية القضية 31، الجزء III)؛ فهذه الرغبة هي، عند الإنسان الذي لا يسترشد بالعقل، انفعال (passio) يطلق عليه انفعال الطموح، وهو لا يختلف كثيرا عن الزهو؛ وعلى العكس من ذلك، فهذه الرغبة عند الإنسان الذي يهتدي بالعقل إنما هي فعل (actio)، أعني أنها فضيلة (virtus) يطلق عليها اسم الأخلاقية (Pietas) (انظر الماشية 1 للقضية 37، الجزء IV، والبرهان 2 لنفس القضية). وعلى هذا الاعتبار فإن جميع الشهوات أو الرغبات انفعالات سلبية (passiones) من جهة كونها تتولد عن أفكار غير تامة. وينظر إلى نفس هذه الرغبات على أنها فضائل عندما تستثيرها أو تولدها أفكار تامة. ذلك أن جميع الرغبات التي تدفعنا إلى القيام بشيء ما قد تنشأ عن أفكار تامة أو عن أفكار غير تامة على حد سواء (القضية 59، الجزء IV). والرجوع إلى نقطة البداية التي ابتعدت عنها بهذا الاستطراد، فإننا، إذا ما استثنينا ذلك العلاج للانفعالات الذي يتمثل في المعرفة الصحيحة (vera cognitione)، لن نستطيع تصور أي علاج أفضل منه يكون بمقدورنا، لأن قدرة النفس الوحيدة هي القدرة

على التفكير وعلى تكوين أفكار تامة لا غير، مثلما بينا أعلاه (القضية 3، الجزء III).

القضية 5

الانفعال الذي نشعر به نحو شيء نتخيله ببساطة، أي نحو شيء لا نتخيله ضرورياً أو ممكناً أو حادثاً، إنما يكون، عند تكافؤ جميع الأمور، أشد من أي انفعال آخر.

البرهان

يكون الانفعال الذي نشعر به نحو شيء نتخيله حراً أشد من الانفعال الذي نشعر به نحو شيء ضروري (القضية 49، الجزء III)، وبالتالي أشد من الانفعال الذي نشعر به نحو شيء نتخيله ممكناً أو حادثاً (القضية 2، الجزء IV). لكن تخيلنا لشيء ما على أنه حر ليس معناه غير أننا نتخيله ببساطة، باعتبار أننا نجهل الأسباب التي تدفعه إلى إنتاج معلول ما (بناءً على ما بيناه في حاشية القضية 35، الجزء II)؛ إذن يكون الانفعال الذي نشعر به نحو شيء نتخيله ببساطة، عند تكافؤ جميع الأمور، أشد من الانفعال الذي نشعر به نحو شيء ضروري أو ممكن أو حادث، وهو على ذلك أشد من أي انفعال آخر.

القضية 6

بقدر ما تدرك (intelligis) النفس الأشياء كلها على أنها

ضرورية، تكون قدرتها على الانفعالات أعظم، أي أن خضوعها لها يكون أقل.

البروهان

تدرك النفس أن الأشياء كلها ضرورية (القضية 29، الجزء I) وأنه يتحتم على هذه الأشياء أن توجد وتنتج معلولا ما عن طريق سلسلة لا محدودة من العلل (القضية 28، الجزء I)؛ وعليه (القضية السابقة) فبقدر معرفة النفس للأشياء يكون خضوعها للانفعالات المترتبة على هذه الأشياء أقل، ويكون (القضية 48، الجزء III) تأثرها بالأشياء ذاتها أقل.

مناقشة

كلما تعلقت هذه المعرفة (cognitio) - معرفة أن الأشياء ضرورية - بأشياء جزئية، وكلما كان تخيلنا لهذه الأشياء واضحاً وشديداً، كانت قسرة النفس على الانفعالات أعظم؛ فالتجربة نفسها تثبت ذلك، فنحن نرى فعلاً أن الحزن الذي يتسبب فيه ضياع خير من الخيرات سرعان ما تنقص حدته إذا ما اعتبرنا فقد هذا الخير أنه لم يكن بوسع الاحتفاظ به بأي وجه من الوجوه. وفي نفس السياق، لا أحد يشفق على طفل صغير لكونه لا يحسن الكلام والمشي والتفكير، وكونه يعيش سنوات عديدة لا يكاد فيها يعي ذاته، لكن لو كان معظم الناس يولدون راشدين، بينما يولد هذا أو ذاك طفلاً، لجاز الإشفاق على الأطفال لأنه سيُنظر إلى الطفولة على أنها عيب أو خطأ من أخطاء الطبيعة، لا على أنها أمر طبيعي وضروري. ووسعنا القيام بملاحظات كثيرة من هذا القبيل.

القضية 7

تكون الانفعالات المتولدة من العقل أو التي يستثيرها العقل
أعظم، من منظور الزمان، من الانفعالات المتعلقة بالأشياء الجزئية
التي نعتبرها غائبة.

البرهان

لا نعتبر شيئاً من الأشياء غائبا انطلاقاً من الانفعال الذي يجعلنا
نتخيله، وإنما لكون الجسم يشعر بانفعال آخر يُقصي وجود هذا الشيء
(القضية 17، الجزء II). لذلك فإنّ الانفعال المتعلق بالشيء الذي نعتبره غائبا
ليس من طبيعة تسمح له بالتفوق على أفعال الإنسان الأخرى وعلى قدرته
(راجع في شأنها القضية 6، الجزء IV)، بل هو، على العكس من ذلك، من
طبيعة تسمح بإعاقته بوجه ما من قبل الانفعالات التي تُقصي وجود علته
الخارجية (القضية 9، الجزء IV). لكنّ الانفعال المتولد من العقل يتعلّق
بالضرورة بالخصائص المشتركة للأشياء (راجع تعريف العقل في
الحاشية الثانية للقضية 40، الجزء II) التي نعتبرها دائماً حاضرة (إذ لا
يوجد ما يمكن أن ينفي وجودها الحاضر) والتي نتخيلها دائماً بنفس
القوى (القضية 38، الجزء II). لذلك يبقى مثل هذا الانفعال هو هو على
الدوام، وبالتالي فإنّ الانفعالات المناقضة له والتي لا تدعمها حللها
الخارجية سيتحتّم عليها (البدئية 1) التكيف معه أكثر فأكثر إلى أن يزول
تناقضها معه؛ وعلى هذا الأساس يكون الانفعال المتولد من العقل انفعالاً
أعظم.

القضية 8

كلّما كانت العلل التي تُسهم معاً في استثارة انفعال من الانفعالات أكثر عدداً، كان هذا الانفعال انفعالا أعظم.

البرهان

تستطيع علل كثيرة مع بعضها أكثر ممّا تستطيع علل أقلّ (القضية 7، الجزء III)؛ وبالتالي (القضية 5، الجزء IV) فكّما كانت العلل التي تستثير معاً انفعالا من الانفعالات أكثر عدداً، كان هذا الانفعال انفعالا أعظم.

مناقشة

هذه القضية بديهية أيضاً من خلال البديهية 2.

القضية 9

الانفعال الذي يتعلّق بعلل مختلفة كثيرة والتي تتأمله النفس ويتأمل علله معاً، إنّما تكون مضمرته أقلّ، ويكون تأثرنا به أقلّ، كما يكون تأثرنا بكلّ واحدة من علله تأثراً أقلّ ممّا لو كان الأمر يتعلّق بانفعال آخر لا يقلّ عنه شدة وينتسب إلى علّة واحدة أو إلى عدد أقلّ من العلل.

البرهان

لا يكون الانفعال سيئاً أو ضاراً إلا بقدر ما يعوق النفس عن التفكير (القضيتان 26 و27، الجزء IV)؛ وعليه فإنّ تلك الانفعال الذي يدفع النفس إلى اعتبار أشياء كثيرة معا يكون أقلّ مضرّة من انفعال آخر له نفس الشدّة ويستوقف نظر النفس إلى شيء واحد أو إلى عدد أقلّ من الأشياء، فلا تستطيع التفكير في غيرها؛ كانت هذه النقطة الأولى، وعلاوة على ذلك، لما كانت ماهية النفس، أعني قوتها (القضية 7، الجزء III)، تتمثل في التفكير فحسب (القضية 11، الجزء II)، كان تأثرها بالانفعال الذي يجعلها تعتبر أشياء متعدّدة أقلّ من تأثرها بالانفعال الذي له نفس الشدّة ولا يترك النفس تهتمّ بغير شيء واحد أو عدد أقلّ من الأشياء؛ كانت هذه النقطة الثانية. وأخيراً يكون هذا الانفعال (القضية 48، الجزء III)، من جهة تعلّقه بعامل خارجية كثيرة، أقلّ شدّة إزاء كلّ واحدة منها.

القضية 10

طالما لم تقهرنا انفعالات مناقضة لطبيعتنا، كان بمقدورنا تنظيم انفعالات الجسم وترتيبها وفق نظام ملائم للذهن (*ad intellectum*).

البرهان

الانفعالات المناقضة لطبيعتنا، أي (القضية 30، الجزء IV) السيئة، إنّما هي سيئة بقدر ما تعوق النفس عن المعرفة (القضية 27، الجزء IV)، وعليه

فطالما لم تقهرنا انفعالات متناقضة لطبيعتنا، كانت قوة النفس، التي تدأب بها على المعرفة، بدون ملأق (القضية 26، الجزء IV)، وكانت لها القدرة على تكوين أفكار واضحة متميزة وعلى استنباط بعضها من بعض (انظر الحاشية 2 للقضية 40، وحاشية القضية 47، الجزء II)؛ وكانت لنا، تبعاً لذلك، القدرة على تنظيم انفعالات الجسم وترتيبها وفق نظام ملائم للذهن.

حاشية

إننا نستطيع، بهذه القدرة على التنظيم والترتيب المُحكَّمين لانفعالات الجسم، أن نمنع الانفعالات السيئة من أن تؤثر فينا بسهولة. ذلك أن (القضية 7) إِمَاقَة الانفعالات المنظمة والمرتببة وفق نظام ملائم للذهن تتطلب قوة أعظم مما لو كانت هذه الانفعالات مضطربة ومجتملة. إذن فالأفضل ما يمكن أن نقوم به، طالما لم نكتسب معرفة كاملة بانفعالاتنا، هو أن نتصور سلوكنا مستقيماً للحياة، أعني مبادئ ثابتة للسلوك، وأن نحفظها في ذاكرتنا ونطبّقها باستمرار على الأمور الجزئية التي تعترضنا غالباً في الحياة، بحيث تكون مخيلتنا متأثرة جداً بهذه المبادئ، وتكون هذه الأخيرة دائماً تحت تصرفنا. فحين قد وضعنا مثلاً، من بين قواعد الحياة (القضية 46، الجزء IV، وحاشيتها)، أنه ينبغي التغلب على الكراهية بالحب والمروءة، لا أن نقابلها بالكراهية. ولكي تكون هذه القاعدة العقلية دائماً تحت تصرفنا عند الحاجة، يجب التفكير باستمرار في الإهانات التي يُسببها الناس عادة لبعضهم لبعض، والتفكير في أفضل السبل والوسائل التي تسمح باستبعادها بالمروءة؛ وبهذه الصورة سنربط صورة الإهانة بتخيّل تلك القاعدة، فلن تغيب هذه الأخيرة عنا أبداً (القضية 18، الجزء II) كلّما وقعت إِمَاقَتنا. ولو أنعمنا النّظر أيضاً في مصلحتنا

الحقيقية ولهي الخير الذي يمكن أن نجنيه من الصداقة المتبادلة ومن
 المعاشرة، ولو تدكرنا، فضلا عن ذلك، أن أعظم انبساط تعرفه النفس إنما
 ينشأ عن السلوك المستقيم في الحياة (القضية 52، الجزء IV)، وأن البشر
 يتصرفون، مثل بقية الكائنات، بمقتضى الضرورة الطبيعية، لما شغلت
 الإهانة، أعني الكراهية المتولدة منها عادة، أكثر من جانب حقير من مخيلتنا
 وأسوّف علينا تذييلها؛ أو لو كان الغضب - الذي ينشأ في الغالب عن أكبر
 الإهانات - لا يمكن تجاوزه بنفس السهولة، لأصبح ذلك ممكنا (لكن بونما
 قضاء على تقلبات النفس) في زمن أقل بكثير مما لو كانت أنفسنا لم
 تتشغل من قبل بتلك التأمّلات، مثلما نتبين ذلك من خلال القضايا 6 و7
 و8، وفي نفس السياق، ينبغي التفكير في استخدام رباطة الجأش من أجل
 القضاء على الخوف؛ فلا بد من استعراض مخاطر الحياة العامة ومن
 تخيلها والتفكير في أفضل سبل استبعادها وتذليلها بحضرة الطبيعة وقوة
 النفس. لكن تجدر الإشارة إلى ضرورة الانتباه، أثناء تنظيمنا لأفكارنا
 وتصوراتنا (لازمة القضية 63، الجزء IV، والقضية 59، الجزء III)، إلى ما
 يتضمنه كل شيء من خير، حتى يكون الشعور بالفرح هو المحدّد
 لأفعالنا على الدوام. فمثلا إن اتّضح لشخص ما أنّه شديد التعلّق بالمجد،
 فليفكر في حسن استعماله وفي الغاية منه وسبل الفوز به، لا في سوء
 استخدامه وعدم جنواه وتقلّب البشر، أو في أمور أخرى من هذا
 القبيل، وهي أمور لا يمكن التفكير فيها بون شيء من الحسرة؛ فمثل
 هذه الأفكار تُحرّن أشدّ الناس تعلّقًا بالطموح، لا سيّما إذا ما ينسوا من
 بلوغ المجد الذي ينشئونه، فتجدهم يتظاهرون بالحكمة في حين أنّهم
 يستشيطنون غضبا، فلا شك إذن أن أولئك الذين يتحدثون بأعلى صوتهم
 عن سوء استعمال المجد وعن أباطيل العالم هم أكثر الناس تشوّقا
 للمجد. وليس هذا السلوك خاصا بأصحاب الطموح بون غيرهم، بل هو شأنع
 بين جميع أولئك الذين لا يساعدهم الحظ ويصابون بعجز نفسي.

فاليخيل، حتى لو كان فقيراً، لا ينفك يتحدث عن سوء التصرف في المال وعن رذائل الأغنياء، مما يجعله يفتّم ويظهر لغيره استياءه، لا من فقره فحسب، بل أيضاً من ثراء الآخرين، أمّا أولئك الذين لا تحسن عشيقتهم استقبالهم، فهم لا يفكرون إلا في قلب النساء ومداهنتهن، وفيما تقوله الأغنية عن رذائلهن، وهي أمور سرعان ما تنسى حالما تفتح لهم عشيقتهن حضنها.

وهكذا فإن من يدأب على التحكم في انفعالاته وشهواته وفقاً لحب الحرية لا غير سيبذل قصارى جهده من أجل معرفة الفضائل وعقلها ومن أجل أن ينعم بالانبساط التام الذي ينشأ عن المعرفة الصحيحة، لا من أجل تملك رذائل البشر والخط من الإنسانية والابتهاج بحرية زائلة، فمن يسهر على احترام هذه القاعدة (وليس هذا بالأمر العسير) ويتدرب عليها سيبصق قادراً، بلا شك، في مدة قصيرة، على توجيه أفعاله وفقاً لأمره به العقل.

القضية 11

كلما تعلقت صورة ما (imago) بأشياء أكثر، كانت هذه الصورة أكثر تواتراً، أعني كانت غالباً متجددة وشاغلة للفكر.

السبرهسان

فعلاً، كلما تعلقت صورة ما، أو انفعال ما، بأشياء أكثر، كانت الملل التي تستثيرها وتدعمها عللاً أكثر، وهي تلك تتأملها النفس جميعاً (حسب الافتراض) بمقتضى الانفعال نفسه؛ وهكذا فإن الانفعال يكون أكثر تواتراً، أعني أنه يكون غالباً متجدداً (والقضية 8) شاغلاً للفكر.

القضية 12

تَقْتَرِنُ صُورُ الْأَشْيَاءِ (*Rerum imagines*) بِصُورِ أَشْيَاءٍ نَدْرِكُهَا
بوضوح وتميز بأكثر سهولة من اقترانها بالصُّور الأخرى.
أَلْبِرْهَان

الأشياء المدركة بوضوح وتميز إما هي الخصائص العامة للأشياء وإما هي
الخصائص المستنبطة منها (راجع تعريف العقل في الحاشية 2 للقضية
40، الجزء II)، وبالتالي (القضية السابقة) فهي غالباً ما تقع تحت خيالنا؛
فمن الأسهل إذن أن تتأمل الأشياء الأخرى أثناء تأملنا لها، وعلى ذلك
(القضية 8، الجزء II) فإن اقتران الأشياء الأخرى بها يكون أسهل من
اقترانها بغيرها.

القضية 13

كَلَّمَا اقْتَرِنَتْ صُورَةٌ مِنَ الصُّورِ بِأَشْيَاءٍ أَكْثَرُ، كَانَتْ غَالِبًا
مُتَجَلِّدَةً.

أَلْبِرْهَان

فعلاً، كلما اقترنت صورة من الصُّور بأشياء أكثر، كانت العلة (القضية
18، الجزء II) القادرة على استثارها عللاً أكثر.

القضية 14

يمكن للنفس أن تتصرف بشكل يجعل جميع انفعالات الجسم، أي جميع صور الأشياء، تتعلق بفكرة الله.

البرهان

لا يوجد أي انفعال جسماني لا تقدر النفس على تصوّره بوضوح وتمييز (القضية 4)؛ فالنفس تستطيع إذن (القضية 15، الجزء 1) أن تتصرف بشكل يجعل الانفعالات جميعا تتعلق بفكرة الله.

القضية 15

من كان يعرف ذاته وانفعالاته بوضوح وتمييز إنما هو يحبّ الله، ويزداد حبه هذا بقدر ما تزداد معرفته لذاته وانفعالاته.

البرهان

من يعرف ذاته وانفعالاته بوضوح وتمييز يشعر بالفرح (القضية 53، الجزء III)، ويكون ذلك مقترنا بفكرة الله (القضية السابقة)؛ وبالتالي (التعريف 6 للانفعالات) فهو يحبّ الله (والنفس السبب) يزداد حبه بقدر ما تزداد معرفته لذاته وانفعالاته.

القضية 16

يجب أن يحتلَّ حبَّ الله هذا مكان الصدارة في النَّفس.

البرهان

فعلا، يقتزن هذا الحبَّ بكلَّ انفعالات الجسم (القضية 14) التي تنميه جميعها (القضية 15)؛ وعليه (القضية 11) يجب أن يحتلَّ هذا الحبَّ مكان الصدارة في النَّفس.

القضية 17

ليس للإله انفعالات سلبية (*passionum*)، وهو لا يشعر بأيَّ انفعال من انفعالات الفرح أو الحزن.

البرهان

إنَّ جميع الأفكار، من حيث أنَّها تتعلَّق بالله، صحيحة (القضية 32، الجزء II)، أي أنَّها (التعريف 4، الجزء II) تامة؛ وهكذا (التعريف العام للانفعالات) فليس للإله انفعالات سلبية. وعلاوة على ذلك فإنَّ الله لا يستطيع أن ينتقل إلى كمال أعظم ولا إلى كمال أقلَّ (اللازمة 2 للقضية 20، الجزء I)؛ وبالتالي (التعريفان 2 و3 للانفعالات) فهو لا يشعر بأيَّ انفعال من انفعالات الفرح أو الحزن.

لازمة

إنَّ الله - لو تحدَّثنا بدقَّة - لا يحبُّ ولا يكره أحداً. ذلك أنَّ الله (القضية السابقة) لا يشعر بأيِّ انفعال من انفعالات الفرح أو الحزن، وبالتالي فهو (التعريفان 6 و7 للانفعالات) لا يحبُّ ولا يكره أحداً.

القضية 18

لا أحد يمكنه أن يكره الله.

البرهان

إنَّ فكرة الله التي نحملها فكرة تامة (adaequata) وكاملة (perfecta) (القضيتان 46 و47، الجزء II)؛ وعلى ذلك فإنَّنا نكون فاعلين بقدر ما نتأمَّل الله (القضية 3، الجزء III)، وبالتالي (القضية 59، الجزء III) فلا وجود لأيِّ حزن مقترن بفكرة الله، أي (التعريف 7 للانفعالات) أنَّه لا أحد يمكنه أن يكره الله.

لازمة

لا يمكن أن يتحوَّل حبُّنا لله إلى كراهية.

مُشَيِّعَة

قد يعارضنا بعضهم بالقول: إن كنّا نتصور الله على أنه علّة كلّ الأشياء، فلا متبوعة من اعتباره علّة للحنن، أجيب أنه بقدر معرفتنا لأسباب الحزن، يزول هذا الشعور كأنفعال (القضية 3)، أي (القضية 59، الجزء III) أنه يزول كَحُزْنٍ؛ وبهذه الصورة فإن معرفتنا بأن الله هو علّة الحزن تجعلنا نشعر بالفرح.

القضية 19

من كان يحبّ الله، لا يمكنه أن يسمى (*conari*) إلى أن يبادلّه الله الحبّ.

البوضان

لو كان الإنسان يسعى إلى مثل هذا، لكانت رغبته (لازمة القضية 17) في أن يكون الله، وهو موضوع حبه، ليس هو الله، ولكن يرغب، على هذا الاعتبار (القضية 19، الجزء III) في أن يكون حزينا، وهذا (القضية 28، الجزء III) محال. إذن فمن كان يحبّ الله، إلخ.

القضية 20

إنّ حبّ الله هذا لا يمكن أن يدنسّه (*inquinari*) الشعور بالحسد ولا الشعور بالفيرة؛ بل هو يقوى بقدر ما نتخيل أكثر أشخاصا متحدين بالله بنفس رابطة الحبّ.

السببوسان

إنَّ حُبَّ الله هذا هو الخير الأسمى الذي يمكن أن نتشوق إليه (appetere) وفقاً لما يأمر به العقل (القضية 28، الجزء 17)، وهو مشترك بين الجميع (القضية 36، الجزء 17)، كما أننا نرغب أن ينعم به الجميع (القضية 37، الجزء 17)؛ وعلى ذلك (التعريف 23 للاتفاعلات) فإنه لا يمكن أن يدنس الشعور بالصد ولا (القضية 18، وتعريف الغيرة في حاشية القضية 35، الجزء III) الشعور بالغيرة؛ بل على العكس من ذلك، لا بد أن يقوى يقدر ما نتخيل أن أشخاصاً أكثر ينعمون به.

حاشية

يمكن أن نبين بنفس الطريقة أنه لا يوجد أيّ انفعال مناقض بصورة مباشرة لهذا الحبّ وقاير على القضاء عليه؛ ويمكن أن نستنتج من ذلك أن حبَّ الله هذا هو أكثر الانفعالات بؤماً، وأنه لا يمكنه أن يزول، من حيث أنه يتعلق بالجسم، إلا بزوال الجسم ذاته. وسننظر لاحقاً في طبيعة هذا الحبّ من حيث علاقته بالنفس وحدها.

لقد تحفّضت في القضايا السابقة عن كل أنواع العلاج الخاصة بالانفعالات، أي عن كل ما تستطيعه النفس، منظرها إليها في ذاتها، ضدّ هذه الانفعالات؛ ويبدو من ذلك أن قدرة النفس على الانفعالات تتمثل:

- (1) - في معرفة الانفعالات ذاتها (انظر حاشية القضية 4).
- (2) - في كونها تفصل الانفعالات عن فكرة علة خارجية نتخيلها بصورة مبهمّة (انظر القضية 2 مع نفس حاشية القضية 4).

(3) - في الزمان الذي يجعل الانفعالات المتعلقة بالاشياء التي نعرفها تفوق الانفعالات المتعلقة بالاشياء التي لدينا عنها فكرة غامضة أو مبهورة (انظر القضية 7).

(4) - في تعدد العلة التي تنمي الانفعالات المتعلقة بخصوصيات الاشياء المشتركة أو بالإله (انظر القضيتين 9 و 11).

(5) - أخيراً في النظام الذي تتوخاه النفس في ترتيبها للانفعالات وفي ربط بعضها ببعض (انظر حاشية القضية 10، وأيضاً القضايا 12 و 13 و 14).

لكن لكي نجيد معرفة قدرة النفس هذه على الانفعالات لا بدّ من الإشارة أولاً إلى كوننا نفعت الانفعالات بأنّها شديدة عندما نقارن انفعال إنسان ما بانفعال إنسان آخر ونرى أنّ أحدهما يخضع أكثر من الآخر لنفس الانفعال؛ أو عندما نقارن بين انفعالات نفس الشخص فنجد منفعلاً أو متأثراً ببعضها أكثر من بعضها الآخر، ذلك أنّ (القضية 5، الجزء IV) قوة الانفعال تتحدّد بقدرة العلة الخارجية بالمقارنة مع قدرتنا الخاصة، لكن قدرة النفس تتحدّد بالمعرفة فحسب، وعجزها أو انفعالها السكبي بانعدام المعرفة فحسب، أي أنّ تقدير هذا العجز يكون بالنظر إلى ما يجعل الأفكار تُقال أفكاراً غير تامة، ويترتب على ذلك أنّ النفس تكون منفعلة إلى أقصى حدّ عندما تكون متألفة في معظمها من أفكار غير تامة، بحيث تكون علامتها المميّزة هي الانفعال أكثر من الفعل؛ وعلى العكس، تكون النفس فاعلة إلى أقصى حدّ عندما تكون متألفة في معظمها من أفكار تامة، بحيث تكون علامتها المميّزة - رغم ما تتضمنه من أفكار غير تامة، كالنفس الأولى - هي الأفكار التامة التي تعبّر عن فضيلة الإنسان، لا الأفكار غير التامة التي تدلّ على عجزها.

وتجدر الإشارة، بالإضافة إلى ذلك، إلى أنّ صروف الدهر وهمومه إنّما سببها الرئيسي هو الحبّ المفرط لشيء تطرأ عليه تحولات كثيرة ويتعزّر علينا امتلاكه تماماً، وفعلًا، لا أحد يعتريه القلق أو الحزن إلّا قي

شأن موضوع حبه؛ ولا تنشأ الإمانات والشكوك والعداوات إلا من عشق الأشياء التي لا يستطيع أحد أن يجعلها حقاً بحوزته تماماً. ومن هنا نفهم بسهولة ما للمعرفة الواضحة والتميّزة من سلطان على الانفعالات، ولا سيما ذلك الضرب الثالث من المعرفة (راجع في شأنه حاشية القضية 47، الجزء 11) الذي يقوم على معرفة الله ذاتها؛ ورغم أن هذه المعرفة لا تقضي تماماً على انفعالات من نوع الانفعالات السلبية (انظر القضية 3 وحاشية القضية 4)، إلا أنها لا تتركها تحتل أكثر من جزء ضئيل من النفس (القضية 14). وعلاوة على ذلك، يتجم عن هذه المعرفة حباً شياً ثابت وأزلي (القضية 15) تكون على يقين حقيقي من امتلاكه (انظر القضية 45، الجزء 11)؛ وبالتالي فإن هذا الحب لا يمكن أن تدنسه أية رذيلة من الرذائل العالقة بالحب العادي، بل يمكنه أن يصبح أعظم فأعظم (القضية 15) فيحتل أعظم جزء من النفس (القضية 11) ويؤثر فيها تأثيراً شديداً.

وهكذا أكون قد أنهيت الحديث عما يتعلق بالحياة الحاضرة، وفعلاً، يستطيع كل واحد أن يتبين بسهولة ما قلته في بداية هذه الحاشية، وهو أنني قد ضمنت هذه القضايا القليلة جميع أنواع العلاج الخاصة بالانفعالات، شريطة الانتباه في نفس الوقت إلى ما قلته في هذه الحاشية وفي تعريف النفس والانفعالات وأخيراً في القضيتين 1 و3 من الجزء الثالث. لقد حان الآن إذن كي أنقل إلى ما يتعلق بديمومة (durationem) النفس، وذلك بغض النظر عن وجود الجسم.

القضية 21

لا يستطيع النفس أن تتخيل أي شيء ولا أن تتذكر الأشياء الماضية إلا أثناء ديمومة الجسم (durante Corpore).

البرهان

لا تعبر النفس عن الوجود الفعلي لجسمها، ولا تتصور أيضا انفعالات الجسم على أنها انفعالات فعلية، إلا أثناء ديمومة الجسم (لازمة القضية 8. الجزء II)؛ وتبعاً لذلك (القضية 26. الجزء II) فهي لا تتصور أي جسم على أنه موجود بالفعل إلا أثناء مدة جسمها؛ وبالتالي فإنها لا تستطيع أن تتخيل أي شيء (راجع تعريف المخيلة في حاشية القضية 17. الجزء II)، ولا أن تتذكر الأشياء الماضية إلا أثناء ديمومة الجسم (راجع تعريف الذاكرة في حاشية القضية 18. الجزء II).

القضية 22

يُبد أنه توجد في الله بالضرورة فكرة تعبر عن ماهية هذا الجسم البشري أو ذاك من منظور الأزل (*sub aeternitatis specie*).

البرهان

ليس الله علّة وجود هذا الجسم البشري أو ذاك فحسب، بل هو أيضاً علّة ماهيته (القضية 25. الجزء I) التي يجب أن تُتصور بالضرورة بماهية الله ذاتها (البيديهية 4. الجزء I)، وذلك بضرورة أولية معينة (القضية 16. الجزء I)؛ فلا بد إذن من وجود هذا التصور في الله بالضرورة.

القضية 23

لا يمكن للنفس البشرية أن تفنى تماما مع الجسم، وإنما يبقى منها شيء أزلي.

البرهان

يوجد في الله بالضرورة تصور أو فكرة تعبر عن ماهية الجسم البشري (القضية السابقة)، وهي بناء على ذلك شيء ينتمي بالضرورة إلى طبيعة النفس البشرية (القضية 13، الجزء II)، لكننا لا ننسب إلى النفس البشرية أية ديمومة يمكن تحديدها بالزمان، إلا إذا كانت هذه النفس تعبر عن الوجود الفعلي للجسم، وهو وجود تعلّله الديمومة ويحدّده الزمان؛ وبعبارة أخرى (لازمة القضية 8، الجزء II) إننا لا ننسب الديمومة إلى النفس ذاتها إلا أثناء ديمومة الجسم. لكن لما كان ما يتصور بالضرورة أزلياً بمقتضى ماهية الله ذاتها هو (القضية السابقة)، مع ذلك، شيء ما، فإن هذا الشيء الذي ينتمي إلى ماهية النفس سيكون بالضرورة أزلياً.

خاتمة

كما سبق القول، هذه الفكرة المعبرة عن ماهية الجسم من منظور الأزل إنما هي ضرب من ضروب الفكر الذي ينتمي إلى ماهية النفس والذي هو أزلي بالضرورة. إلا أنه يتعذر أن يكون لدينا أية نكوى عن وجودنا قبل الجسم، إذ لا يمكن أن يبقى في الجسم أي أثر لهذا الوجود، كما أنه لا يمكن

للأزل أن يُحدّد بالزمان ولا أن تكون له أية علاقة بالزمان. ومع ذلك فنحن نشعر ونختبر أننا خالدون. ذلك أن شعور النفس بهذه الأمور التي تتصورها بالذهن لا يقلّ عن شعورها بالأمور المحفوظة في ذاكرتها. فعيون النفس التي ترى بها الأشياء وتعاينها إنما هي الاستدلالات ذاتها. وعليه فبالرغم من أنه ليس لدينا ذكرى عن وجودنا قبل الجسم، إلا أننا نشعر بأن أنفسنا خالدة من حيث أنها تتطوي على ماهية الجسم من منظور الأزل، وأن وجود النفس لا يمكن أن يُحدّد بالزمان أو يعلل بالديمومة. إذن لا يمكن القول إن النفس تدوم (durare) ولا يمكن لوجودها أن يُحدّد بزمان معين إلا من جهة كونها تتطوي على الوجود الفعلي للجسم، وبهذه الصورة فحسب تكون لها القدرة على تحديد وجود الأشياء تحديدا زمانيا وعلى تصورها في الديمومة.

القضية 24

كلما ازداد فهمنا (intelligimus) للأشياء الجزئية، ازداد فهمنا للذات الإلهية.

البوهمان

إنّ ذلك بديهي من خلال لازمة القضية 25 من الجزء الأول.

القضية 25

أعظم مجهود للنفس وقضيلتها العظمى أن تفهم (intelligere) الأشياء بواسطة النوع الثالث من المعرفة.

البرهان

ينتقل النوع الثالث من المعرفة من المعرفة التامة لبعض صفات الله إلى المعرفة التامة لماهية الأشياء (راجع تعريف هذا الضرب من المعرفة في الحاشية 2 للقضية 40، الجزء II)؛ وكلما ازداد قهْمُنَا للأشياء بهذه الطريقة، ازداد (القضية السابقة) قهْمُنَا للذات الإلهية؛ وعلى ذلك (القضية 28، الجزء IV) فإن غُضْبِلَةَ النَّفْسِ العظمى، أعني (التعريف 8، الجزء IV) قدرة النفس أو طبيعتها، أو، بمعنى آخر (القضية 7، الجزء III)، مجهودها الأعظم، هو أن تفهم الأشياء بواسطة النوع الثالث من المعرفة.

القضية 26

كلما ازدادت قدرة النفس على فهم الأشياء بواسطة النوع الثالث من المعرفة، ازدادت رغبته في فهم الأشياء بهذا النوع من المعرفة.

البرهان

هذا بديهي، باعتبار أنه إذا كنّا نتصور النفس قادرة على فهم الأشياء بواسطة هذا النوع من المعرفة، فإتّنا سنتصورها مدفوعة إلى فهمها بهذا النوع من المعرفة بالذات، وعليه (التعريف 1 للانفعالات) فكلّما ازدادت قدرتها على ذلك، ازدادت رغبته في ذلك.

القضية 27

ينشأ عن هذا النوع الثالث من المعرفة أعظم انبساط (acquiescentia) يمكن أن تعرفه النفس.

السيرفسان

أعظم فضيلة من فضائل النفس هي أن تعرف الله (القضية 28، الجزء IV)، أي أن تعرف الأشياء بواسطة النوع الثالث من المعرفة (القضية 25)؛ وتكون هذه الفضيلة أعظم بقدر ما تتم معرفة النفس للأشياء عن طريق هذا النوع من المعرفة (القضية 24)؛ وعلى ذلك إن من يعرف الأشياء بهذا النوع من المعرفة ينتقل إلى أعلى درجة من الكمال الإنساني، وبالتالي سيكون شعوره بالفرح أعظم شعور (التعريف الثاني للأنفعالات)، كما سيكون ذلك مقترنا (القضية 43، الجزء II) بفكرة ذاته وبفكرة فضيلته الشخصية؛ وعلى هذا الأساس (التعريف 25 للأنفعالات) ينشأ عن هذا النوع من المعرفة أعظم انبساط يمكن أن تعرفه النفس.

القضية 28

لا يمكن للجهد أو الرغبة (Conatus seu Cupiditas) في معرفة الأشياء بواسطة النوع الثالث من المعرفة أن ينشأ عن النوع الأول من المعرفة، بل هو ينشأ عن النوع الثاني.

البرهان

هذه القضية بديهية بذاتها؛ ذلك أنّ كلّ ما ندركه بوضوح وتميّز إنّما ندركه إمّا بذاته وإمّا بشيء آخر يتصوّر بذاته؛ وبعبارة أخرى، إنّ الأفكار التي تكون لدينا واضحة ومتميّزة، أي التي تتعلّق بالنوع الثالث من المعرفة (الحاشية 2 للقضية 40، الجزء II)، لا يمكنها أن تنشأ عن الأفكار المبثورة والمختلطة التي تنسب إلى النوع الأول من المعرفة، وإنّما تنشأ عن أفكار تامّة، أعني (نفس الحاشية) عن النوعين الثاني والثالث من المعرفة؛ وعلى ذلك (التعريف 1 للأنفعالات) فإنّ الرغبة في معرفة الأشياء عن طريق النوع الثالث من المعرفة لا يمكنها أن تنشأ عن النوع الأول، وإنّما عن الثاني.

القضية 29

كلّ ما تفهمه النفس من منظور الأزل، لا تفهمه لكونها تتصوّر الوجود الفعلي الحاضر للجسم، وإنّما لكونها تتصوّر ماهية الجسم من منظور الأزل.

البرهان

إنّ النفس، بوصفها تتصوّر الوجود الحالي لجسمها، تتصوّر الديمة التي يمكن أن تتحدّد بالزمان، ولها القدرة على تصوّر الأشياء في علاقتها بالزمان (القضية 21 أعلاه، والقضية 26، الجزء II). بيدّ أنّه لا يمكن تفسير الأزل

بالديمومة (التعريف 8، الجزء I، وشرحه)؛ وعليه فليس للنفس، بوصفها تتصور الوجود الحالي لجسمها، القدرة على تصور الأشياء من منظور الأزل. لكن لما كان من طبيعة العقل أن يتصور الأشياء من منظور الأزل (اللازمة 2 للقضية 44، الجزء II) ومن طبيعة النفس أن تتصور ماهية الجسم من منظور الأزل (القضية 23)، باعتبار أنه لا شيء ينتمي إلى ماهية النفس (القضية 13، الجزء II) عدا هذين الوجهين من المعرفة، فإن قدرة النفس تلك على تصور الأشياء من منظور الأزل لا تنتمي إذن إلى النفس إلا من حيث أنها تتصور ماهية الجسم من منظور الأزل.

حاشية

إننا ننظر إلى الأشياء على أنها فعلية (actuales) من منظوريين اثنين: إما بوصفها موجودة في زمان ومكان محددين، وإما بوصفها متضمنة في الله وناتجة عن وجوب الطبيعة الإلهية. والأشياء التي نتصورها من هذا المنظور الثاني بوصفها حقيقية وواقعية، إنما نتصورها من منظور الأزل، وتكون أفكارها متضمنة لماهية الله الأزلية واللأنهاية، كما بينا ذلك في القضية 45 من الجزء الثاني، التي أحيل أيضا إلى حاشيتها.

القضية 30

إن النفس، بوصفها تعرف ذاتها وتعرف الجسم من منظور الأزل، تعرف الله بالضرورة وتعلم أنها موجودة في الله وتتصور به.

البوهان

الأزل (Aeternitas) عين ماهية الله بوصفها تنطوي على الوجود الضروري (التعريف 8، الجزء I). وعلى ذلك فإن تصور الأشياء من منظور الأزل هو تصورهما من جهة كونها تتصور بماهية الله كموجودات واقعية (entia realia) أي من جهة كونها، بمقتضى ماهية الله، تنطوي على الوجود؛ وهكذا فإن النفس، من حيث أنها تتصور ذاتها وتتصور الأشياء من منظور الأزل، تعرف الله بالضرورة وتعلم، إلخ.

القضية 31

ينتج النوع الثالث من المعرفة عن النفس بوصفها علته الصورية، باعتبار أن النفس ذاتها أزلية (aeterna).

البوهان

لا تتصور النفس شيئاً من منظور الأزل إن لم يكن ذلك بوصفها تتصور

* أزلية، لا خالدة، باعتبار أن الخلود يعني الاستمرار في الزمان، بينما المقصود بالأزلية هو ما لا يصري عليه الزمان ولا يوجد فيه لا قبل ولا بعد. وفي الحقيقة فإن لفظ الأزل يفيد في العربية القدم، أي ما لا بداية له في الزمان، في مقابل الأبد، أي ما لا نهاية له في الزمان. أمّا اللفظ اللاتيني Aeternitas، الذي يرايه بالفرنسية Eternité، فهو يشير في نفس الوقت إلى الأزل والأبد. ومهما كان الأمر، فإن سبينوز قد عرف ما يقصده بالأزل عندما قال: متحدثاً عن الأزلية الإلهية، إن الله أزلي بنفس المعنى الذي تكون به ماهية الدائرة أزلية (انظر مخطوط ميتافيزيقية، الجزء II، الفصل I).

ماهية جسمها من منظور الأزل (القضية 29)، أي (القضيتان 21 و23) بوصفها أزلية؛ وبالتالي (القضية السابقة) فهي، بوصفها أزلية، تعرف الله، وهذه المعرفة هي بالضرورة معرفة تامة (القضية 46، الجزء II)؛ وعلى تلك تكون النفس، باعتبارها أزلية، قاهرة على معرفة كل ما يمكن أن ينتج عن معرفة الله تلك (القضية 40، الجزء II) أي على معرفة الأشياء عن طريق النوع الثالث من المعرفة (راجع تعريفه في الحاشية 2 للقضية 40، الجزء II)؛ وعلى هذا فإن النفس (التعريف 1، الجزء III)، بوصفها أزلية، هي العلة التامة أو الصورية لهذا النوع من المعرفة.

حاشية

يقدر تفوقنا في هذا النوع من المعرفة نكون أكثر وعياً بأنفسنا وبالإله، أي أننا نكون أكثر كمالاتنا وغبطة، وهو ما سنتبينه بالكثير وضوح من خلال القضايا القادمة. لكن ما تجدر ملاحظته هنا هو أننا، رغم تحققنا منذ الآن من أزلية النفس بوصفها تتصور الأشياء من منظور الأزل، إلا أننا سننظر إليها - من أجل تقديم تفسير أوضح ومعرفة أفضل لما نريد إثباته - كما لو كانت بدأت الآن فقط في الوجود وفي تصور الأشياء من منظور الأزل؛ وهو المنهج الذي توخينا به إلى حد الآن والذي يجوز توخيّه يوماً خوفاً من الوقوع في الخطأ، شريطة ألا نستنتج شيئاً من غير المقدمات التي ندركها بوضوح.

القضية 32

إننا نجد متعة (delectamur) في كل ما نفهمه بواسطة النوع الثالث من المعرفة، ويكون ذلك مصحوباً بفكرة الله كعلة.

البوهان

ينشأ عن هذا النوع من المعرفة أعظم انبساط يمكن أن تعرفه النفس، أعني أعظم فرح (التعريف 25 للانفعالات)، ويكون ذلك مصحوباً بفكرة الذات نفسها كعلة (القضية 27)، وبالتالي أيضاً بفكرة الله كعلة (القضية 30).

لأزلية

ينشأ عن هذا النوع الثالث من المعرفة حبّ عقليّ لله؛ ذلك أنّه ينشأ عن هذا النوع من المعرفة (القضية السابقة) فرحٌ مصحوبٌ بفكرة الله كعلة، أي (التعريف 6 للانفعالات) تنشأ محبة الله، لا من حيث أننا نتخيله حاضراً (القضية 29)، وإنما من حيث أننا ندرك أنّه أزلي؛ وذلك هو ما أسمّيه بالحبّ العقليّ لله.

القضية 33

. الحبّ العقليّ لله (Amor Dei intellectualis)، الذي ينشأ عن النوع الثالث من المعرفة، حبّ أزلي.

البوهان

إنّ النوع الثالث من المعرفة (القضية 31 والبيديه 3، الجزء I) أزلي؛ إنّه نفس البيديه، الجزء I) فالحبّ الذي ينشأ عنه حبّ أزلي أيضاً.

حاشيية

رغم أنه ليس لحب الله هذا بداية (القضية السابقة)، إلا أنه يملك جميع كمالات الحب، كما لو كان قد نشأ، مثلما افترضنا ذلك على وجه التخيّل في لازمة القضية السابقة، والفرق الوحيد هو أن النفس تملك بصورة أزلية تلك الكمالات التي افترضناها تتضاف إليها، وذلك مع فكرة الإله كعلة أزلية. وإن كان الفرح يتمكّل في الانتقال إلى كمال أعظم، فالغبطة تتمكّل إذن في تمتّع النفس بالكمال ذاته.

القضية 34

لا تخضع النفس لانفعالات من نوع الانفعالات السلبية إلا أثناء ييمومة الجسم.

البسوطان

الخيال هو الفكرة التي تنظر بها النفس إلى شيء ما على أنه حاضر (راجع تعريفه في حاشية القضية 17، الجزء II)، ومع ذلك فهو يشير إلى الحالة الحاضرة للجسم البشري أكثر منه إلى طبيعة الشيء الخارجي (اللازمة 2 للقضية 16، الجزء II)، فالانفعال هو إذن التخيّل (التعريف العام للانفعالات) يوصفه يشير إلى الحالة الحاضرة للجسم؛ وهكذا (القضية 21) فإن النفس لا تخضع لانفعالات من نوع الانفعالات السلبية إلا أثناء ييمومة الجسم.

لازمة

يترتب على ذلك أنه لا وجود لأي حب أزلي، باستثناء الحب العقلي.

حاشية

لو تلمكنا الآراء الشائعة بين القاس، وجدناهم يشعرون حقًا بأولية أنفسهم، غير أنهم يخلطون بين الأزل والديمومة، ويتسبون الأزل إلى الخيال أو الذاكرة التي يعتقدون أنها تظل باقية بعد الموت.

القضية 35

إن الله يحب نفسه حبًا عقليًا لا نهائيًا.

البرهان

إن الله لا متناه إطلاقًا (التعريف 6، الجزء 1)، أي (التعريف 6، الجزء II) أن طبيعة الله تنعم بكمال لا نهائي، ويكون ذلك (القضية 3، الجزء II) مصحوبة بفكرة ذاته، أعني (القضية 11 والتعريف 1، الجزء I) بفكرة علته الذاتية؛ وهو ما أسميناه، في لازمة القضية 32، بالحب العقلي.

القضية 36

إن ما تشعر به النفس من حب عقلي لله لا يختلف عن الحب الذي

يحبّ به الله نفسه، لا من حيث هو لا متناه، وإنما من حيث أنّه يمكن تفسيره بماهية النفس البشرية منظوراً إليها من جهة الأزل؛ بمعنى أنّ ما تشعّر به النفس من حبّ عقليّ لله هو جزء من الحبّ اللامتناهي الذي يحبّ به الله نفسه.

البرهان

يتعلّق حبّ النفس هذا بأنفعال النفس (لازمة القضية 32؛ والقضية 3، الجزء III)؛ وعليه فهو الفعل الذي تتأمّل به النفس ذاتها والذي تصحبه فكرة الله كماله (القضية 32 ولازمتها)، أي (لازمة القضية 25، الجزء I، ولازمة القضية 11، الجزء II) أنّه الفعل الذي يتأمّل به الله - من حيث أنّه يمكن تفسيره بالنفس البشرية - ذاته والذي تصحبه فكرة ذاته، وعلى ذلك (القضية السابقة) فإنّ هذا الحبّ الذي تشعّر به النفس هو جزء من الحبّ اللامتناهي الذي يحبّ به الله نفسه.

لازمة

يتوتّب على ذلك أنّ الله، من حيث هو محبّ لذاته، يحبّ البشر، وبالتالي فإنّ حبّ الله للبشر وحبّ النفس العقليّ لله هما شيء واحد لا غير (unum et idem sit).

حاشية

ومن هذا المنطلق يتجلّى بوضوح أين يكون خلاصتنا، أعني غبطتنا أو

حرّيتنا، ألا وهو في الحبّ الدائم والأزلي لله، أو في حبّ الله للبشري. هذا الحبّ أو الغبطة هو الذي يطلق عليه في الكتب المقدّسة، عن جدارة، اسم المجد. إذ سواء كان مصدر هذا الحبّ هو الله أو النفس، فإنّه يحقّ تسميته بانسباط النفس. وهذا الانسباط لا يختلف في الحقيقة عن المجد (التعريفان 25 و30 للانفعالات). فهو فعلا، من حيث نسبته إلى الله، فرح - يُستَمَع لي باستعمال هذا اللفظ مرّة أخرى - تصحبه فكرة الذات نفسها؛ وكذا الشأن إن كانت نسبته إلى النفس (القضية 27). وعلاوة على ذلك، لما كانت ماهية أنفسنا تتمثل في المعرفة فحسب، ولما كان الله هو مبدأ هذه المعرفة وأساسها (القضية 15، الجزء I، وحاشية القضية 41، الجزء II)، فإنّنا ندرك بوضوح كيف وبأيّة صورة تنقج النفس، من حيث الماهية والوجود، عن الطبيعة الإلهية، وكيف تظلّ تابعة لها. لقد رأيت أنّ الأمر يستحقّ الإشارة إليه هنا حتّى تقيّن من خلال هذا المثال ما هي قيمة معرفة الأشياء الجزئية التي أسميتها المعرفة المدسية (intuitivam) أو المعرفة من النوع الثالث (حاشية القضية 40، الجزء II)، وكما تفوق هذه المعرفة المعرفة الكلّية (cognitione universali) والتي قلت إنّها النوع الثاني من المعرفة. فبالرغم من أنّي أثبتّ عموما، في الجزء الأوّل، أنّ الأشياء جميعا (وبالتالي النفس البشرية أيضا) تابعة لله من حيث الماهية والوجود، فإنّ هذا الإثبات، مع أنّه إثبات مشرّع ولا يفسح مجالا للشك، لا يكون تأثيره في أنفسنا على نحو تأثير نفس النتيجة المستخلصة من عيّن ماهية شيء من الأشياء الجزئية التي نقول بأنّها تابعة لله.

القضية 37

لا يوجد في الطبيعة أيّ شيء مناقض لهذا الحبّ العقلي، أي قاصر على إبطاله (tollere).

البرهان

ينتج هذا الحب العقلي بالضرورة عن طبيعة النفس، من جهة اعتبارها هي ذاتها، بمقتضى طبيعة الله، حقيقة أزلية (القضيتان 33 و29). وبناء على ذلك لو وجد شيء مناقض لهذا الحب، لكان هذا الشيء مناقضا للحق؛ وبالتالي لكان الشيء القادر على إبطال الحب قادرا على جعل الحق باطلا؛ إلا أن ذلك (كما هو معلوم بذاته) محال. إذن لا يوجد في الطبيعة أي شيء، إلخ.

حاشية

تتعلق بديهة الجزء الرابع بالأشياء الجزئية منظورة إليها في علاقتها بزمان ومكان محددين؛ أعتقد أنه لا أحد يشك في ذلك.

القضية 38

كلما فهمت النفس أشياء أكثر بواسطة النوعين الثاني والثالث من المعرفة، كان تأثرها بالانفعالات السيئة أقل، وكان خوفها من الموت أقل.

البرهان

تتمثل ماهية النفس في المعرفة (القضية 11، الجزء II)؛ وعليه فكلما كانت النفس تعرف أشياء أكثر عن طريق النوعين الثاني والثالث من المعرفة، كان

الجزء الذي يظلّ باقيا منها جزءاً أعظم (القضيتان 29 و23)، وبالتالي (القضية السابقة) كان الجزء غير المتأثر بالانفعالات المناقضة لطبيعتنا، أي (القضية 30، الجزء IV) بالانفعالات السيئة، جزءاً أعظم. إذن فكلما فهمت النفس أشياء أكثر من طريق النوعين الثاني والثالث من المعرفة، كان الجزء الذي يظلّ فيها سليماً جزءاً أعظم، وبالتالي كان تأثرها بالانفعالات أقل، إلخ.

حاشية

نقهم من هنا ما نُحِت إليه في حاشية القضية 39 من الجزء IV وما وعدت بتفسيره في هذا الجزء الخامس؛ وهو أن الموت يكون أقلّ أذى بقدر ما يكون للنفس من معرفة واضحة ومتميزة وبقدر ما يكون لها بالتالي من حبّ لله. وعلاوة على ذلك فما دام (القضية 27) النوع الثالث من المعرفة يُفرز أعظم انبساط ممكن، فإنه يمكن لطبيعة النفس البشرية أن تكون على شكل يجعل جزءها الذي يفنى - كما بيّنّا ذلك (القضية 21) - بقاء الجسم حقيراً بالمقارنة مع الجزء الذي يبقى. لكننا ستعالج قريباً هذه النقطة بكثير إسهاب.

القضية 39

من كان جسمه يملك عبداً كبيراً جداً من الاستعدادات (aptum)، كان الجزء الأعظم من نفسه أزلياً (aeterna).

البرهان

من كان جسمه قابلاً على أداء عدد كبير جداً من الأفعال، كان لا يخضع إلا قليلاً جداً للانفعالات السيئة (القضية 38، الجزء IV)، أي للانفعالات

(القضية 30، الجزء IV) المناقضة لطبيعتنا؛ وهكذا (القضية 10) فهو يكون قادراً على تنظيم انفعالات الجسم وعلى ربط بعضها ببعض وفق نظام مناسب للذهن (intellectum). كما يكون قادراً بالتالي على (القضية 14) ربط كل انفعالات الجسم بفكرة الإله؛ وبناء على ذلك فهو (القضية 15) سيشعر نحو الله بالحب الذي (القضية 16) ينبغي أن يشغل أو يكون الجزء الأعظم من النفس، وإذّاك (القضية 33) فإنّ الجزء الأعظم من نفسه سيكون أزلياً.

مأشيه

لما كانت الأجسام البشرية تملك عدداً كبيراً جداً من الاستعدادات، فلا شكّ أنّها تستطيع أن تكون من طبيعة تجعلها ترتبط بنفوس تملك معرفة كبيرة بذواتها وبالله ويتّصف الجزء الأعظم منها أو جزؤها الرئيسي بالأزلية، فلا يملكها الذعر من الموت أبداً. لكن يتطلّب فهم ذلك بأكثر وضوح أن نلاحظ هنا أنّنا نعيش تقيراً مستمراً وأنّنا نُقال سعداء أو أشقياء بحسب تحوّلنا إلى ما هو أحسن أو إلى ما هو أسوأ. فالذي ينتقل من حالة الطفولة أو الشباب إلى حالة جثة يُقال شقيّاً، وعلى العكس من ذلك، تُعتبر السعادة في أن يُعمر المرء متمتعاً بنفس سليمة في جسم سليم. وبغلا، من كان جسمه، كالطفل أو الشاب الصغير، قادراً على أشياء قليلة جداً وخاضعاً إلى أقصى حدّ للأسباب الخارجيّة، كانت نفسه، منظّورة إليها في حدّ ذاتها، لا تُكاد تعي ذاتها ولا الله ولا الأشياء؛ وعلى العكس، من كان جسمه قادراً على أشياء كثيرة جداً، كانت نفسه، منظّورة إليها في حدّ ذاتها، على وعي شديد بذاتها وبالإله وبالأشياء. فنحن نجدّ إذن في هذه الحياة قبل كلّ شيء في أن يتحوّل جسم الطفولة، بقدر ما تحتمل طبيعته ويقدر ما يناسبه ذلك، إلى جسم آخر قادر على عدد كبير جداً من الأمور ومرتبطة بنفس واعية إلى أقصى درجة

بذاتها وبإلإله وبالأشياء، بحيث يكاد يكون كل ما يتعلّق بذاكرتها أو مخيلتها غير هام بالنظر إلى (in respectu) الذهن، مثلما قلت في حاشية القضية السابقة.

القضية 40

بقدر ما يكون لشيء من الأشياء من الكمال، يكون أكثر فعلا وأقل انفعالا؛ وعلى العكس، بقدر ما يكون فاعلا، يكون أكثر كمالا.

البرهان

بقدر ما يكون لشيء من الأشياء من الكمال، يكون له أكثر واقعية (التعريف 6، الجزء II). وعلى ذلك (القضية 3، الجزء III، وحاشيتها) فيقدر ما يكون فاعلا، يكون أقل انفعالا؛ ويقام البرهان بنفس الطريقة في الاتجاه المعاكس، بحيث يترتب لو عكسنا الآية، أن الشيء يكون أكثر كمالا بقدر ما يكون فاعلا.

لأهمية

يترتب على ذلك أن الجزء الذي يمثّل باقيا من النفس، مهما كان حجمه، إنّما هو أكمل من الآخر. ذلك أن الجزء الأزلي في النفس هو العقل، وهو الجزء الوحيد الذي تُقال بمقتضاه فاعلين (القضية 3، الجزء III)؛ أمّا الجزء الذي بيناء على العكس، أنّه قان، فهو المخيلة ذاتها (القضية 21)، وهو الجزء الوحيد الذي تُقال بمقتضاه متفعلين (القضية 3، الجزء III، والتعريف العام

للاتفاعلات)؛ إذن (القضية السابقة) فالجزء الأول، سواء كان صغيراً أو كبيراً، هو أكمل من الثاني.

حاشية

هذا ما أردت إثباته بالنسبة إلى النفس، منظوراً إليها خارج علاقتها بوجود الجسم؛ يبدو من هتاء وأيضاً من خلال القضية 21 من الجزء الأول، ومن خلال قضايا أخرى كذلك، أن النفس، من حيث أنها تفهم، هي حال أزلي (aeternus modus) من أحوال الفكر، وهذا الأخير يحدده بدوره حال آخر، وهكذا بلا نهاية، بحيث تؤلف جميعها معاً عقل الله الأزلي واللاتهائي.

القضية 41

حتى لو لم نكن نعلم أن أنفسنا خالدة، فإن الأخلاقية (Pietatem) والتدين (Religionem)، ويوجه الإطلاق كل ما بينا في الجزء الرابع أنه يتعلق برباطة الجأش والمروعة، ستظل في نظرنا أمورا رئيسية.

البرهان

المبدأ الأول والوحيد للفضيلة أو للتوجيه السوي للحياة هو (لازمة القضية 22، والقضية 24، الجزء IV) البحث عما ينفعهنا بوجه خاص. لكننا لم نأخذ بعين الاعتبار، لما حددنا ما يوصي به العقل كشيء نافع، خلود النفس الذي لم

نتبينه إلا في هذا الجزء الخامس. وبالرغم من جهلنا آنذاك أن النفس خالدة، إلا أن ما أثبتنا نسبته إلى رباطة الجأش والمروءة قد ظل في منظورنا أهم شيء؛ وعلى هذا فحتى لو لم نزل نجهل ذلك، فإننا سننظر إلى وصايا العقل تلك على أنها أمور رئيسية.

حاشية

تعتقد العامة (vulgi) عادة في عكس ذلك؛ فغفلاً، يبدوا أن السواد الأعظم يظنون أنفسهم أحراراً كلما جاز لهم الإذعان لميولهم، ويظنون أنهم يتنازلون عن حقوقهم كلما أرغموا على العيش وفق القواعد التي يقضي بها القانون الإلهي. فالأخلاقية إذن والتدين، وعلى وجه الإطلاق كل ما يتعلق بقوة النفس، إنما هي أشياء يعتبرونها حملاً يأمسون إزاله بعد الموت، كي ينالوا جزاء العبودية، أي جزاء الأخلاقية والتدين؛ وليس هذا الأمل وحده ما يدفعهم إلى العيش وفق القواعد التي يقضي بها القانون الإلهي، بل يدفعهم إلى ذلك أيضاً وبوجه خاص خوفهم من العذاب المريع بعد الموت، بقدر ما تتيج لهم ذلك خستهم ومجزهم النفسي. فلو لم يكن للبشر هذا الأمل وهذا الخوف، ولو كانوا يعتقدون، على العكس من ذلك، أن النفس تفنى بقاء الجسم وأنه لا أمل للأشقياء، الذين انتهكهم عبء الأخلاقية، في حياة أجلة، لعادوا إلى طبعهم وأرادوا تدبير جميع الأمور وفق ميولهم والتعميل على الحظ أكثر منه على أنفسهم. وليس ذلك أقل خُلُفاً في رأيي من أن يعتمد شخص، نظراً إلى كونه لا يعتقد نفسه قادراً على تغذية جسمه إلى الأبد بطعام جيد، إلى التشبع بالسّموم والموادّ القاتلة؛ أو أن يفضل، نظراً إلى كونه يعتقد أن النفس ليست أزلية أو خالدة (aeternam seu immortalem)، أن يكون مجنوناً وأن يعيش بلا عقل؛ فهذا خُلف لا يستحق حتى النظر فيه.

القضية 42

ليست الفبطة (Beatitudo) جزءاً القضيّة، بل هي القضيّة عينها؛ ولا ينشرح صدرنا (gaudemus) بذلك لكوننا تكبح شهواتنا، بل إنْ انشراحنا هو ما يسمح، على العكس، بكبح شهواتنا.

البوهان

تتمثل الفبطة في حبّ الله (القضية 36 وحاشيتها)، وينشأ هذا الحبّ عن النوع الثالث من المعرفة (لازمة القضية 32)؛ وعلى ذلك (القضيتان 59 و3، الجزء III) فلا بدّ أن يكون هذا الحبّ مرتبطاً بالنفس بوصفها فاعلة، وإذا كان (التعريف 8، الجزء IV) فهو القضيّة عينها.

وعلاوة على ذلك، فيقرر ما تنشرح النفس بهذا الحبّ الإلهي أو بهذه الفبطة (Amore divino seu beatitudine)، تزداد معرفتها (القضية 32)، أي أنّها (لازمة القضية 3)، بقدر ما يكون سلطانها على الانفعالات سلطاناً أعظم (القضية 38)، يكون تأثيرها بالانفعالات السيئة تأثيراً أقلّ؛ وبالتالي فإنّ النفس، باعتبارها تنشرح بهذا الحبّ الإلهي أو الفبطة، تستطيع كبح شهواتها. ولما كانت قدرة الإنسان على كبح الانفعالات تتمثل في الفهم (intellectu) فحسب، فلا أحد تحصل له إذن بهجة السعادة (beatitudine gaudet) بكبح انفعالاته، بل على العكس، إنّ القدرة على كبح الانفعالات تنشأ عن السعادة نفسها.

حاشية

لقد أنهيت الحديث هنا من كلّ ما كنت أرتقب في إثباته عن سلطان النفس

على انفعالاتها، وعن حرية النفس، وتذكرك بهذه الصورة ما هي منزلة الحكيم، وما له من قدرة يطوق بها الجاهل الذي لا ينقاد إلا لشهواته. فالجاهل، فضلا عن كونه تنقذفه العوامل الخارجية بشتى الطرق ولا ينعم قط برضى النفس الحقيقي، يكاد يكون على غير وعي تماما بذاته وبالإله وبالأشياء، وحالما يكف عن الانفعال فهو يكف أيضا عن الوجود. أما الحكيم، من حيث هو حكيم، فإن الاضطراب لا يعرف إلى قلبه متفذا، بل هو - نظرا إلى ما يقص به، وفقا لضرورة أولية محددة، من وعي بذاته وبالإله وبالأشياء - لا يكف عن الوجود أبدا ويتعم بانبساط النفس الحقيقي. ولئن بدأ السبيل الذي أشرت إليه وعمرا للغاية، فإنه لا يتعذر مع ذلك الاهتداء إليه. لا جرم، فكل ما ندر وجوده صعب بلوغه؛ إذ هل يعقل، لو كان الخلاص في متناولنا ولو كان بوسعنا الفوز به موتما عناء شديد، ألا يعيا به أحد تقريبا؟ لكن كل نفس يكون أصعب المنال بقدر ما يكون نائرا.

معجم

لاتيني - فرنسي - عربي

- A -

Abjectio	الاستخفاف بالذات	Mésestime de soi
		Dépréciation de soi
Acquiescentia in se ipso	الرضا بالذات	Contentement de soi
Actio	الفعل	Action
Adaequatus	التام - المطابق	Adéquat
Admiratio	الإعجاب	Admiration
AEmulatio	المنافسة	Emulation
AEternitas	الازل	Eternité
AEternus	أزلي	Eternel
Affectio	انفعال - تأثر - عرض	Affection
Affectus	الانفعال - الشعور	Affect - Affection
Afficere	أثر	Affecter
Agere	فعل	Agir
Ambitio	الطموح	Ambition
Amor	الحب	Amour
Amor sui	حب الذات	Amour de soi
Animi fluctuatio	قلب النفس	Fluctuation de l'Âme
		Flottement de l'Âme

Animi Pathema	Passion de l'Âme	انفعال النفس
	Passivité de l'Âme	
Animi praesentia	Présence d'esprit	حضور البصيرة
Animosita	Fermeté	رباطة الجأش
Antipathia	Antipathie	النفور
Appetitus	Appétit	الشهوة
Attributum	Attribut	الصفة
Audacia	Audace	الجرأة - الجسارة
Avaritia	Avarice	البخل
Aversio	Aversion	التقور
Axioma	Axiome	بديهية

- B -

Beatitudo	Béatitude	الغبطة
Benevolentia	Bienveillance	العطف
Bonum	Bien	الخير
(Summum) Bonum	Bien suprême	الخير الأعلى

- C -

Causa	Cause	العلّة؛ السبب
Causa adaequata	Cause adéquate	العلّة التامة
Causa inadequata	Cause inadéquate	العلّة غير التامة
Causa immanens	Cause immanente	العلّة المحايثة

Causa sui	Cause de soi	علة ذاته
Civis	Citoyen	المواطن
Civitas	Cité; Société civile; Etat	القولة، المجتمع المدني .
Clementia	Clémence	الرحمة
Commiseratio	Commisération	الشفقة
Cognoscere	Connaître	عرف
Cognitionis Privatio	Privation de connaissance	عدم المعرفة
Commotio	Emotion	انفعال - قاتر
Communis utilitas	Intérêt commun; Utilité commune	الصالح العام المصلحة العامة
Conari	S'efforcer de	سعى، جد
Conatus	Effort	السَّعي؛ الجهد؛ المجهود
Conceptus	Concept	التصور؛ المفهوم
Concordia	Concorde	الوئام
Confusus	Confus	مختلط؛ مبهم
Conscientiae morsus	Resserrement de conscience	الخصرة
Consternatio	Consternation - Stupeur	الذهول
Contemptus	Mépris	الاحتقار
Contingens	Contingent	حادث - جائز
Contingentias	Contingence	الحوث - الجواز
Convenientia	Convenance	الملاءمة؛ المطابقة
Corollarium	Corollaire	اللازمة
Crudelitas	Cruauté	القسوة
Cupiditas	Désir	الرغبة

- D -

Dedignatio	Dédain	الاستهانة
Definitio	Définition	التعريف؛ الحدّ
Demonstratio	Démonstration	البرهان؛ الاستدلال
Denominationes extrinsecae	Dénominations extrinsèques	التسميات الخارجية
Desiderium	Souhait frustré	الإحباط
Despectus	Mésestime	الاستخفاف
Desperatio	Désespoir	البأس
Determinatio	Détermination	التحدّد؛ التحديد
Devotio	Ferveur - Dévotion	الودع
Dolor	Douleur	الآلم
Duratio	Durée	الديمومة؛ التّوام؛ المدة

- E -

Ebrietas	Ivrognerie	إدمان الخمر
Error	Erreur	الخطأ
Essentia	Essence	الماهية
Existimatio	Surestime	إفراط التقدير

- F -

Falsitas	Fausseté	البطلان
-----------------	-----------------	---------

Falsus	Faux	باطل
Favor	Faveur	الإحطاء
Finitus	Fin	محدود
Forma	Forme	صورة؛ شكل
Fortitudo	Force d'âme	قوة النفس

- G -

Gaudium	Epanouissement	الانفتاح؛ انبساط
	Contentement	
Generalissimus	Généralissime	أعمّ العموم
Generosita	Générosité	المروحة
Gloria	Gloire	المجد
Gratia	Reconnaissance	الامتنان
Gratitudo	Gratitude	مرفان الجميل

- H -

Hilaritas	Gaieté - Allégresse	البهجة
Honestas	Honnêteté	الشرف
Honestus	Honnête	شريف
Horror	Horreur	الاستهجان
Humanitas	Humanité	الإنسانية
Humilitas	Humilité	الخذلان

- I -

Idea	Idée	الفكرة
Idea vera	Idée Vraie	الفكرة الصحيحة
Imaginare	Imaginer	تخيل
Imaginatio	Imagination	المخيلة؛ الخيال؛ التخيل
Imago	Image	الصورة
Impossibilis	Impossible	مستحيل؛ ممّتع
Impudentia	Impudence	الوقاحة
Indefinitus	Indéfini	غير محّود
Indignatio	Indignation	استياء
Intellectus		العقل؛ الذهن؛ الفهم
	Intellect - Entendement	
Intellectus actu	Intellect en acte	العقل بالفعل
	Entendement en acte	
Intellectus potentia	Intellect en puissance	العقل بالقوة
	Entendement en puissance	
		العقل اللانهائي؛ العقل اللامحّود
Intellectus infinitus	Intellect infini	
	Entendement infini	
Intellegere	Comprendre	فهم
Intellegentia	Intelligence	الفهم
	Connaissance claire	
Intrepidus	Intrépide	ياسل
Invidia	Envie	الحسد

Ima	Colère	الغضب
Irrisio	Dérision	الاستهزاء

- L -

Laelitia	Joie	الفرح؛ السرور
Lemma	Lemme	مأخوذة
Libido	Lubricité	الشبق
Luxuria	Gourmandise	الشراهة

- M -

Malum	Mal	الشر
Mélancholia	Mélancolie	الكآبة
Memoria	Mémoire	الذاكرة
Mens	Ame - Esprit	النفس
Metus	Crainte	الخشية
Misericordia	Miséricorde	الرّحمة
Modestia	Modestie	التواضع
Modus	Mode	الحال
Mutilus	Mutilé	مبتور؛ مشوّى

- N -

المعاني المشتركة؛ المعاني الشائعة

Notiones communes

Notions communes

Necessarius

Nécessaire ضروري

Necessitas

Nécessité الضرورة؛ الوجوب

- O -

Opinio

Opinion الرأي؛ الظن

Odium

Haine الكراهية

- P -

Passio

Passion الهوى؛ الانفعال السلبي

Paenitentia

Repentir التَّدم

Pati

Pâir اتفعل

Perfectio

Perfection الكمال

استمرّ في الوجود

Perseverare in existendo

Persévérer dans l'existence

Philantia

Amour - propre حبّ الذات

Amour de soi

Pietas

Moralité الأخلاقية

Possibilis

Possible ممكن؛ جائز

Postulatum

Postulat المتبادر

Potentia

Puissance القوة؛ القدرة

Privatio

Privation علم؛ انعدام

(Cognitionis) Privatio

Privation de connaissance عدم المعرفة

Propensio	Inclination	الميل
Prudentia	Prudence	الحصافة
Pudor	Honte	الخجل؛ العار
Pusillanimitas	Pusillanimité	الجهن

- R -

Ratio	Raison	العقل
(Vera) ratio	Raison vraie	العقل الصحيح
Realitas	Réalité	الواقع
Religio	Religion	الدين
Res	Chose	الشيء
Res particulares	Choses particulières	الأشياء الجزئية
		الأشياء الجزئية؛ الأشياء
Res singulares	Choses singulières	الفردية

- S -

Saevitia	Férocité	الشراسة
Scholium	Scolie	حاشية
Scientia intuitiva	Science intuitive	العلم الحدسي
Securitas	Sécurité	الامن
Sobrietas	Sobriété	القناعة
Spes	Espoir	الامل

Substantia	Substance	الجوهر
Summum Bonum	Bien suprême	الخير الأعلى
Superbia	Orgueil	الزُّهور
Sympathia	Sympathie	التعاطف

- T -

Temperantia	Tempérance	الاعتدال
Timidus	Peureux	هَيَّوب
Timor	Crainte - Peur	الخشية؛ الخوف
Titillatio	Chatouillement	المدفغة
Tristitia	Tristesse	الحزن
Turpis	Vil - Vilain	مخز

- V -

Veneratio	Vénération	الإجلال
Vera (Ratio)	Raison vraie	العقل الصحيح
Verecundia	Pudeur	الحياء
Verum	Vrai	الحق
Vindicta	Vengeance	النار
Virtus	Vertu	الفضيلة
Vis	Force	القوة
Vituperatio	Blâme	التوبيخ
Volitio	Volition	إرادة؛ فعل إرادي

Voluntas الإرادة

Vulgus العامي - العامة

Vulgus العامة؛ الجمهور

- Z -

Zelotypia الغيرة

Jalousie الغيرة

الفهرس

الصفحة

- مقدمة:

- 1 - حياة صينيوزا 7
- 2 - آثاره 9
- 3 - "علم الأخلاق" 11
- 4 - الترجمة 18

- علم الأخلاق

- الجزء الأول: في الله 29
- الجزء الثاني: في طبيعة النفس وأصلها 85
- الجزء الثالث: في أصل الانفعالات 159
- الجزء الرابع: في عبودية الإنسان أو في قوى الانفعالات 257
- الجزء الخامس: في قوة العقل أو في حوية الإنسان 353
- معجم لاتيني - فرنسي - عربي 399

صدر في هذه السلسلة

إلى يتابع الفلسفة

قصيد بارمنيدس الفلسفي

نقله من الإغريقية القديمة إلى العربية يوسف الصديق
مع دراسة في أبعاد الفكر البارمنيدي جان بوفره

سبينوزا

علم الأخلاق
ترجمة : جلال الدين سعيد

سبينوزا

رسالة في إصلاح العقل
ترجمة : جلال الدين سعيد



يصدر قريباً

أفلاطون
عائرة السفطاني

جان بوتيرو
الكتاب المقدس والمورخ: مؤلف الإله

جسالك ديسريدا
صيدلية أفلاطون

كانط
في التاريخ والتشوير

Comment "lire" l'outil de
l'Éthique dans la culture arabe
moderne, et par nos
traducteurs-philosophes ?
Comment interpréter l'omission
d'une pensée qui est, sans nul
doute, pour le monde qui nous
préoccupe, fondatrice de la
modernité critique, de l'avis
unanime de tous les pharos :
Hegel, Nietzsche, Marx,
Freud?...

بالمبدأ، وقوة التي أن لنا أن يكون
من مريد سبونزا فإننا لن نحدد الشيء
عبر شكله ولا عبر أعضائه ووظيفته ولا
على أنه جوهر أو ذات فاعلة، بل إننا
نحدده، إن استعنا الألفاظ من القرن
الوسيط أو من الجغرافيا، على خطي طول
وعرض إذ لنن كلّي لكل جسم أن يكون ما
شيء له أن يكون، حيواناً أو جزءاً ذا
جزء، روحاً أو فكرة، وحدة لافقية أو
جسداً اجتماعياً أو تجمعاً ما، فنحن نقصد
بخط الطول فيه مجموع علاقات المصرة
والاعتدال، والسنكون والمركبة التي تؤلف
بكل ذلك جزئيات هذه الجسم من هذا
المنشور، أي بين عناصر لم تتشكل معاً،
وإننا لنعد بخط العرض فيه مجموع
الافعال التي تتلاءم لينة أثناء أي حالات
تكون لا اسم لها. فعلمه مكانة (قوة العزل
في الوجود وقدره التلقّي (التمثل). هكذا
نرمز بين جزئية الجسم على أنها
مجموع خطوط، طول، وعرض، تقسيم
المعقوفة، أي، بسيط، العنوني، أو التكرار، ذلك
السنكون لا يفتأ يتعدل ويتشكل، والتألف، سر
الكون، والمجموعات

To: www.al-mostafa.com